

No. 6.

(٦)

فهرسة كتاب مطالع شموس السير فى وقائع كرلوس الثانى عشر

صحيفه

Digitized by Google

صحيفه

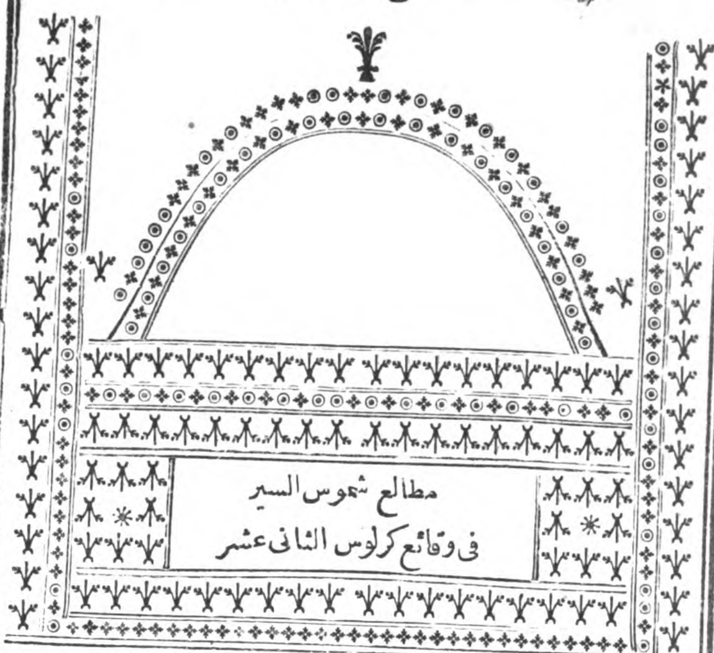
(بيان الخطأ والصواب من كتاب مطالع شموس السير)

خطا	صواب	صحيفه	سطر
اجوبة	جوية	٥	١٣
ملايين	ملايين	٦	٩
ملايين	ملايين	٦	١١
على رومة صارت من منذ ثلاثة عشر قرنا	على رومة منذ ثلاثة عشر قرنا صارت	٧	١
وامر الجلادين	وامرا الجلادين	٧	١٣
نعله	تعمله	٧	١٧
لم يكن	ولم يكن	١٢	٥
فاوقع قبل موته يسير الصلح	فشرع فى ايقاع الصلح بين الجانبين قبل	١٢	١٣
خمسة عشر سنة	خمس عشرة سنة	١٢	١٤
وكان يجعل ذلك كالنزاهة التى يظهر منها انها كانت سببا فى نشاطه من صغره	وهذه الملاهى يظهر انها ثمرة عنفوان صباه	١٣	١٣
شهر نشرين	شهر تشرين	١٧	١٣
ولم تمض مدة قليلة	ولم تمض الامدة قليلة	١٩	١١
فلهذا كانوا يتعمدون شرب اللبن فى الصيام ولكن آباء العيلات والقسيسون والنساء والبنات كانوا يسكرون فى ايام العيد بالعرقى	وكانوا يرون شرب اللبن فى الصيام محرما مع ان اباء العيلات والقسيسين والنساء والبنات كانوا يسكرون فى ايام العيد بالخمر	٢٠	٧
وعندار باب الغيرة	وعندهم ارباب غيرة	٢٠	١٣
الفلمنك وكتب	الفلمنك كتب	٢١	٩

خطا	صواب	صحيفه	سطر
(سنة ١٧٣٧)	(سنة ١٧٣٨)	٢٤	٣
القزاق والاوقرينة	قزاق اوقرينة	٢٥	١٢
البيوت	بيوته	٢٦	١٩
الرؤس مع انه	الرؤس نعم وان	٢٧	١١
فهذا صير سيرة هذا القيصر بشعة جدا فاذن الخير الذى عمله لرعاياه لا يكاد يمحو قساوته فى حق ولده الذى هو من دمه ولحمه	فهذا كان يصير سيرة هذا القيصر بشعة جدا لولا ان ما فعله من الخير مع رعاياه محا اثر تلك القساوة التى صدرت منه فى حق ولده الذى هو من لحمه ودمه	٢٧	١٤
على الهجوم على الدانيمرقيين	حين هجوم الدانيمرقيين عليه	٢٩	٢١
ركان	وكان	٣٠	١٦
ببيره	ببيتر	٣٢	١٢
اكثر ادبا	اكثر ضبطا	٣٤	٣
ونضف	ونصف	٣٤	٢٤
كان يعتقد ان الناس ينبغى أن يكونوا فى الادب على حد سوآء ملوكا او احادا	كان لا يعرف ان هناك فرقا بين الملوك والسوقة فى الاستقامة واحوال الباطن	٣٥	١٩
بفتكتين	بفنكتينه	٣٨	٢١
الموسقو بيين	الموسقوبيين	٣٩	٣
سياقتهم	طائفتهم	٥١	٤
احكام	حكام	٥٣	١٠

خطا	صواب	صحيفه	سطر
بعبته	بعبثه	٥٩	١٢
فى محل قوانين	فى حل قوانين	٦٥	٦
ووبزبر	ووبزير	٦٧	١٠
تفتح	فتحت	٦٧	١١
لم يجديدا	لم يجديدا	٦٨	١٢
تجلبها اليها	تجلبها اليه	٨٢	١٤
يستمل	يستميل	٨٢	١٦
لمعاهدة	لمعاهده	٨٣	١٢
حتى قبل	حتى قيل	٨٥	١٠
ديوان ويانة	ديوان ويانة	٨٦	٨
الغلمنك	الفلمنك	٩٥	١٦
(سنة ١٧٠٨)	(سنة ١٧٠٧)	١٠٥	٢٢
وتمار	وتتار	١١٢	٢١
لاجرفون	لاجرقرون	١١٤	١٦
اللذان	اللذين	١١٦	٣
الحصين	الحصين	١٢٠	٢
تعصب	تعصب	١٣٢	١٦
مالم يكن	مالم يمكن	١٣٤	٣
من شراق	من اشراقة	١٤٠	٥
كان من اقارب	كانا من اقارب	١٦٣	١٢
تسمى ورنيترة	تسمى ورنيترة	١٦٦	٢
يتعلقون بما	يتكفلون بما	١٦٦	١٣
بالخيانة والجبن شيخ هرم من الانكشارية يتكفل	بالخيانة والجبن وكان هنالك شيخ هرم من الانكشارية تكفل	١٦٨	٨

خطا	صواب	صحيفه	سطر
بونتاتوسق	بونياتوسق	١٦٨	١٢
آكفسب	آكتسب	١٦٨	٢٣
للفرجه علية	للفرجة عليه	١٨١	٢٣
هل تريدوب	هل تريدون	١٨٢	٢١
من الاسوجين	من الاسوجيين	١٨٣	٢٢
لبرماه	لبرياه	١٨٤	١٤
اذاجاء	آذجاء	١٩٢	١٢
يغريس	يغريس	١٩٢	١٥
ان ترسوا	ان ترسو	٢٠٣	١٧
افاويف	افاويق	٢٠٧	٧
يان نذكر	بان نذكر	٢٠٨	٢٥
دوقين	دوقيز	٢١٢	٢٤
الى ممالكم	الى ممالكهم	٢١٦	٢
قرينة	قرينه	٢٤٧	٩
الصنائع	الصنائع	٢١٩	٤
لم يبق	لم يبق	٢٢٠	٢
هى الاصلى	هى السبب الاصلى	٢٢٠	١٣
الدانيمراقيين	الدانيمرقيين	٢٢٠	١٨
استحلم	استخلم	٢٢٠	٢٣
الاوسوجيين	الاسوجيين	٢٢٠	٢٥
وخرفهم	وخوفهم	٢٢٣	١٤
منخصرا	منحصرا	٢٢٤	٢٥
الفلمنكين	الفلمنكيين	٢٤٠	٢٣
للفلمنكين	للفلمنكيين	٢٤٠	٢٥
من السقعة	من الصقعة	٢٤٩	١٥
فى (٢)	فى (٦)	٢٧٦	٢٤



❋(بسم الله الرحمن الرحيم)❋

خير الاخبار حمدك وشكرك ❋ واعظم الآثار ثناؤك وذكرك ❋ يامن تفضلت على عبادك بتوقيفهم على مامضى فى سالف الاحقاب ❋ وتعريفهم ماانقضى وقضى باستحسانه واستقباحه اولوا الالباب ❋ اجعل اللهم افضل صلواتك ❋ وازكى تحياتك ❋ على من قصصت عليه فى كتابك المبين ❋ اخبار السابقين واللاحقين ❋ سيدنا محمد سيد الاولين والاخرين ❋ وعلى آله واصحابه الفاخرين ❋ طراز التواريخ والسير ❋ وخير اهل البدو والحضر ❋ ماترجم فى زمن الخديوى الاكرم ❋ ولى ممالك مصر المفخم ❋ كتاب نفيس واشتهر اوتجدد فى ايام دولته فن معتبر ❋ ادام الله دولته زاهية زاهرة بعلوم الصلح والحرب ❋ باهية باهرة بفنون العدل والخصب ❋ وجعله دائما مصداق مدح المادحين ❋ منزها عن قدح القادحين ❋ فكيف وهو الذى اشتهر فيه لقبه وعلمه ❋ كما انتشر فى الكون لوآؤه وعلمه ❋ الممدوح بقولى تطريزا

ارج سري من نحوهم فشجاني * وازال ما في القلب من اشجان
فاح الشذا منه بذكرا حبتي * وروى برياه جوى الظمآن
نسماته احيت بطيب عبيقها * نسم المحب المغرم الولهان
دهشت عقول العاشقين بما حوت * من رقة فيها ولطف معاني
يا قلب حدث ما تشاء بلطفها * فهو النوآء الحادث الحدثان
نفسي الفدآء لها فلا ابغي بها * بدلا سوى المعروف بالاحسان
الاسني الداوري نور الورى * فخر الزمان ممدن البلدان
ملك افاض على البرية بره * وامدها بعوائد العرفان
حلى ممالكه بكل نفيسة * فغدت بذلك جنة للجاني
ما في الزمان نظيره كلا ولا * فيما مضى من غابر الازمان
دانت رقاب العالمين لعزمه * وغدا فواد الخصم في خفقان
عزت مكانته فاضحى يزدري * بعزيزه مصر في العلا والشان
ليث له في كل حرب سطوة * محفوفة بعناية الرحمن
يرمي العدا طرا بكل مثقف * ويذيقهم كاس الردى بهوان
عجبا له قد حاز ما يرجوه من * فخر وباء الغير بالخسران
زان الزمان وجوده مع جوده * فغدا يفوق قلائد العقيان
لمجت مقاصده وشاع فخاره * وبدت مكارمه بكل مكان
صافي العلا فرقى مراتب سودد * وسما بمظهره على الاكوان
رحب الذراع ابو الخليل وسعده * بسعيده قد جل عن برهان
هاب الورى عباسه وحوت به * مصر بسيف العدل كل امان

اما بعد فيقول المتوسل بسيد كل مقتفي * الفقير اليه تعالى محمد مصطفى
بانيجاويش بمدرسة الالسنة * التي حازت من كل فن احسنه * هذا تعريب
قانوني وتهذيب رائق * لكتاب من صعاب كتب التاريخ الفرنساوية *
معتنى به عند سائر الممالك الافرنجية * بل ترغب فيه كل امة تميل الى الجهاد *
لما فيه من الوقائع الحربية ما يفي بالمراد * فكيف ومنه يستفاد غرائب وقايع

ملوك الافرنج الكبار * الذين حازوا فى مضمار الميادين كل فخار * لا سيما ملك اسوج كرلوس الثانى عشر * فى مبارزته لقيصر الموسقو بطرس الاكبر * ومن نظر بعين التحقيق * ونقد الوقائع مع غاية التدقيق * عرف ان غزوات ولى النعم مرآة تنطبع فيها تماثيل وقائعهم الماضية * ومشكاة يسفر مصباحها عن لوامع سيوفهم الماضية * ولذا اهديته لصاحب مصر * نادرة العصر * ولا غرو ان اهدى الشئ لصاحبه الخبير بما فيه * فليس ثم سواه يميز بطبعه سر خافيه * وكانت ترجمته باوامر مدير المدارس * لا زال مختار الابراز الدرر النفائس * والذى البسه ثوب التصحيح * وكساه حلة التهذيب والتنقيح * وكشف القناع عن مسائله الصعاب * وقد كانت شمسه متوارية بالحجاب * هو رب الفصاحة والبراعة * والقريحة التى هى لفهم المعضلات سلسة مطواعة * كيف لا وهو فى اللغتين سباق غايات * وصاحب آيات بينات * باظر المدرسة المذكورة * التى باللغات والعلوم صارت معروفة مشهورة * حضرة رفاعة افندى * حفظه المعيد المبدى * وقد سميت هذا التعريب الذى يروق الخاطر * و يعجب الناظر * بمطالع شموس السير * فى وقائع كرلوس الثانى عشر * والله المسؤل * ان يحله محل القبول * وهذا اوان الشروع فى التعريب * فاقول مستعينا بالقريب المجيب *

هذا تاريخ كرلوس الثانى عشر ملك اسوج

المقالة الاولى

تتضمن مختصر تاريخ اسوج الى تولية كرلوس الثانى عشر وتشتمل ايضا على تربية هذا الملك وذكر اعدائه وذكر صفات واخلاق جار الموسقو بطرس ألكسيويت ويقال له دلى بترو وما يتعلق به من بعض النوادر وما يتعلق بالامة الروسية واجتماع الموسقو والدلاهية والدانيمارقة وتحزبهم على كرلوس الثانى عشر

اعلم

اعلم ان اسوج وفنلند تتركب منهما مملكة عرضها مائتا فرسخ من فراسخ الفرنساوية وطولها ثلثمائة فرسخ وامتدادها من الجنوب الى الشمال من نحو الخامسة والخمسين درجة تقريبا الى السبعين درجة فى قطر بارد جدا يكاد ان لا يكون فيه ربيع ولا خريف اصلا ويمكث الشتاء فيه تسعة اشهر من السنة ويأتى الصيف بالسرعة بغتة بعد البرد وتنعقد المياه بالصقعة وتصير جليدا فى شهر تشرين الاول وليس هذا القطر مثل اقطار اخرى يأتى فيها الحر او البرد بالتدريج ويصير تغيير فصولها مقبولا لطيفا ولما كان هذا القطر رديئا اعطاه الله تعالى جبرا له ازمنة صحية وهوآ صافيا والشمس تكاد ان تسخن دائما فى الصيف الارض وتنضج الازهار والاثمار فى قليل من الزمن * واما ليالى الشتاء الطويلة يلطفها الشفق والاضواء البهية النور التى تحصل وتمكث على حسب بعد الشمس من مملكة اسوج وضياء القمر لا يعتمه السحاب اصلا ويزداد ايضا بهجة ببياض الثلج الذى يغطى الارض ويزداد غالبا بضياء نيران جوية تتساقط كالشهب تشابه حوادث النيران الجوية التى يظهر نورها بمنطقة البروج وهذا كله يجعل السفر فى اسوج فى الليل مثل السفر فى النهار ومواشيها اصغر من المواشى التى فى البلاد الجنوبية من اوربا لعدم المرعى والكلا فهذا هو السبب الاصلى فى صغرها الا ان لها طول وصحو السماء جعلهم اصحاء الابدان وشدة برد القطر جعلهم شداد الاقوياء ويعيشون زمنا طويلا اذا كانوا لا ينهمكون على الخمور والانبذة المسكرة التى تضعف قواهم فان الملل الشمالية يظهر انهم يحبون ذلك كثيرا مع ان الحكمة الالهية اقتضت عدم وجوده ببلاد اضيهم

ثم ان اهل اسوج كلهم شداد هم ايضا حسان الخلقة ارباب خفة ونشاط وسرعة حركة وقابلون للتجلد على الاشغال الكبيرة والجوع والفقر ويميلون للحرب طبعا ويتكبرون واقرب ميلا للشجاعة من الصناعة لانهم لم يلتفتوا للتجارة زمنا طويلا حتى ان استعمالهم لها الا آن بطريقة رديئة مع انها هى التى دون غيرها يمكنها ان تكمل ما ينقص فى بلدهم ويقال ان جزأ من

اسوج المسمى الان غوتيا اوغوطيا خرج منه الغوتيون الذين انتشروا فى اوربا
واخذوها من المملكة الرومانية وكانت قد مكثت خمسمائة سنة متغلبة
عليها وحاكمة لها ومرتبة لقوانينها وكانت البلاد الشمالية فى ذلك الوقت
معمورة جدا اكثر من الآن لان دينهم كان يبيح للاهالى تزويج عدة نساء
لاجل التناسل والتوالد ونفع الدولة بذلك حتى كان اقبح العيوب عند نسائهم
قلة الولادة فكان يعايريذلك بعضهن بعضا وكن ايضا ربات شغل وقوة مثل
الرجال فصيرهن ذلك عن قريب يلدن فى صغر السن ولا يقطعن الا بعد زمن
طويل والآن مملكة اسوج مع ما بقى لها من مملكة فنلند لا تبلغ الاربعة
ملايين من الاهالى وارضها قحطة والاقليم المخصوص منها بزرع القمح هو
اقليم اسكانيا ولم يوجد فى جميع المملكة ما يتعامل به من النقود اكثر من تسعة
ملايين افرنك والبانكة المبرية بها التى هى اقدم بانكات اوربا كانت قد
حدثت فيها للحاجة اليها الان المعاملة كانت من نحاس وحديد فكان نقلها
من بلد لبلد يصعب فاحتاجوا لذلك
ولم تزل مملكة اسوج حرة الى اثناء القرن الرابع عشر وتغير الحكم عدة مرات
فى اثناء تلك المدة الطويلة ولكن جميع التغيرات التى حصلت كان سببها الرغبة
فى الحرية واول حاكم حكمهم لقب باسم الملك وهذا اللقب فى عدة بلاد مختلفة
يطلق على الحكام ارباب الشوكة ويدل على التصرف كما فى فرانسا واسبانيا
فان معناه فيها رجل مطلق التصرف وقد لا يدل على ذلك بل على الرياسة فقط
كما فى مملكة بولونيا ومملكة اسوج وبلاد الانكليز ولهذا كان لا يمكن الملك ان يفعل
شيأ من غير المشورة كما لا يمكن المشورة ان تفعل شيأ من غير ان تخبر به وكلاء الملة
الذين يجمعونهم غالبا من الاقاليم * ووكلاء الملة فى هذه الجمعيات كانت
تتركب من اشراف المملكة والاعيان والاساقفة ووكلاء المدن ثم بعد مدة من
الزمن ادخلوا فيها ارباب الفلاحة وهم جزء من الاهالى المحتقرة
فى البلاد الاخرى بل فى اغلب البلاد طائفة الفلاحين مستعبدون ارقاء
وبالقرب من (سنة ١٤٩٢) هذه الملة الراغبة فى المحاماة عن حريتها والمتكبرة

الان بكونها انقلبت فى الزمن السابق على رومة صارت من منذ ثلاثة عشر قرنا تحت حكم امرأة وامة اقل قدرة وشوكة من الاسوجين

وذلك ان مرقريطة ولدمار التى هى فى البلاد الشمالية شبيهة بالملكة سميراميس بالبلاد المشرقية المذكورة فى التواريخ القديمة كانت ملكة دانيمارقة ونروج فتغلبت على مملكة اسوج بقوتها وحيلتها وصيرت تلك الممالك الثلاثة مملكة واحدة فرفت اسوج بعد موتها بالحرب الداخلى وفتن الاهالى وتخلصت من اسر الدانيماريين ثم رجعت اليه ثانيا واتخذت اهيامنهم ملوكا ومدبرين وبالقرب من (سنة ١٥٢٠) ظلمها اثنان منهم على وجه قاس احدهما يسمى اكرستيارن الثانى من هذا الاسم وهو ملك دانيمارقة وكان كثير العيوب والقبائح وليس عنده شئ من الفضائل والثانى مطران اوبسال وهو رئيس مطارنة المملكة وكان ظالما مثل اكرستيارن فاتفق الملك والمطران على ضبط فناصل مدينة استخلم وحكامها واربعة وتسعين من ارباب المشورة وامر الجلادين بذبحهم محتجين بان البابا اخرجهم من دين النصرانية وحكم بكفرهم لانهم منعوا حقوق الدولة عن المطران

وبينما هذان الشخصان كانا مجتمعين معا على ظلم الناس وكانا يفترقان عند قسمة الشئ الذى كانا يأخذانه بالسلب من الناس وكانا يعملان ما كانت تعلمه الحكومة المطلقة من الظلم والعدوان وما كان يقتضيه الانتقام من القساوة واذا بواقعة جديدة غيرت طبيعة بلاد الشمال

وذلك ان غسطاوة وازا الذى هو شاب من نسل الملوك القديمة لتلك المملكة خرج من وسط غابات دالكرليا التى كان مختفيا فيها واتى يخلص اسوج وكان من الناس العظام الذين يندر وجود مثلهم ممن خلق واضع الصفات اللازمة لحكومة الناس فاول ما ظهر بطول قامته العظيمة وسيمته اللطيفة جذب لنفسه بذلك احبابا كثيرين واحزابا متعددين وكانت فصاحته بانضمامها لحسنه قوية مقبولة فكانت تثبت ما يقوله وتبرهن عليه وتجعله مقبولا عند السامعين لاسيما وقد كان فصيحا بالطبع لا متكلف الفصاحة وتحسين

الكلام وكان له ميل الى الشروع العظيم فى خلاص وطنه فكانت مقاصده
تظنها العامة من باب المجازفة وليست عند خواص الناس الا من باب
الشجاعة وكان جسورا وامع الحزم فكان هذا معينا على نجاح مقصوده
وكانت له طبيعة لطيفة مع كونه موجودا فى قرن متوحش الاهالى فكان
مستقيم الحال جامعا للصفات اللازمة لمن اراد ان يكون رئيس طائفة ذات
رأى ومذهب وكان قد وقع هذا الشاب فى يد اكرستيارن الثانى فحجزه وجعله
رهينا عنده مع ان حقوق الدول والملل بخلاف ذلك فهرب من السجن
وتزيا بزى الفلاحين وذهب الى جبال داليكرليا وغاباتها فاحتاج هنالك
الى الشغل فى معادن النحاس لاجل ان يتقوت ويتوارى ولما رأى نفسه
مدفونا تحت هذه المخابى تفكر فى كونه يهجم على هذا الظالم ويعزله فاطلع
الفلاحين عليه فظهر لهم انه رجل ذو طبيعة عظيمة وصاحب مقام حتى ان
الناس رأوا انهم يطيعونه فجهز فى قليل من الزمن بعض عساكر حربية من
هؤلاء الوحشيين وهجم على اكرستيارن والمطران وغلبهما وطردهما من اسوج
فانتخبه الاهالى والاقاليم وجعلوه ملك اسوج لكونه يستحق ذلك حيث
خلصها من جور الظالمين وبمجرد ما امن على الكرسى مال الى نية
اصعب من عمله فى الفتوحات وذلك ان ظلمة المملكة الحقيقيين الذين هم
الاساقفة كانت عندهم اموال اسوج وكانوا ينفقونها فى ظلم الرعايا ومحاربة
الملوك وقتالهم وكانت شوكتهم مهولة جدا ومع ذلك فجهل الامم صيرها محترمة
لا يجوز الخروج عليها فلذا عاقب هذا الملك الدين القاثوليقى بسبب ذنوب
قسسه وصير بلاد مملكة اسوج فى اقل من سنتين متمسكة بالدين اللوثريانى
واستعان على ذلك بالحيلة والبوليتيقة اكثر من استعانته بالسطوة والشوكة
وفتح هذه المملكة وتغلب عليها من الدانيمارقيين والقسيسين وحكم وهو سعيد
مطلق التصرف حتى بلغ سبعين سنة ومات برفل فى ثياب الافتخار وترك كرسى
المملكة لعائلته ودينه

واحد اولاده المسمى غسطاوة الاكبر ويسمى ايضا غسطاوادلف ولى بعده

وفتح

وفتح بلاد انغريه وليونيا وابريمة ووردان ووسمار وبوميرانيا وفتح غير ذلك اكثر من مائة محل في بلاد المانيا تخلت عنها لاهلها مملكة اسوج بعد موته واضعف مملكة فردينند الثاني ومانع عن دين اللوثريانيين في المانيا واستعان على ذلك بدسائس رومة ايضا التي كانت تخاف من سطوة ايمبراطور المانيا اكثر من سطوة الدين وهو الذي بانتصاره ساعد في الحقيقة على انحطاط بيت اوستريا وان كان هذا الامر يعزى وينسب جميع فخره للكردينال ريشليو الذي كان يبذل جهده في كونه يصير شهيرا بخلاف غسطاوة فانه كان يكتفي بفعل الاشياء العظيمة وكان عازما على ان يتوغل في المحاربة خلف نهر طونه وعلى ان يعزل الايمبراطور ففي اثناء عزمه قتل وهو ابن سبع وثلاثين سنة في واقعة لتزان التي ظفر فيها بملي ولسان فلقب بعد موته باسم الاكبر وتأسف عليه اهل الشمال واكتسب تعظيم اعدائه له

وخلفته بنته المسماة اكرستينة وكانت لا نظير لها في كمال القريحة والفطنة وكانت تؤثر التحدث مع العلماء على التولية على امة لا تعرف الا السلاح وصارت ايضا شهيرة بتركها كرسي المملكة كما اشتهر سلفها بفتح البلاد وتأبيدها فتكلم اللوثريانيون في حقها كلاما رديئا كانه لا يمكن الفضل والصلاح الا لمن تمسك بدين لوثير وكانت هي قاثوليقية فانتصر البابات بدخولها في دين القاثوليقية وكانت فلسفية ذهبت الى رومة وفيها انفت عمرها فيها لكونها مركز العلوم التي كانت تحبها وخلعت نفسها عن الدولة وكان عمرها اذ ذاك سبعا وعشرين سنة

وقبل تخليها ونزولها عن المملكة طلبت من مشاور اسوج ان يختاروا عوضا عنها عمها كرلوس غسطاوة العاشر من هذا الاسم وهو ابن القونتيه المسمى بلاطين الذي هو دوقة دوبون فاضاف غسطاوة فتوحات كثيرة الى فتوحات غسطاوة ادلف فحارب اولا قبالة قليم له بحيث اكتسب النصرة العظيمة الشهيرة بواقعة ورشا والتي مكث بها ثلاثة ايام واكثر الحروب الدائمة مع الدانيمارقيين وكان يظفر بهم وحاصر دار مملكتهم واضاف اقليم اسكانيا الى اسوج وتكفل بابقاء

عملك مدينة سليسويق دائما اوزمنا طويلا لدوقة هلستان وبعد ذلك حصل له نكبات وتصالح مع اعدائه ووجه اطماعه الى رعاياه وعزم ان يرتب فى اسوج الحكم المطلق والتصرف بما شاء ولكن مات وهو ابن سبع وثلاثين سنة مثل غسطاوة الاكبر قبل تنفيذ هذه النية الظلمية التى بلغ نهايتها ابنه كرلوس الحادى عشر ولما كان هذا الملك شجاعا مائلا الى الحروب مثل جميع سلفه صار اكثر منهم فى اطلاق التصرف والميل الى الاختيار فى الحكم فابطل شوكة مشورة السنت فصارت مشورة للملك بعد ان كانت مشورة المملكة ولولا ان ظلمه واطلاق تصرفه التى فى قلوب رعاياه الخوف منه ولم يلق فى قلوبهم غير ذلك لكانوا احبوه لما فيه من القناعة والنشاط وكثرة الشغل

وتزوج (سنة ١٦٨٠) بامرأة يقال لها اوليريقة فيليونورة بنت افردريق الثالث من هذا الاسم ملك دانيمارقة فكانت اميرة فاضلة مستحقة لا كثر مما امنها عليه زوجها ومن هذه الزوجة ولد له كرلوس الثانى عشر (فى سبعة وعشرين من شهر حيزران سنة ١٦٨٢) وهو رجل خارق للعادة لم يوجد مثله على وجه الارض وجمع جميع اوصاف سلفه العظيمة ولم يكن فيه عيوب الا كونه افرط فى هذه الصفات وتجاوز الحد فيها فننعرض هنا لكتابة تاريخ جميع ما بلغ خبره فى شأن ذاته وافعاله وفضائله فنقول

اول كتاب تعلمه كتاب سمويل بوفندورف ليعرف فى حال صغره بلاده والممالك التى حواليه وتعلم اول الامر اللسان الالمانى ومن حين تعلمه اياه وهو يتكلم به مثل لسانه وكان يحسن ركوب الخيل وهو ابن سبع سنين وكانت تعجبه الرياضات الشديدة العنيفة التى اظهرت ميله الى الحرب وفى صغر سنه كانت بنية بدنه صحيحة شديدة قابلة لتحمل التعب الذى كان ملائما لطبيعته

ومع انه كان لين الاخلاق فى حال صغره كان له عناد لا يطاق وكان لا يمكن استمالته وعطفه الا بترغيبه فى الفخار وكانوا ينالون منه جميع ما يطلبونه بكلمة فخر وكان له شدة نفور وكراهة فى اللسان اللاطينى فبمجرد ما قالوا له ان ملك له ودلك دانيمارقة يعرفان هذا اللسان تعلمه فى اقرب زمن وحفظ الفاظه

وتذكر ما يكفى فى تكلمه به مدة حياته وفعلوا معه نظير ذلك فى حمله على تعلم اللسان الفرنساوى ولكن تعامى عنه ولم يردان يتكلم به مدة حياته ولو مع الرسل الفرنساوية الذين كانوا لا يعرفون لسانا آخر غير لسانهم

فاول ما صارت له معرفة باللسان اللاطينى امر بترجمة كتاب كونت كرس فاعجبه هذا الكتاب بالنظر الى موضوعه اكثر من حسن عبارته والمعلم الذى كان يفسر له هذا الكتاب سأله عن رأيه فى اسكندر الاكبر فقال له رأيى فيه كونى اشابهه فقال له المفسر ان اسكندر لم يعش الا اثنتين وثلاثين سنة فقال هذا العمر كاف لمن فتح ممالك كثيرة فاخبروا اباه بهذه الاجوبة فصاح قائلا هذا ولد يصير احسن منى فانه يزيد ويفوق على غسطاوة الاكبر وكان ذات يوم فى موضع ابيه الخاص به يسرح نظره فى خرطتين من الجغرافيا احداهما تشتمل على مدينة من بلاد المجار التى اخذها الترك من اعبراطور المانيا والخرطة الثانية تشتمل على مدينة ريغا وهى تحت مملكة ليونيا التى فتحها الاسوجيون من منذ قرن وكان مكتوبا فى اسفل الخرطة التى تشتمل على المدينة المجارية هذه الكلمات المستخرجة من كتاب ايوب عليه السلام اعطاها الى الله واخذها منى فالحمد لله على ذلك فلما قرأ الامير الشاب هذه الكلمات اخذ حالا قلما من الرصاص وكتب فى اسفل خرطة مدينة ريغا هذه الكلمات الله اعطاها الى والشيطان لا يأخذها منى فحينئذ فى حال صغره حيث كان خلى البال كان يتراآى من طبيعته التى لم تكن اسيرة التقليد نكات غريبة تصدر عنه مما يليق بالنفوس العلية ويدل على انه يصير من اكابر الملوك فيما بعد

ولما ماتت امه كان له من العمر احدى عشرة سنة (وكان ذلك فى خمسة من شهر آب سنة ١٦٩٣) وقالوا ان هذه الاميرة ماتت بمرض نشأ لها من الغم الذى اعتراها من زوجها وبالمجاهدة التى كانت تفعلها فى تخفى تعبها وذلك ان كرلوس الحادى عشر جرد كثيرا من رعاياه من املاكهم بواسطة محكمة شرعية تسمى ديوان القبض ورتب هذا الديوان بشوكته وبمجرد رأيه

فلما حضر هذا الديوان بعدد عظيم من الاهالى والاشراف والتجار واصحاب الوسايا والاطيان والارامل واليتامى كانوا يتجمعون فى حارات استهلم فى جميع الايام ويصيحون على باب قصر الملك صياحا بالاطائل تحته فاعانت الملكة هؤلاء المساكين بجميع ما تملكه واعطتهم اموالها والجواهر التى عندها وامتعتها وملبوساتها ولما فقدت ما كان بيدها لم يكن معها شئ تعطيه لهم بكت ووقعت على زوجها لاجل ان تترجاه فى كونه يشفق على هؤلاء المساكين فاجابها الملك بوجه عابس لم نتزوجك لتنصحينا بل لتلدي لنا ويقال انه من هذا الزمن صار يؤذيها اذية بالغة كانت سببا فى موتها

ثم انه مات فى ستة عشر من شهر نيسان (سنة ١٦٩٧) من الميلاد فكان موته بعدها باربع سنين (فى ١٦ شهر نيسان (سنة ١٦٩٧) وله من العمر اثنتان واربعون سنة بعد ان حكم سبعا وثلاثين سنة وكان بين دولة المانيا واسبانيا والفلمنك وفرانسا وبينه خصومة فجعلوا فصلها وحكومتها على يد هذا الملك فاوقع قبل موته بيسير الصلح بين الجانبين

وترك ابنه وهو كرلوس الثانى عشر الذى عمره خمسة عشر سنة على كرسى المملكة الذي كان مويدا محترما عند اهل الممالك الخارجية وترك له رعايا مساكين لكنهم شجعان وطائعون وخزائن مرتبة ترتيبا عظيما ومدبرة بوزراء ماهرين

فعند تولية كرلوس الثانى عشر لم يقتصر على حكومة اسوج وفنلند بل استولى ايضا على ليبونيا وكارليا وانغريه وكان يملك ايضا ويسمار وويبرغ وجزيرة روجان وجزاير اوزل ومعظم اقليم بوميرانيا وكان يحكم على ابريم ووردان وكل هذا كان من فتوحات جدوده وضمن له دوام الاستيلاء على ذلك معاهدة مونستير واوليوري وعضد اجراء شروط هذه المعاهدة قوة شوكة عسكر اسوج وكذلك مشارطة صلح رسويق فى زمن ابيه تحت رعايته فتممها الابن واجرى العمل عليها فاول ما ابتدأ هذا الملك فى الحكم صار واسطة بين اوربا وملوكها

ثم ان قوانين اسوج كانت تسوغ تولية الملوك متى بلغ الملك من السن خمس عشرة سنة ولكن لما كان كرلوس الحادي عشر مطلق التصرف في جميع الاشياء اوصى ان ابنه لا يتولى بنفسه الا اذا بلغ ثماني عشرة سنة فكان يساعد بهذا الترتيب مقاصد امه كثيرة الطمع المسماة اوديجه اليونوره دوهلستان التي هي ام كرلوس العاشر المتوفي عنها وام كرلوس الحادي عشر فجعلها ابنها وصية ووكيلة على حفيدها وحاكمة المملكة نيابة عنه وبعينها في الحكم مشورة اربابها خمسة اشخاص

وكانت الحاكمة النائبة لها دخل في الاشغال في زمن حكم ابنها كرلوس الحادي عشر وكانت كبيرة السن ولكن طمعها الذي هو اكبر من قوتها ومن عقلها كان يجعلها تؤمل ان تتمتع زمنا طويلا بلذة الحكم وايام الملك حفيدها وكانت تباعده على قدر ما يمكنها عن الاشغال والمصالح فكان هذا الامير الشاب يمضي زمنه في الصيد او كان يشتغل بعد الجيوش وترتيبها وكان في بعض الاحيان يتعلم الحركات العسكرية مع العساكر وكان يجعل ذلك كالنزاهة التي يظهر منها انها كانت سببا في نشاطه من صغره ولم يظهر من سلوكه شيء يغاضب جدته النائبة عنه وهذه الاميرة كانت تظن ان اشتغاله بذلك يصيره غير قابل لتولي المصالح وانها تحكم زمنا طويلا نيابة عنه .

وكان ذات يوم في شهر نشرين الثاني في سنة موت ابيه قد فرغ من تفتيش عدة الايات وكان احد ارباب مشورته المسمى بيبير بجانبه فظهر له من حال الملك الصغير انه غريق في تفكرات عميقة فقال له هل تأذن لي في ان اسأل حضرتك العلية عن حقيقة هذه التفكرات التي انت فيها فاجاب الملك باني اتفكر في كوني الان منتأهلا لحكم هؤلاء الشجعان واريد اني لا اكون انا ولا العساكر تحت اوامر امرأة فاغتنم بيبير الفرصة حالا في ان يكتسب مغنم الغنى والسعادة العظيمة ولم يكن مقبولا بحيث يمكنه ان يتكفل بنفسه باجراء هذا القصد الخطر والاعلان بكون الملك قد اتصف بالرشد بالفعل قبل سن الرشد وان يلغي وجوب السن المعين للرشد بالنسبة لهذا الملك الصغير وان يسلب الحكم

عن المملكة النائبة فعرض هذه الدعوى على القونتة اكسلسيا دوكان
رجلا مهولا يحب لنفسه الظهور فذكر له ما قاله الملك ومدحه لكون الملك
فوض له فى ذلك وقال له ان الملك امر له بانجاز هذه الدعوى فصدقه وتكفل له
بجميع ذلك ولم يشتغل الا لاجل غرض ديبير فعما قليل استمال الى ذلك ارباب
مشورة الدولة فبادروا بكونهم يتكفلون بهذه المادة ليكون لهم فضل عند الملك
ولهم يد عليه

ثم ذهبوا مجتمعين وعرضوا على الملكة هذه المادة وطلبوا منها ان تتخلى عن
النيابة وان يتولى الملك محلها وكانت لا تنتظر ذلك ولا يخطر لها ببال فلم تسمع
ذلك فاجتمعت مشورة الاقاليم فى هذا الوقت واصحاب مشورة المملكة
وعرضوا عليها هذه الدعوى ايضا ولم يوجد رأى مخالف لذلك المقصد فنجزوه
بغاية السرعة من غير ان يعطله شئ وذلك ان كرلوس الثانى عشر تمنى ان يحكم
بنفسه فاعطته مشورة العموم زمام المملكة بعد ثلاثة ايام من خطور ذلك
بباله فسقطت قدرة الملكة ونفوذ كلمتها فى لحظة واحدة كانها لم تحكم وبعد ذلك
عاشت عيشة كعيشة الاحاد لائقة بكبر سنها غير موافقة لمزاجها فتتوج الملك
(فى ٢٤) من شهر كانون الاول ودخل فى مدينة استخلم على حصان ادهم
محدو بالفضة وكان فى يده عكازة الملك وكانت من الذهب والتاج على رأسه
وكانت الامة تتهلل ورآه لما انها من شأنها الرغبة فى الجديد ولكونها كانت
تؤمل غاية الامل فى هذا الملك العظيم

وكان لمطران اوبسال الحق فى تقديس الملك وتتويجه وهو من الحقوق التى نالها
المطارين قبله ولم يفضل من حقوق سلفه الا هذا الحق فبعد ان قدس الملك على
حسب العادة اخذ فى يده التاج ليضعه على رأس الملك فجذبه كرلوس من ايدى
المطران وتوج نفسه بيده وهو ينظر للمطران نظر المتكبر وجماعة الناس الذين
يميلون للتعاظم وعلو الشأن والهيبة استحسنوا فعل الملك حتى الناس الذين
ذاقوا الظلم والعذاب من ابيه مالوا للمدح ابنه بهذا الفخار والتكبر وان كان ذلك
علامة على استعبادهم وفالا لاسترقاقهم

فبمجرد ما صار كرلوس الثاني عشر ملكا متصرفا وكل پيپير على اشغاله
وتدبير اموره ومصالح دولته وجعله بعد قليل من الزمن اول وزرائه في المعنى
من غير ان يقلده منصب الوزارة ويطلق عليه الاسم وصيره بعد عدة ايام قونته
وهذا اللقب كان جليلا في القدر عند اهل اسوج وليس بلقب باطل ظاهري
كما هو عند الفرنساوية حيث يلقبون به عندهم من غير فائدة والازمان الاول
من تدبير هذا الملك لم تفد في شأنه شيأ مما يمدح به بل اظهرت انه كان قليل
الصبر وترأى ان هذه الصفة فيه غالبة ومتمكنة منه اكثر من الصفات التي بها
يستحق ان يسوس ويحكم وفي الحقيقة لم تكن له اغراض خطرة ولكن لم يظهر
في سلوكه الا حدة الصغر والثبات فيما يعزم عليه وكان يظهر من حاله انه قليل
الاجتهاد صاحب انفة وكبر حتى ان الايلچية الذين كانوا في مجلسه ظنوا انه
صاحب قريحة هينة وانه من اوساط الناس ووصفوه بذلك عند ملوكهم
وكان رأي اسوج فيه كذلك ولم يكن احد يعرف طبيعته وهو ايضا كان
يجهلها بنفسه فلما كثرت الغارات والمصائب على حين غفلة في الشمال
كان هذا فرصة لظهور معارفه التي كانت كامنة فيه
وذلك ان ثلاثة ملوك اصحاب شوكة ارادوا ان يتجاسروا عليه مغترين بصغر سنه
وصمموا على اهلاكه في زمن واحد فالاول هو افردريق الرابع من هذا الاسم
ملك دانيمارقة وهو ابن عمه والثاني اغسطوس منتخب سكسونيا وملك له
والثالث بطرس الاكبر ملك الموسقوبية وكان اشدهم خطرا عليه فيلزمنا شرح
اصل ما وقع بينهم من الحروب التي نتج منها وقائع عظيمة وان نبتدى
بدانيمارقة
وكان لكرلوس الثاني عشر اختان البكرية منهما تزوجت بدوقة
هلستين وهو امير صغير شجاع لطيف فهذا الدوق لما ظلمه ملك دانيمارقة جاء
بزوجته الى مدينة استخلم ووقع بين ايادي الملك وطلبا منه المعاونة للصهارة
ولكونه ملك ملة اهلها مع الدانيمارقيين بغضاء وحقد شديد
وعيلة هلستين القديمة اختلطت مع عيلة اولدنبورغ واستولت على

دانيمارقة بالانتخاب (فى سنة ١٤٤٩) من الميلاد وكانت جميع ممالك الشمال
فى هذا الوقت انتخابية فعن قريب صار كرسى دانيمارقة وراثيا وذلك ان احد
ملوكها المسمى اكرستيرن الثالث كان له على اخيه ادولف شفقة عظيمة وله عنده
منزلة لا توجد فى الملوك فلم يمكنه ان يتركه من غير ان يوليه حكومة ومملكة
كما لا يمكنه ان يقسم معه ممالكه الخاصة به بل قسم معه باتفاق غريب دوقيات
هلستين غوطورب واسليسويق ورتب ان ذرية ادولف يحكمون هلستين
بمشاركة ملوك دانيمارقة وان هاتين الدوقتين يكونان بينهم على سبيل الرولة
والشركة وان ملك دانيمارقة لا يمكنه ان يحدث شيأ فى هلستين من غير اذن
الدوقة ولا للدوقة ان يفعل شيأ من غير اذن للملك فالاجتماع العجيب الذى
صار بهذه المثابة سابقا نظيره فى العيلة المتقدمة مدة بعض سنين كان من منذ
ثمانين سنة منشأ للمشاجرة التى حصلت بين فرع دانيمارقة وبين فرع هلستين
غوطورب فكان الملك يبحث دائما عن التسلط على الدوقات وكانت
الدوقات تبحث ايضا عن كونهم يصيرون مستقلين عنه فآخر دوقة منهم
بحث عن ذلك فما اكتسب الا فقد حريته وحكومته ثم رجعت له حريته
وحكومته فى مجلس عموم الطونا الذى اجتمع فى سنة الف وستمائة وتسعة
وثمانين وانما نال ذلك بواسطة اسوج والانكليز والفلمنك فصارت هذه البلاد
كفيلة باجرآء هذه الشروط ولما كانت المشارطة بين الحكام ليست الا انقيادا
ضروريا عند الاحتياج يدوم الى ان الاقوى يمكنه ان يقهر الضعيف تجددت
المشاجرة دائما بين كل ملك جديد على دانيمارقة وبين كل ابن دوق تولى بعد ابيه
وبينما كان الدوقة فى استخلم اذ منع الدانيماركيون فى هذا الوقت افعال التعدى
فى دوقة هلستين وتعصبوا اسرامع ملك له على اتعاب ملك اسوج
ولم تمنع فصاحة رئيس الديربولنياق ولا معارف الامير قونتى المنازع فى كرسى
المملكة ان افرد ريق اغسطوس منتخب سكسونيا يصير منتخبا من
منذ سنتين وقد كان اميرا بالغا الغاية فى قوة جسمه العظيم وشجاعته الكبيرة
ودقة عقله ولم يكن الى ذلك الوقت معلوما بهذه الصفات مع انه كان متصفا بها

وكان

وكان ديوانه ابهج دواوين اوربا بعد ديوان ملك فرانسا لويز الرابع عشر ولم يوجد
ملك مثله فى الكرم وفى كونه يعطى الهدايا مع البشاشة وقد اشترى رأى نصف
اشراف بلاده بالكرم وجبر النصف الثانى باغارة الجيش السكسونى على
بلاده ورأى انه يحتاج بجلب عساكره فى بلاد له ليتمكن من كرسى مملكتها
ولكن لما جلبهم اليها اخترع سببا يحجزهم به فيها وهو أن اعدهم للهجوم على
ملك اسوج فى ليونيا بالفرصة التى نذكرها

وذلك ان ليونيا كانت تنتسب سابقا لطائفة الامراء التوتونيقية وكانت
اعظم بلاد الشمال فى الخصب والعظم وتنازع الروسيون واهل له واهالى
اسوج فى تملكها وكانت قد اخذتها اسوج من منذ مائة سنة واقرها عليها
الدول الاجنبية على رؤس الاشهاد بموجب صلح اوليوا

ولما كان كرلوس الحادى عشر المتوفى قاسيا على رعاياه لم يبق هذا الاقليم
من غير ظلم وذلك انه جرد اهله من مزاياهم وخصايصهم التليدة فارسلوا اليه
بطقول المشهور من ذلك الوقت بموته قتيلا على وجه بشع وكيلا من طرف
اشراف ليونيا ليوصل الشكوى الصادرة من اهل الاقليم للملك فوعظه
فى هذا الشأن بوعظ لا يخل بمقام الملك لكنه ممتلىء من الفصاحة الصعبة
التى تلوح للوم عليه حيث يظهر فيها اشتداد الكرب ولم يبال بايذاء ذلك للملك
ولكن الملوك لا يرون غالبا هذه المواعظ الخطابية العمومية الا من قبيل
الاحتفالات الغير النافعة التى جرت عادتهم بسماعها وتحملها من غير
ان يصغوا اليها او يتأثروا بها ولكن كرلوس الحادى عشر كان يدارى غيظه
اذا لم يفعل بمقتضاه ففين سمع هذه الخطبة دق على كتف بطقول وقال له قد
ظهر من كلامك فى شأن وطنك انك تحبه وانك صاحب صفات حميدة فاستمر
على ذلك فانه موجب لاحترامى لك وبعد مدة قليلة من الزمن اعلن الملك واشاع
ان هذا الوكيل صدرت منه الخيانة فى حق ذات الملك بمعنى انها تجر لاهلاكه
لازالة دولته فحكم عليه بموت لائق بهذه الخيانة فلما درى بطقول بذلك وكان
مختفيا هرب فذهب الى له واشاع فيها ظلمه وتمثل بين يدى الملك اغسطس

وكان كرلوس الحادى عشر قدمات ولكن الحكم على بطقول وغيظه لازالا باقيين فقال للملك اغسطوس انه يسهل على مملكته فتح ليونيا واستدعى له بذلك وان الاهالى مصممون على الخروج من حكومة اهل اسوج حيث ان ملكها صغير ولا يمكنه ان يحمى نفسه فقبل الملك هذا الاستدعاء لاسيما وقد كان عزم على فتحها وذلك انه عند لبسه التاج وعد انه يبذل جميع جهده ليحصل جميع ما فقدته من الاقاليم التى كانت مع سلفه وظن ان اغارته على ليونيا تعجب الجمهورية وتثبت قدرته وحكومته ولكن اخطأ فى هذا الظن الذى كان يغلب على الظن صدقه وجهز عن قريب جميع المواد اللازمة لاجل الاغارة بغتة من غير ان يكتب اولا للملك باظهار الحرب واشهاره وكذلك عظم الامر من جهة الموسقوبية حيث ان الايمبراطور الذى كان يحكمهم يستحق ان يتنبه من بعده الى وقائعه

وذلك ان بطرس الكسيوويت ملك بلاد الموسقوبية كان فى هذا الوقت مهولا ومهابا بسبب الواقعة التى ظفر فيها على الترك فى (سنة ١٦٩٧) من الميلاد وباخذ بلاد ازاق التى فتحت له مملكة البحر الاسود وكان يبحث بافعاله العظيمة والمشروعات الحسنة التى هى اعجب من الفتوحات عن كونه يلقب بالاكبر وكانت تشتمل بلاد الموسقوبية المدعاة ايضا الروسية على شمال آسيا وشمال اوربا ومن حدود الصين تمتد مسافة الف وخمسمائة فرسخ الى حدود بلاده والى حدود اسوج ولكن هذه المملكة الكبيرة لم تكن معروفة فى اوربا الا قليلا قبل الايمبراطور بطرس الاكبر وكان الموسقوبيون اقل تمدنا وتربية من اهالى مكسيك با مريقة لما استكشفهم كرتز السواح فكانوا بولادتهم مستعبدين للملتزمين ومتوغلين فى الجهل لا يعرفون شيأ من العلوم والفنون ولا يحسون ويشعرون بالاحتياج لذلك ولا يعرفون ضرورتهم وهذه الصفة تمنع وجود الصنايع والمعارف وكان عندهم قانون قديم مقدس يمنعهم من الخروج من البلد من غير اجازة بطارقتهم ومن خرج منهم من البلد من غير اجازة فانه يحكم عليه بالموت وحكمة هذا القانون منعهم من معرفة ما هم عليه

من

من الرق والاستعباد وهذا القانون يجب كل امة مغمورة متوغلة فى الجهل والذل مستحقرة للمعاشرة مع الملل الاجنبية

وكان الموسقوبيون يعتقدون ان تاريخهم من ابتدآء خلق الدنيا لانهم يعدون سبعة الاف ومأتى سنة وسبع سنوات الى ابتدآء القرن الماضى (الذى هو سنة ١٦٠٠) من غير ان يمكنهم ان يبرهنوا برهنة صحيحة على هذا التاريخ واول يوم من سنتهم هو ثالث عشر من شهر ايلول ويذكرون سبب ذلك ان الله تعالى خلق الدنيا فى فصل الخريف الذى تنضج فيه اثمار جميع الارض فنهاية معرفتهم الظاهرية التى لا يعرفون غيرها هى من اعظم الخطأ لانهم كانوا يظنون تساوى الفصول فى البلاد فلا احد منهم كان يشك ان خريف الموسقو يمكن ان يكون ربيع مملكة اخرى فى الاقاليم المقابلة لها فى الجنوب ولم تمض مدة قليلة من منذ ما ارادت الامة الموسقوبية حرق كاتب سر الجى عجمى فى بلاد الموسقو لكونه اخبر بكسوف الشمس وكانوا يجهلون اكثر الاشياء السهلة التى منها استعمال الاعداد بالرقوم فكانوا يستعملون لاجل العدد خرزا صغيرا منظوما فى سلك من نحاس ولم يكن عندهم عدد آخر لاجل ايراد خزآئن المملكة ومصاريفها

وكان دينهم دين النصارى الارواام ولم يزل الى الان كذلك ولكن كان مخلوطا بالاوهام الفاسدة التى كانت تزيد قوتها كلما كانت بعيدة عن العقل وقريبة للهوس فكانوا اسرآء هذه البدع وقل ان اكل موسقوبى حماما لان السيدة مريم مصورة عندهم على شكل حمامة وكانوا يتمسكون فى كل سنة باربعة ازمنة للصيام وفى زمن هذا الصيام لا يمكنهم اكل البيض واللبن وكانت ديانتهم عبادة الله والتصديق بمارى نقولا ووس المقدس وبعدهما فى الاحترام الجار والبطارقة وكان حكم البطرق عندهم لا حد له كما ان جهلهم كذلك وكان يحكم عليهم بالموت وبالعقاب الشديد جدا من غير ان يمكن لاحد من الرعايا ان يطلب منهم خلاص الحق والانتصاف فكان البطرق يتنزه بالاحتفال على الحصان فى كل سنة مرتين وخلفه جماعة الكهنة بالاحتفال

فكانت الامة المسقوبية تخر ساجدة فى الطرق مثل ما يفعله التتار قدام امامهم المسمى اللما الاكبر وكانوا يستعملون الاعتراف فى مادة الذنوب العظيمة جدا فحينئذ كان يظهر لهم ان تبرية القسيس لهم وغفره لهم ذنوبهم من باب اللزوم وان لم يتوبوا وكانوا يعتقدون انهم خالصو الذمة عند الله متى بارك عليهم البابات وكانوا عقب الاعتراف بالذنب يعودون اليه مع الاطمئنان انفسهم فيسرقون ويقتلون ولا يخشون الاثم فما كان فيه تحذير عند غيرهم من النصارى كان فيه اغراء لهم على الظلم فلهذا كانوا يتعمدون شرب اللبن فى الصيام ولكن آباء العيلات والقسيسون والنساء والبنات كانوا يسكرون فى ايام العيد بالعرقى وفى تلك المملكة كانت تقع المجادلة فى الدين كما فى غيرها من البلاد والمحال الاخر واعظم مشاجرة عندهم هى كون العامى منهم يعمل فى عبادته صورة الصليب باشارة اصبعين او ثلاثة وقد ظهر فيهم شخص يقال له يعقوب نورسوف فى زمن الملك السابق هيج الفتنة فى ازدراهان بسبب هذه المنازعة وعند ارباب الغيرة على الدين مثل ما هو موجود عند الملل المؤدبة المتمدنة التى عندهم كل انسان يبحث عن العقائد حتى ان بطرس الذى كان يتجاوز الحد فى العدل الى ان يصير من باب الجبر اهلك بالنار بعض النصارى المساكين المسمين وسكو جيزويت.

ولم تكن مملكة الجار مشتملة على النصارى فقط بل كان له كثير من الرعايا ليسوا نصارى فالتتار الذين كانوا يسكنون الشاطئ الغربى من بحر الخزر وبحر ازاق كلهم مسلمون واهل سبيرو والاوستياق والسمويد الذين هم جهة البحر المنجمد كانوا متوحشين بعضهم وثنيون والاخر لم يكن لهم معرفة بالله قط ولكن اسرآء اهل اسوج الذين ارسلوا الى بلاد هؤلاء الهمل المشركين وجدوا اخلاقهم احسن من اخلاق الموسقوبيين القدماء ثم ان بطرس الاكبر كان قد تربى تربية بحيث تميل الى تقوية توحش هؤلاء الامم فكانت طبيعته تحمله فى اول الامر على محبة الغرباء قبل ان يعلم لهم منفعة ومن المعلوم ان وزيره المسمى لوفورت هو اعظم واسطة استعان بها على تغيير صورة بلاد الموسقو

وقريحته العظيمة التى حفظتها تربيته الخشنية اتسعت على حين غفلة وصمم على ان يصير رجلا كاملا وان يتسلطن على رجال عقلاء وان يحدث ملة جديدة وكان قبله عدة ملوك قد تخلوا عن ممالكهم لثقل المصالح عليهم ولم يمكن لاحد منهم ان يترك المملكة ليتعلم حسن الحكم والسياسة بل كانت هذه الخصلة من خصايص بطرس الاكبر

وقد ارتحل من بلاد الروسيا فى سنة ١٦٩٨ ولم يكن مضى من توليته الا سنتان وذهب الى بلاد الفلمنك وتستر باسم واحد من آحاد الناس كانه خادم لذلك الشخص المسمى لوفورت الذى كان ارسله ايلجيا الى بلاد الفلمنك لمصلحة خصوصية فلما وصل هو الى امستردام دار مملكة الفلمنك وكتب نفسه فى دفتر ترسانة الامارة الهندية وكان يشتغل فيها كآحاد النجارين وكان يتعلم فى اثناء اشغاله من العلوم الرياضية ما يكون نافعا للملوك وكان يتعلم ايضا الاستحكامات والملاحة ورسم المناظر وتخطيط البلاد وكان يدخل فى دكاكين الشغالين وكان يبحث فى جميع المعامل والورشات من غير ان يفوته شئ ثم انتقل من الفلمنك وذهب الى بلاد الانكليز ليبلغ درجة كمال فى فن عمارات السفن ثم رجع الى الفلمنك ونظر جميع ما يتعلق بمنفعة بلده وبعد ذلك رجع الى الروسيا بعد سنتين من السفر والشغل الذى لا يطيقه غيره واتى بجميع فنون اوربا وتبعه كثير من الصنايعية من كل صنف جماعة فشوهدت اول مرة السفن المسقوبية بالبحر الاسود وبحر بلطق والمحيط ونظروا عمارات من نفعة عظيمة الترتيب شيدت بين الاخصاص المسقوبية ورتب فيها مدارس ومجامع علماء ومطابع وكتبخانات وصارت المدن متمدنة وحسنة وتغيرت الملابس والعوايد على التدريج وان كان ذلك بصعوبة وعرف المسقوبيون بالتدريج حقيقة التأنس وبطلت الاوهام الفاسدة ورتبة البطرقية وتقلد السلطان بنفسه رياسة الدين وهذه النية الاخيرة التى لو فعلها غير هذا الملك ممن كان اقل تصرفا منه لكان يخشى عليه منها ونجح فيها هو من غير منازع وامن بها على جميع ما احدثه من الاشياء الجديدة

فبعد ان اخذل البطارقة الجهال الخشنين تجاسر فى ان يعلمهم وخاطر فى كونه يصيرهم بذلك مهابين ولكن احس من نفسه انه اعظم شوكة من ان يخاف منهم فعلمهم فى الديورة الباقية الفلسفة وعلم الدين واللاهوت ومن المعلوم ان هذا العلم هو الذى كان موجودا فى زمن الخشونة التى انقذ بطرس الكسيويت منها وطنه وقد اخبرنى بعض الثقاة انه كان حاضرا وقت بحث عام وكانوا يبحثون عن كون شرب الدخان حراما اولا فسأل السائل عن ذلك فاجيب بانه مباح للانسان ان يسكر ولا يباح له ان يشرب الدخان لان الكتاب المقدس قال ان الذى يخرج من فم الانسان ينجسه والذى يدخل فيه لا ينجسه ثم ان طائفة الرهبان لم يفرحوا باصلاح بطرس الاكبر فبمجرد ما رتب الملك المطابع طبعوا فيها ما يحقره فى اعين الناس فطبعوا كتابا وقالوا فيه انه المسيح الدجال واستدلوا على ذلك بانه كان ينتف لحاء الاحياء وانه اذن بتشريح الاموات فى مدارسه ولكن اراد راهب آخر ان يصير غنيا فناقض هذا الكتاب وبرهن ان بطرس ليس هو المسيح الدجال لانه لم يوجد فى اسمه حساب بجمل ٦٦٦ فضوعف عقاب مؤلف الكتاب الاول وانعم على مؤلف كتاب المناقضة وصيره اسقف رزان

وهذا الملك المصلح لبلاد الموسقو وضع قانونا عظيما مملوا من الحكمة يخجل جميع الدول المتمدنة وهو انه لا يباح لاحد اصلا سواء كان من المستخدمين فى الميرى او من الاهالى لاسيما القاصر ان يترهب

وذلك لان الامير رأى انه يلزم له ان لا يترك رعاياه فى البطالة مع انه يمكنهم ان يكونوا نافعين وانه لا يؤذن لانسان ان يتصرف فى حرية نفسه فى سن لا يمكنه ان يتصرف فيه فى اقل جزء من ماله ولكن براعة هؤلاء الرهبان لازالت تبطل هذا القانون المصنوع لمصالح الناس فحينئذ يظهر ان هؤلاء الرهبان كانهم يكتسبون فى الحقيقة من كونهم يعمرون الديورة من منافع الوطن وامواله

ثم ان بطرس الاكبر لم يقتصر على جعل الكنيسة تحت حكومة المملكة

مثل

مثل السلاطين العثمانيين بل اشده سياسته دمر جيشا يحاكى جيش الانكشارية فاشرع فيه العثمانية من غير طائل فعله البادر فى مدة قليلة وذلك انه شتت الانكشارية المسقوبية المسماة أستريلتز وكانوا يحكمون على السلاطين كانهم اولياء واوصياء عليهم وهذا الجيش الذى كان يخشى منه رؤساؤه على ممالكهم اكثر من خشيتهم من جيرانهم كان محتويا على نحو ثلاثين الف من المشاة الذين كان نصفهم باقيا فى المسقوبية والنصف الاخر كان منتشرا على الحدود ولم يكن للواحد منهم من الماهية الا اربعة ريالات مسقوبية مسماة باسم روبله ولكن كانت المزايا والظلم يجبر قلة ماهياتهم فصنع بطرس اولا فرقة من الغرباء ودخل فيها كعسكرى ولم يستحقر كونه يبتدا فى كونه ياخذ لنفسه رتبة ترمبيطى ويعمل وظائفه لكون المملكة كانت محتاجة لان تنسج على منوال ملوكهما ولا يتبع الملك الا اذا فعل ما صدرت به اوامره فصار ضابطا بالتدريج واحدث الايات جديدة ولما شعر بنفسه ان عنده جيوشا معلمة ومنتظمة ابطل الانكشارية الذين لم يمكنهم ان يعصوه

وكانت الخيالة تقريبا مثل خيالة مملكة له ومثل ما كانت عليه سابقا الخيالة الفرنساوية لما كانت مملكة فرانسا مجمع التزامات وكان اعيان المسقوبيين يركبون الخيل من عند انفسهم وكانوا يحاربون من غير تعليم حركات العسكرية فكانوا فى بعض الاوقات مجردين من الاسلحة ماعدا السيف او الجعبة وكانوا غير مستعدين لان يقودهم رئيس واحد فمن باب اولى كونهم غير مستعدين للنصرة على الاعداء

فعلمهم بطرس الطاعة حيث كان يطيع رؤساءه بحضرتهم وكان يعاقب من لا يطيع وذلك لانه كان مستخدما بوظيفة عسكرى ثم اكتسب رتبة ضابط بحكم غيره وكان يعاقب بوصف كونه ملكا عقابا شديدا الميكزادات الذين كانوا يزعمون ان من خصايصهم انهم لا يخدمون الدولة الا بارادتهم ورتب فرقة منتظمة اصلحة الطوبجية واخذ خمسماية ناقوس من الكنائس لسبك

المدافع فصار عنده ثلاثة عشر الف مدفع منسبكة فى سنة ١٧١٤ وصنع ايضا الايات من الفرسان التفكجية وهو جيش يلايم طباع الموسقوبيين وشكل خيلهم القصيرة لان الموسقو كان لها فى سنة ١٧٣٧ ثلاثون آلايا من الخيالة التفكجية وكل آلاى فيه الف رجل مرتبون منظمون مطقمون وهو الذى رتب فى بلاد الروسيا الخيالة الهوارة وبالجملة فقد احدث مدرسة المهندسين العسكرية فى بلد لم يكن يعرف فيها قبله مبادى الهندسة فكان هذا الملك ماهرا فى الهندسة العسكرية وغيرها خصوصا فى الفنون البحرية وكان قبطانا عظيما لادارة السفن وكان رئيسا يحسن تسيير المراكب وكان ملاحا عظيما نجارا ماهرا ومع براعته فى هذه الفنون كان فى اول امره ينفر غاية النفور من الماء فكان لا يمكنه فى صغره ان يمر على قنطرة من غير رعب وانزعاج فكان يغلق شبابيك عربته اذا مر بقنطرة فقهرت شجاعته وقريحته هذا الضعف الخلقى

وبنى مينا عظيمة على بحر ازاق فى مصب نهر تنايس واراد ان يستديم فيها غلايين وفيما بعد لما ظن ان هذه السفن الطويلة المسطوحة والخفيفة تنجح وينتج منها ثمرة فى بحر بلطق احدث اكثر من ثلاثمائة سفينة فى مدينته المسماة بترسبورغ المالوفة لهو علم رعاياه فن عمارتها من مجرد خشب السنوبر وعلمهم ايضا فن تسييرها وكان قد تعلم امورا زائدة تقدمت مثل التشريح فقد شوهد منه انه عند الحاجة عمل عملية مستسقى وكان ينجح فى علم تركيب الآلات وجر الاثقال وعلم الصنايعية

وكانت ايرادات جار الموسقو هينة بالنسبة لاتساع بلاده فانه قل ان بلغ ايراده اربعة وعشرين مليونا من الفرنكات اذا حسبنا المرك بخمسين افرنكا كما هو سعر الوقت ويمكن ان يتغير سعر المرك فتختلف الحسابات ولكن العبرة فى الغنا بكون الملك يمكنه ان يعمل اشياء كثيرة فى بلاده وليست العبرة بالنقود وليس ضعف المملكة بقلة اموالها بل بقلة معمار فيها واهاليها والملة الروسية ليست كثيرة الاهالى مع ان نساءهم كثيرات التناسل

ورجالهم اقويا آشداد ومن سوء الحظ ان بطرس الاكبر لما مدن وعمر ممالكه اعان على خرابها وتسبب فى قلة اهلها وذلك انه جمع العساكر زمنا بعد زمن فى الحروب الماكثة زمنا طويلا من غير فائدة بل تعبه خاب والملل المنتقلة من شطوط بحر الخزر الى شطوط بحر بلطق هلكت فى الاشغال والامراض وثلاثة ارباع الصغار كانوا يموتون فى الموسقو بسبب الجدرى الذى هو خطر جدا فى هذه الاقاليم اكثر من غيرها وكذلك الحكومة التى مكثت متوحشة زمنا طويلا وخشنية وكانت ذات نتائج قبيحة فى تمدنها كانت سببا فى خراب هذا الجزء العظيم من الارض القارة الخالية عن الاهالى والآن فى وقت تاليفنا هذا الكتاب يعدون فى الروسيا خمسماية الف عائلة بيكزادات ومائتى الف من الفقهاء موا كثر من خمسة ملايين من الاهالى والفلاحين الذين يدفعون الفردة وستمائة الف رجل فى الاقاليم المفتوحة لاهل اسوج واما القزاق والاوقرينية والتتار التابعون للموسقو فكانوا لا يبلغون اكثر من مليونين وبالجملة فكانت هذه البلاد العظيمة الواسعة لاتشتمل على اكثر من اربعة عشر مليونا من الناس يعنى اكثر من ثلثى سكان فرانسا

ولما غير بطرس الاكبر اخلاق بلده وقوانينها وصورتها وهيئة عساكرها اراد ان يكون عظيما بالتجارة التى هى غنى المملكة بالكلية وفوائد للدنيا كلها فشرع فى تصيير الروسيا مركز التجارة آسيا واوربا واراد ان يجمع بالخلجان التى عمل صورتها بين نهر دوينه ونهر الاتل وتنايس واراد ان يفتح طرقا جديدة من بحر بلطق الى البحر الاسود والى بحر الخزر ومن هذين البحرين يتوصل الى المحيط الشمالى

ولما كانت مينا الارخنجل تمكث مدة تسعة اشهر من السنة وهى مسدودة بالثلج فاذا اراد الانسان ان يرسى عليها فى هذه المدة يحتاج الى الطواف بالاستدارة مدة طويلة مع الخطر لم تظهر له اطيبة مأمونة وكان قد عزم من سنة ١٧٠٠ على كونه يبنى على بحر بلطق مينا تصير مخزن البلاد الشمال ومدينة تصير تخت مملكته

وكان يبحث فى ذلك الوقت على ممر يوصل من الشمال الشرقى الى بلاد الصين وقصده بذلك كله جلب محاسن معامل بلاد الصين ومعامل باريز لتزيين مدينته الجديدة وهى بترسبورغ
وصنع طريقا طولها سبعماية واربعة وخمسون فرسخا مسقوبيا بين البرك والآجام لتوصل من مدينة الموسقو الى مدينته الجديدة واغلب ما عزم عليه ونواه اجراه وامضاه بنفسه ثم جاء بعده ايمبراطورتان متعاقبتان فعلتا ما اضمره وزادتا عليه ولم تتركا شيأ ممكن العمل مما نواه
وكان يسافر دائما فى اقاليمه على قدر ما يمكنه متى كان لا يشغله شاغل الحروب ولكن انما كان يسافر لاجل ترتيب القوانين والبحث عن الكائنات الطبيعية وكان يمتحن فى جميع الاشياء الطبيعية ويبحث عن تصحيحها او تكميلها وكان يقيس بنفسه عمق الانهر والبحار وكان يامر بالسدود وكان يفتش على الترسانات وكان يامر بالبحث عن باطن المعادن وكان يمتحن جواهرها بنفسه وكان يامر برسم خرطات البلاد الصحيحة وكان يشتغل برسم شئ منها بنفسه وبنى فى محل خشنى المدينة السلطانية بترسبورغ التى تشتمل على ستين الف بيت فى عهدنا هذا وبها ديوان سلطانى ظريف مبتهج وبها تمدن بحيث يعرفون فيها الحظوظ واللطائف والرفاهية وبنى مينا اوقرنستادة على نهر نوى وبنى ايضا سنتكروات فى حدود بلاد العجم وبنى حصونا فى اقليم اوقرينة فى بلاد سبير وبنى ايضا للقباطين ترسانات فى ارخنجل وفى بترسبورغ وفى ازدراهان وفى بحر الخزر وبنى ايضا ترسانات صغيرة ومارستانات وكان يبنى البيوت صغيرة رديئة لا تميل اليها النفوس ولكن كان يبنى المبانى العامة بناء لطيفا جدا مع العظم والظرافة والشان
والعلوم التى كانت فى جميع الاماكن ثمرة كثير من القرون وكانت هذه الثمرة لم تحصل الا بالبطئ جلبها فى ممالكه فى حالة كمالها فجذ بجمع علماء على انموذج الجمعية الشهيرة التى كانت بباريز وفى لندرة وصرف كثيرا من الاموال لاجل جلب الحكماء والعلماء فى مدينته فمن هؤلاء العلماء دليله وبولفنجير والهرمان

والبرنولية

والبرنواية وولف المشهور الذى كان ماهرا فى انواع الفلسفة وهذا المجمع موجود الى الان واهله هم فلاسفة الموسقوبيين

وجبر الشبان الاشراف من اقاليمه على السفر للتعلم وعلى جلب الادب الغريب الى بلاد الروسيا ولقد نظرت كثيرا من الشبان الروسيين ارباب عقول كاملة وعلوم فهذا ما سلكه هذا الرجل العظيم فى تغيير حالة الدولة الموسقوبية التى مملكتها اوسع ممالك الدنيا ومما يلام به على هذا الملك انه كان فاقدا لاعظم الفضائل وهى الانسانية والرفق فكان يسلك مسلك الخشونة فى حظوظه والتوحش فى اخلاقه والقساوة فى انتقامه فكانت هذه الخصال الذميمة تمتزج بكثير من الفضائل وكان يؤدب رعاياه مع انه كان متوحشا وكان يقاص من المذنبين بنفسه وبيده واتفق انه عقب خسرانه على المائدة أظهر براعته فى قطع الرؤس مع انه كان يوجد فى افريقية ملوك تقتل رعاياها بانفسها ولكن هؤلاء الملوك كانوا مشهورين بالخشونة وقتل ولده مع انه كان الواجب عليه مجرد تاديبه واصلاحه فان لم يحصل له اصلاح كان يسوغ له ان لا يجعله وارثا له فهذه سيرة هذا القيصر بشعة جدا فاذن الخير الذى عمله لرعاياه لا يكاد يمحو قساوته فى حق ولده الذى هو من دمه ولحمه

هكذا كان بطرس الاكبر ولم يكن جميع ما نواه الا مجرد مقاصد عظيمة وثبات جسيمة من غير شروع فى عمل حين تحزب مع مملكة وملك دانيمرقة على صغير كانوا يحتقرونه جميعا وذلك ان موسس الروسيا اراد ان يصير فاتحا وظن انه يصير كذلك من غير تعب وان هذا الحرب الذى قصده يصير نافعا لجميع ما نواه لان فن الحرب هو فن جديد فيلزم له ان يعلمه لرعاياه

وكان محتاجا ايضا الى مينا فى شرقى بحر بلطق لاجراء جميع ما نواه وكان محتاجا ايضا الى اقليم انغريه الذى كان فى الشمال الشرقى من ليونية وكان اهل اسوج مستولين عليه فكان يلزم له حروب لاجل اخذه منهم وكان لسلفه حقوق على انغريه واسطونية وليونية فظهر له انه قد جاء اوان احياء هذه الحقوق التى ضاعت من منذ مائة سنة وانعدمت بشروط وتنابيات فاتفق حينئذ مع ملك

له على اخذ البلاد التى بين خليج فنلند وبحر بلطق وبلاد له والموسقو من الملك الشاب كرلوس الثانى عشر

تمت المقالة الاولى

المقالة الثانية

تتعلق بتغيير عجيب مستمر فى طبيعة كرلوس الثانى عشر وحروبه مع كل من الدانيمرقيين واللاهية والمسقوبية وعمره ١٨ سنة وتميم الحرب مع الدانيمرقيين فى شهر ونصف وفى هزمه ٨٠ الفا من الموسقو بثمانية آلاف من الاسوجيين وانتقاله الى مملكة له وفى تخطيط له وحكومتها وانتصار كرلوس فى عدة وقائع واستيلائه على لهوا واستعداده لتقليد مملكتها الملك من طرفه

وقد كان يخشى على كرلوس فى صغر سنه من ثلاثة ملوك اصحاب شوكة * ولغط التجهيز للحرب حير اهل اسوج واحزن المشورة لان امراء الجيوش المعتبرين كانوا فى زمرة الاموات وكان الحق معهم فى كونهم يخافون فى زمن حكم ملك شاب لم يظهر من حاله الا اشياء رديئة ولم يكن يحضر فى المشورة الا لمجرد الراحة والجلوس متربعا وكان لا يشغل فكره بشئ نافع فكان يظهر انه لا يشارك فى شئ ولا يبحث عن مصلحته

وكانت المشورة تتذاكر بحضوره على الخطر الحاصل فبينما ان بعض ارباب المشورة عرض ابعاد الحرب ومضاره بالمصالحة مع الاعداء بشروط اذ قام هذا الامير على حين غفلة بسيمة العبوس الصادر من رجل عالى الهمة نوى نية وصمم عليها وقال مخاطبا لاهل المجلس انى نويت انى لا احارب محاربة ظالمة ولكن اذا كان الحرب حلالا فلا اتمم امره الا باعدام اعدآئى فقد صممت تصميما كاملا على ذلك ولابد ان اذهب واهجم على اول من يشهر الحرب معى فاذا هزمته امل ان هذا الهزم يوجب خوف الآخرين فتعجب ارباب المشورة وكانوا شيوخا من هذا الكلام فنظر بعضهم لبعض ولم يمكنهم ان يجيبوا عن ذلك وتعجبوا من كونهم لهم ملك بهذه المثابة وخجلوا من كونهم

يؤملون دون امله فتلقوا اوامره المتعلقة بالحرب مع غاية الاستحسان
وزاد تعجبهم لما راوه على حين غفلة رفض حظوظ الصغر والشبوبية ومن وقت
تجهزه للحرب صار في حالة اخرى غير التي كان عليها ولم ينفك عن تلك الحالة
اصلا ولما كان ذهنه مملوأ من تصورات اسكندر وقيصر عزم على كونه
يقتدي بهذين الفاتحين في جميع افعالهما الاعيوبهما فلم يكن يعرف اصلا
الزينة ولا اللعب ولا الراحة وصار قنوعا جدا في الاكل والشرب وكان سابقا
يحب الزينة في الملبوسات فلم يلبس من ذلك الوقت الامثل نفر من عساكره
ومما يحكى انهم ظنوا انه كان يحب امرأة في ديوانه وسواء كانت هذه التهمة
صحيحة ام باطلة هجر من هذا الوقت النساء بالكلية مدة حياته مخافة ان يصير
محكوما عليه ولاجل ان يعطي العبرة لعساكره حيث ان مرامه ضبطهم
الضبط الشديد ويمكن ايضا ان جل قصده ان يفتخر بكونه من دون الملوك
هو الذي اختص بغلبته شهوته وغلبها في جميع لذاتها صمم على عدم شرب
النبيذ مدة حياته ويظن بعض الناس انه لم يفعل هذا الا لاجل قمع الطبيعة
ولاجل ان يزيد فضيلة اخرى لشجاعته ولكن قال آخرون انه اراد بهذا
عقاب نفسه على افراط ارتكبه وعلى اساءة ذريعة عملها مع امرأة بحضرة امه
حال الاكل وحيث كان الامر كذلك فكل من العقاب الذي فعله لنفسه
والحرمان الذي كلف به نفسه مدة حياته يعد نوعا من الشجاعة العجيبة
والافعال التي لا يصدر مثلها الا عن فحول الرجال

فشرع في جعل دوق هولستين زوج اخته واتباعا له فارسل اولا
ثمانية آلاف رجل في بوميرانية وهو اقليم بقرب هولستين وقصد بذلك تشجيع
الدوق على الهجوم على الدانيمرقيين وكان الدوق محتاجا لذلك لكون ممالكه
خربت في هذا الوقت واخذت سراياته التي في غوتورب * ومدينته المسماة
تونينغة حوصرت بحصار شديد فجاء فيها ملك الدانيمرقة بنفسه ليحظى بالمسرة
بفتحها ظانا ان ذلك امر محقق وهذا الحرب اثار الفتنة في الدولة النمساوية
بتمامها (ومعظم النار من مستصغر الشرر) وذلك ان الجيوش السكسونية التي

من عند ملك له وجيوش برندبورغ وولفنبوتل وهسكسل كلها سارت لاعانة الدانيمرقيين والثمانية آلاف رجل الذين هم من رجال ملك اسوج وجيوش هانورة وجيوش زلة وثلاثة آلايات من بلاد الفلمنك جاؤا يساعدون دوق هولستين فبينما كانت دولة هولستين الصغيرة ميدان الحرب اذ قد ظهر فرقتان بحريتان فى بحر بلطق احداهما للانكليز والثانية للفلمنك وهاتان المملكتان كانتا كفيلتين باجراء معاهدة الطونا التى نقضها الدانيمرقيون فبادرتا حينئذ لمعاونة الدوق المظلوم لان مصلحة تجارتهم تأبى عظم بلاد ملك دانيمرقة وكانتا تعرفان ان ملك دانيمرقة اذا صار مستوليا على بوغاز السوند يرتب مكوسا وعوايد شديدة على الملل المتجرة ولما يصير قويا بالكفاية يفعل هذا بلا معارض وهذه المصلحة جبرت زمنا طويلا الانكليز والفلمنك على حفظ المساواة والموازنة بين ملوك الشمال على قدر الامكان بحيث لا يرجح احدهم على غيره فاجتمعتا مع ملك اسوج الشاب الذى كان يظهر انه كثير الاعداء المتحزبين عليه ليعاوناه على اعدائه فعاونوه بموجب السبب الحامل لاعدائه على شن الغارة عليه وهو انهما ظنتا انه لا يمكنه الذب عن نفسه

وكان قد خرج لصيد الدب فوصل اليه الخبر ان السكسونيين اغاروا على ليونيا وكان يصيد بطريقة جديدة خطرة ولم يكن معه سلاح غير العصى التى هى كالاصابع المغلوقة خلف شبكة مشدودة على الاشجار فجاء عليه دب كبير جدا فاوقعه على الارض بمعاونة المصيدة والعصا بعد مصارعة طويلة ولا شك ان من تأمل فى هذه الحكايات ورأى قوة الملك اغسطوس الخارقة للعادة واستيار بطرس قيصر الروسيا ظن انه فى زمن هرقول وطيبة لكون هذه الاشياء نظير ما يحكى عن فحول رجال الجاهلية وقد سافر كرلوس فى اول سفرة للحرب (سنة ١٧٠٠) من الميلاد ورحل من استخلم رحلة لا عود بعدها فصاحبه عدد عظيم من الناس الى ميسنا كارسكرونا وهم يدعون له ويبكون عليه ويتعجبون منه وقبل خروجه من اسوج رتب فى استخلم مشورة محاماة مركبة من عدة مستشارين وجعل

وظيفة

ووظيفة هذه الجمعية الاهتمام بجميع ما يتعلق بالسفن والجيوش وتحصين البلاد وكان مجلس السنت المعتاد ادارة ما زاد على ذلك فى داخل المملكة وان يحكم فيه حكما وقتيا فلما رتب فى ممالكه ترتيبا متينا اصار عقله خاليا من جميع الامور ولا يشتغل الا بالحرب وكانت عمارة سفنه ثلاثا واربعين سفينة وكان الملك فى سفينة كانت تسمى الملك كرلوس ولم تر العين اكبر منها لانه كان بها مائة وعشرون مدفعا وركب معه ايضا قونتة پيپير وهو اول وزرائه والجنرال رنشلد فاجتمع مع سفن المتعاهدين معه فاجتنبت سفن دانيمرقة القتال ولم تعارض العمارات الثلاث فى كونها تقرب من كوبنهاغ لترمى فيها بعض قنبرات

ثم ان الملك بنفسه هو الذى عرض للجنرال رنشلد ان ينزلوا على الارض ويحاصروها برا ويحتاطوا بها بحرا فتعجب الجنرال رنشلد من هذا القول الذى اظهره ملك شاب لا تجربة عنده كثيرا من المهارة والشجاعة فجهزوا عن قرب جميع الاشياء اللازمة للنزول فصدرت الاوامر بنزول خمسة آلاف من الرجال الذين كانوا على سواحل اسوج وانضموا الى العساكر التى كانت بالسفن فترك الملك سفينته الكبيرة وركب فرقاطة سريعة السير فابتدؤا فى تسفير ثلثمائة من العساكر المنتخبة فى صنادل صغيرة وبمعية هذه الصنادل قوارب صغيرة مسطوحة ممتلئة من الحطب وآلات المتاريس وآلات تسليك الطرق وكان بصنادل أخر خمسمائة من الرجال المنتخبين وبعد ذلك اتت سفن الملك المعدة للحرب مع فرقاطتين انكليزيتين وفرقاطتين فلمنكيتين لتعين بالرمى بالقنبرة على عدم المعارضة فى النزول الى البر

ومدينة كوبنهاغ التى هى تخت دانيمرقة موضوعة على جزيرة زلنده فى وسط سهل ظريف وبشمالها بوغاز السوند وبشرقها بحر بلطق الذى كان به فى ذلك الوقت ملك اسوج فبينما المراكب تتحرك على حين غفلة لقصد النزول بالبر واذا باهالى دانيمرقة قد اختل امرهم ودهشوا من تعطل سفنهم ومن حركة المراكب الاسوجية وصاروا ينظرون بخوف اى محل تحل المصيبة بهم منه

فوقف من مراكب الملك كرلوس امام مدينة اومبلويك على البعد بسبعة اميال من كون تهاغ بجمع عن قريب الدانيمرقيون في هذا المحل فرسانهم ووضعوا ايضا عساكر خلف المتاريس الحصينة ووجهوا الطوبجية الذين امكنهم توجيههم على الاسوجيين

فحينئذ ترك الملك فرقاطته وركب الصندل الاول وتقدم امام عساكره الوردبان وكان بمعيته في هذا الوقت ايلچي فرانسا فكلمه الملك باللسان اللاطيني (لانه كان لا يريد ان يتكلم باللسان الفرنساوى) وقال له يا ايها الايلچي لا علقة لك بالدانيمرقة فعلى ذلك لا تسر معنا ازيد من ذلك فاجابه الايلچي وهو قونتة غسكار باللسان الفرنساوى وقال له يا ايها الملك ان مليكي امرني بالاقامة بقرب سعادتك فآمل ان لا تطردني الان من ديوانك الذي هو الان في اعظم بهجته انتهى وبينما هو يقول هذا الكلام اذ اعطى يده للملك وهو يثب في الصندل فوثب معه قونتة بيبرة والايلچي فقدموا تحت ضرب المدافع على المراكب التي تعاون على النزول بالبر فكانت قوارب النزول بعيدة بثلثمائة قدم من الشاطئ فكان الملك كرلوس قليل الصبر عن كونه لم يرس حالا فوثب من صندله في البحر وسيفه بيده وكان الماء فوق حزامه فوثب وزراؤه وايلچي فرانسا والضباط والعساكر اقتداء به وساروا الى الشط مع ان الرمي بالرصاص كان كالملح ولكون الملك لم يكن سمع قبل ذلك ضرب المكاحل المعمرة بالرصاص سأل الجنرال الاكبر المسمى استوار الذي كان معه رئيس الرجال عما سمعه من الصفير الخفيف فاجابه المذكور وقال له هذا صوت الرصاص الذي يضربونه عليك فقال الملك عرفت ذلك فلابد ان اتخذه في المستقبل كالموسيقى عندى فحصل في هذا الوقت رصاصة لهذا الرئيس الذي كان يفسر للملك صوت الرصاص في كتفه ومات من العسكر ضابط في جهة الملك الاخرى

ومن المعتاد للجيوش المهجوم عليها في منازلها ان تصير منهزمة لان المغيرين عليهم لهم قوة لم تكن عند الحافظين وان لانتظار الاعداء في صفوفهم هو غالبا

برهان على الضعف وعلى قوة النهازمين فهربت الخيالة الداغارقية والمشاة
بمقاومة ضعيفة فاستولى الملك على متاريسهم وسجد شكرا على نجاح
عساكره فشيد حالا حصونا جهة المدينة وعين بنفسه محل نصف العرضى
وارسل فى هذا الزمن مراكبه الى اقليم اسكانية الذى هو جزء من اسوج
وقريب من كبنهاغ للبحث على تسعة آلاف رجل للتقوية والامداد فكل شئ
ساعد على نشاط الملك كرلوس وكان التسعة آلاف رجل على الشاطئ
متجهزين لاجل النزول فى المراكب وفى اليوم الثانى ساعد الريح
ووصلهم اليه
وكل هذا فعل بمنظر مراكب الداغارقيين التى لم يمكنها ان تتقدم ولما خافت
كبنهاغ ارسلت حالا رسلا للملك يترجونه فى كونه لا يضرب القنبر فى البلد
فتلقى هؤلاء الوكلاء وهو راكب قدام آلاى الورديان الذين يخفرونه فجثت
الرسل على الركب امامه فاخذ منها فى نظير منعه عنها ذلك اربعمائة الف
رسدالة (الرسدالة فرنكان ونصف) وامرهم ان يجلبوا الى العرضى بجميع
انواع الزاد ووعدهم انه يدفع لهم ثمن كل شئ فاتوا له بالزاد حيث كانوا
مجبورين على ان يطيعوا ولكن كانوا لا يظنون ان المنصورين يعطونهم ثمنا
اصلا ومع ذلك كانوا يدفعون ذلك لهم مع الزيادة وطيب النفس وتعجب الذين
اتوا له بالزاد غاية التعجب فى كونهم دفع الثمن لهم مع الكرم ومن غير مماطلة
ولم يبق لهم شئ فى ذمة اى نفر كان وكان يوجد من منذ زمن طويل
فى الجيوش الاسوجية ضبط وربط اعانهم غاية الاعانة على نصرهم وزاد الملك
الشاب فى ذلك الصعوبة والقساوة فكان النفر لا يجرأ على ان يمتنع من دفع
ثمن الشئ الذى اشتراه ولا ان يسلك مسلك العربدة ولا ان يخرج من العرضى
واراد الملك ايضا ان يرتب قانونا وهو انه فى نصرة عسكره على الاعداء
لا ينهبون شيأ منهم الا بعد اخذ اجازة منه وتوصل بالسهولة الى اجراء هذا
القانون والتمسك به وكانت الصلاة دائما فى عرضيه مرتين فى كل يوم
المرة الاولى فى الساعة السابعة من النهار والمرة الثانية فى السابعة من الليل

ولم يقصر دائما فى الحضور فى هاتين الصلاتين لتقتدى به عساكره فى محبة الدين الذى يؤثر دائما فى قلوب الناس مالم يكن مشوبا بالنفاق واظهار خلاف ما فى الباطن وكان عرضيه اكثرادبا من عرضى كبنهاغ فكانت فيه جميع الاشياء كثيرة وكان الفلاحون يريدون ان يبيعوا سلعتهم لاعدائهم الاسوجيين لكونهم يدفعون لهم ثمن كل شئ بغاية المواظبة والاهتمام اولى من كونهم يبيعون للداتمارقيين لانهم لايدفعون لهم ذلك حتى ان اهل المدينة كانوا يضطرون الى ان يجيؤا فى اغلب الاوقات ليبحثوا فى سوق عرضى الملك عن المؤنة التى لاتوجد فى اسواقهم

وكان ملك داتمارقة فى هذا الوقت فى مملكة هولستين حيث يظهر من حاله انه لم يذهب فيها الا لاجل رفع محاصرة تونينغة فكان ينظر بحر بلطق مملئا من مراكب الاعداء وان الفاتح الشاب قد استولى على زلاندة ومتجهز للتغلب على تختها فاظهر ملك داتمارقة فى اقاليمه ان كل اقليم يحارب الاسوجيين يصير حرا فهذا الاعلان كان له تأثير فى اقاليم كانت سابقا حرة وكان فى ذلك الوقت جميع الفلاحين واكثر اهالى البلاد مستعبدين بها فارسل الملك كرلوس الملك داتمارقة انى لااعمل هذا الحرب الا لاجل جبرك على الصلح معى وان قصدى بذلك انصاف دوقة هولستين والا اخربت كبنهاغ واحرقت مملكتها بالكلية فكان ملك داتمارقة سعيدا جدا حيث ان مشاجرته مع ملك يحب العدل فجمع مشورة فى مدينة تراوندال على حدود هولستين ولكن ملك اسوج لم يتحمل كون وزراء داتمارقة يتحيلون بالتدبير على تطويل المادة فاراد ان المشارطة تتم بالسرعة كسرعة نزوله على برزلاندة وفى الحقيقة انبت الامر وحصلت المشارطة فى خمسة من شهر اب وكانت بانصاف دوقة هولستين فاخذ جميع مصاريف الحرب واستقل بنفسه ولم يرد ملك اسوج لنفسه شيأ بل اكتفى بكونه اغاث حليفه ومعاهده واذل عدوه فحينئذ كرلوس الثانى عشر وهو فى سن ثمان عشرة سنة ابتدأ الحرب وتممه فى اقل من شهر ونصف

وقد اغار ملك له فى هذا الزمن بعينه على مدينة ريغا التى هى قاعدة ليونيا

وتقدم ملك الموسقو جهة الشرق قايدا مائة الف رجل تقريبا وكان محافظ ريغا شيخا هرما وهو القونتة المسمى البيرغ الذى هو جنرال اسوجى وكان عمره ثمانين سنة ومع ذلك فكان له نشاط الشبان وتجربة عظيمة بحيث انه حضر من السفرات الحربية ستين سفرة وكان فى ذلك الوقت وزير مملكة له رجلا حربيا ماهرا فى العلوم والفنون يسمى افليمنغ فاجتمع مع بطقولة الايوونى وحاصرا مدينة ريغا بحضرة ملك له ولكن مع ان المحاصرين ظفروا ببعض الغلبات الحربية صيرت تجربة البيرغ همتهم غير نافعة فيئس ملك له من اخذ المدينة ثم اغتنم فرصة ممدوحة فى رفع المحاصرة وذلك ان مدينة ريغا كانت ممتلئة من تجارة الفلمنكيين فارسلت حكومتهم رسلا الى اغسطوس ملك له ايعرضوا له فى شأن ذلك فما كان جوابه الا رفع المحاصرة من فوره واظهر ان ذلك اولى من اضرار معاهديه الذين لم يتجبوا من هذا المعروف الخارج عن الحد لما انهم ادركوا سببه الحقيقى

فلم يبق شئ على كرلوس الثانى عشر فى تتميم سفرته الاولى الا كونه يسير الى قرينه فى الغزو وهو بطرس الاكبر فكان كرلوس حاقدا عليه حقدا عظيما بقدر رغبة بطرس فى الصلح حيث انه كان فى استخلم ثلاثة رسل موسقوفية يطلبون تجديد المصالحة التى لا ينقض عهدها وهو لا يرضى بذلك وسببه ان كرلوس كان صادقا فى سلوكه ومشددا فى ذلك فكان يتعجب من كون بطرس ملك الروسيا صاحب القوانين يستهزى بالشئ الذى ينبغى ان يكون محترما بين الملوك والملك الشاب الممتلئ من شرف النفس كان يعتقد ان الناس ينبغى ان يكونوا فى الادب على حد سوا ملوكا او آحادا فاظهر سلطان الروسيا اعلانا كان الاحسن له عدمه وهو انه جعل علة الحرب انه لما فات مسافرا بغير مظهر على مدينة ريغا لم يشرفوه وانهم باعوا المونة غالية جدا الرسله ويقال انه شرب بهذه الاسباب اقليم انغرية مع ثمانين الف رجل حين مروره عليه فظهر امام نروى قائدا هذا الجيش العظيم فى اول يوم من شهر تشرين الاول فى زمن بارد جدا فى هذا القطر اكثر من برد شهر كانون الثانى فى مدينة باريس

وكانت عادة ملك الروسيا ان يسير بالبسطة فى هذه الفصول بعض الاوقات اربعمائة فرسخ على فرسه لينظر بنفسه معدنا او خليجا من غير ان يشفق على جيوشه ولا نفسه وكان يعرف ايضا ان الاسوجيين من زمن حكم غسطاوادولفة كانوا يحاربون فى شدة الشتاء كما كانوا يحاربون فى الصيف فاراد ان يعود ايضا رعاياه الذين هم الموسقوبيون على ان تستوى عندهم جميع الفصول ويصيروا مثل الاسوجيين فحينئذ فى الزمن الذى كان يجبر فيه الثلج والجليد الملل الاخرى التى فى الاقاليم المعتدلة على كونهم يبطلون الحرب كان الملك بطرس بخلاف ذلك فانه حاصر مدينة نروى التى هى على البعد من القطب بثلاثين درجة وذهب كرلوس الثانى عشر ليعينها فبمجرد ما اتى ملك الموسقوبيين امام المدينة اسرع فى استعمال جميع ما تعلمه فى مدة اسفاره فنصب بالهندسة عرضيه وحصنه من جميع الجهات وشيد متاريس من مسافة الى مسافة وفتح الخندق بنفسه وقلد الدوق المسمى كرواى حكومة الجيش وهو جنرال نمساوى ولكن كان غير معان من الضباط الموسقوبيين ولم يكن للملك بين جيوشه من الرتب العسكرية الارتبة ملازم فكان لا يتجاوز وظيفتها فدخوله بذلك تحت الطاعة العسكرية كان سببا فى اقتداء اشراف جيشه به وكانوا الى ذلك الوقت خالين من الضبط والربط فكانوا يقودون معهم للحروب جوعا مستعبدين من غير تجربة ولا ضبط ولا ربط فليس من العجيب كون هذا الملك بعد ان عمل نجارا فى مدينة امستردام لاجل ان يحصل سفنا رضى برتبة ملازم فى حصار مدينة نروى ليعلم ملته فن الحرابة

والروسيون اقويا لا يتعبون اصلا وربما كانوا فى الشجاعة مثل الاسوجيين ولكن الفضل لطول الزمن فى تعليمهم الحرب والضبط والربط فى كونهم لا ينهزمون وكانت الالايات التى يتوسمون فيها الخير محكومة بالضباط النمساوية غير ان عددها كان قليلا وكان غيرها من المتبربرين المأخوذين من غاباتهم المستورين بجلود الوحوش وكان بعضهم يتسلح بالسهام وبعضهم بالدبابيس

وقليل منهم من كان يتسلح بالبندق ولم يحضر احد منهم قبل ذلك محاصرة عظيمة الانتظام ولم يكن في جيوشهم طوبجي ماهر وذلك لانه كان عندهم مائة وخمسون مدفعا يترآى منها انها تحرق مدينة نروى وتصيرها رمادا ومع ذلك كابدوا المشاق في هدم بعض اسوارها ولم يظفروا منها الا بشئ يسير بخلاف طوبجية مدينة نروى فانهم كانوا يرمون في كل وقت صفوفا كاملة في الخنادق غير انها كانت خالية عن التحصين والاستحكام ومع ان البارون هورن الذى كان حاكما فيها لم يكن معه ما يكمل الف رجل من المتعلمين لم يمكن الجيش الذى لا يحصى ولا يعد من التغلب عليها مدة شهر ونصف

ثم انه وصل الخبر في خمسة عشر يوما من شهر تشرين الثاني الى قيصر الموسقو وهو ان ملك اسوج اجتاز البحر مع مائتين من مراكب النقل سائرا لمعاونة نروى وكان عدد من معه يبلغ عشرين الفا من غير زيادة ولم يكن هذا القيصر يفوق على ملك اسوج الا بكثرة العدد ولكنه عوضا عن كونه يستحقر عدوه استعمل جميع ما عنده من الحيل لاجل ايذائه واتعابه فلم يكتف بثمانين الفا بل جهز جيشا اخر ليقاتله به ويمنع سيره في كل خطوة من الخطوات فارسل في ذلك الوقت يطلب الف رجل تقريبا من باسكوو وامرهم ان يحثوا السير وسلك في هذا الوقت مسالك تزرى به اذا كان مثل ذلك يخل بمقام مشرع للقوانين مثل هذا الرجل العظيم وذلك انه ترك عرضيه وقد كان حضوره فيه امرا لازما جدا وذهب يبحث عن هذا الجيش الجديد الذى يمكنه ان يصل اليه مع غاية الراحة ولو لم يذهب بنفسه فكان يظهر من حاله بسبب هذا السلوك انه كان يخشى ان يحارب في عرضيه المحصن ملكا شابا بالاتجربة عنده فيمكن ان يهجم عليه

وعلى كل حال فاراد هذا القيصر ان يحصر كرلوس الثاني عشر بين جيشين ولم يقتصر على ذلك بل ارسل ثلاثين الفا من العرضي لينصبوا عرضيا آخر بالبعد عن هذه المدينة بنصف فرسخ على طريق ملك اسوج الذى هو كرلوس المذكور وجعل عشرين الفا من اوجاق الانكشارية الموسقوبية المسماة

الاوسترلتز على هذه الطريق ايضا غير انهم ابعد من الاخرين وجعل خمسة آلاف اخرى من الاوسترلتز مقدمة الجيش فتعين حينئذ المرور فى خلال هذه الجيوش قبل الوصول أمام العرضى المحصن بالمتاريس والاسوار وخندقين واما الملك اسوج فنزل من المراكب على البر عند مدينة برناو فى خليج ريغا مع ستة عشر الفا من المشاة واكثر من اربعة آلاف فارس وحث السير من برناو الى رول وخلفه جميع الخيالة واربعة آلاف من المشاة فكان يسير دائما امام عساكره من غير ان ينتظر باقى جيوشه حتى وصل فى مدة قليلة وليس معه الا ثمانية آلاف فقط الى مقدمة عساكر الاعداء فلم يتردد فى الهجوم عليهم فرقة بعد فرقة من غير ان يمهلهم حتى يعرفوا قلة عدد عساكره فلما نظر الموسقو بيون وصول الاسوجيين اليهم ظنوا انهم جيش عظيم مستعد للقتال فعند ذلك هرب خفر اء الموسقو الذين هم مقدمة عساكرهم وكان عددهم خمسة آلاف يخفرون بين الصخور رباطا بحيث انه لو كان فيهم مائة رجل من الابطال المصممين على النصر او الموت لامكنهم ان يوقفوا جيشا كاملا وكذلك العشرون الفا الذين كانوا خلفهم لما نظروا اخوانهم قد هربوا حصل لهم الرعب وفروا فحصل من ذلك الاختلال فى العرضى فاخذت جميع الرباطات فى يومين ومثل هذا الامر الذى كان يعد فى اوقات اخرى ثلاث نصرات لم يعق سير الملك مقدار ساعة بل استمر الملك حتى ظهر مع الثمانية آلاف رجل الذين كانوا معه وقد تعبوا من السير الطويل امام عرضى كان به ثمانون الف رجل من الموسقو بيين وكان حول هذا العرضى مائة وخمسون مدفعا فبمجرد استراحة جيوش ملك اسوج امر بالهجوم من غير ان يجمع لذلك مشورة

وكانت الاشارة لافتتاح الحمل على الاعداء الرمى بفتكتين وكانت كلمة الافتتاح باللسان النمساوى معناها بعون الله فبين له احد الامراء العظام عظم الخطر فقال له هل تظن انى مع ثمانية آلاف من شجعان الاسوجيين لا اغلب ثمانين الفا من الموسقو بيين فلما خاف الملك ان يكون فى كلام هذا الامير هذر ذهب عنده وقال له اما ترى مثلى ان لنا على الاعداء فائدتين احداهما ان

خيالتهم

خيالتهم لا تنفعهم هنا والثانية ان هذا المحل مضيق فعددهم العظيم فيه ضرر عليهم فحينئذ انا في الحقيقة اكون اقوى منهم فاحترس هذا الامير ان يبدي رأيا آخر غير هذا وساروا على الموسقو بين وقت الظهر في اليوم المكمل للثلاثين من شهر تشرين الاول سنة ١٧٠٠

فلما فتحت مدافع اسوج فرجة في المتاريس تقدموا والحراب في اطراف البنادق وكان على ظهورهم ثلج شديد فصار يتساقط على وجوه الاعداء فتركت الروسيون انفسهم للقتل من غير ان يتركوا ظهر الخنادق وهجم الملك على ميمنة الجيش وكان بها عرضي قيصر الروسيا راجيا مقابلته ولم يعرف ان هذا القيصر ذهب بنفسه يبحث عن الاربعين الفا الذين كان يترقب قدومهم في قليل من الزمان وحصل للملك في اول ضرب بندق الاعداء رصاصة في حلقه لكنها كانت باردة فوقفت في طيات منديل اسود كان في عنقه فلم يحصل له ضرر منها بل مات فرسه تحته والخبر في الخواجة اسباران الملك وثب بالسرعة على فرس آخر قائلا هؤلاء الناس يعلموني تعليماتي العسكرية واستمر على القتال واعطاء الاوامر مع حضور عقله فاغتنم بعد ثلاث ساعات من الحرب كسر المتاريس من جميع الجهات فتبع الملك ميمنة الاعداء حتى وصل الى نهر نروى مع ميسرة عرضيه اذا كان يسوغ اطلاق لفظ ميسرة على مثل هذا العدد القليل وهو الاربعة آلاف الذين غلبوا الاربعين الفا وانكسرت القنطرة من كثرة المنهزمين وصار النهر بعد مدة قليلة ممتلئا من الاموات وأيس الآخرون ورجعوا الى عرضيهم من غير ان يعرفوا الى اين يذهبون فوجدوا بعض عشش اختفوا فيها وصاروا يمانعون عن انفسهم حيث لم يمكنهم الهروب ولكن امراؤهم وهم دولغوروقي وغولقان وفدير وونز ذهبوا الى الملك ووضعوا اسلحتهم تحت قدميه فبينما هم كذلك اذ حضر دوقة قوروية الذي هو امير جيشهم مع ثلاثين ضابطا

فتلقى الملك كرلوس جميع هؤلاء الاسارى مع المروة والانسانية والراحة كانه

يصنع لهم تشريفات فى ديوانه ولم يردان يستبقى عنده الا الامرآء فارسل جميع
الضباط التابعين والعساكر الى نهر نروى من غير اسلحة فاحضروا لهم قوارب
ليجتازوا بها النهر ويذهبوا الى بلادهم غيران الليل قدحان دخوله ولم تزل ميمنة
الجيش الموسقوبى مستمرة على الحرب ولم يفقد من الاسوجيين الاستمائة
رجل بخلاف الموسقوبيين فانه مات منهم ثمانية عشر الف رجل فى منار يسهم
وغرق منهم مقدار عظيم واجتاز النهر ايضا عدد جسيم ومع ذلك فقد بقى
منهم عدد يكفى لهزم اعدائهم وقتل جميع الاسوجيين ولم تكن كثرة الموتى سببا
فى عدم نجاحهم فى هذه الواقعة وانما ذلك من خوف الاحياء الذين عاشوا
بعد هؤلاء الاموات واكتسب الملك فرصة اقامة المدة القليلة التى بقيت من
اليوم ليقبض على طوبجية الاعداء ونصب معسكره على وجه مفيد بين
عرضيهم والمدينة ونام عدة ساعات فى ذلك المكان على الارض ملفوفا
فى برنسه ينتظر طلوع الفجر ليهجم على ميسرة الاعداء التى كانت الى ذلك
الوقت لم تتمزق ولم تنهزم انهزاما كاملا وفى الساعة الثانية من النهار لما بلغ
الجنرال ويده الذى كان يحكم على تلك الميسرة حسن الملاقاة التى صدرت من
الملك للجنرالات الاخرين وارساله الضباط التحتانيين والانفار ارسل يتضرع
له ان ينعم عليه كما انعم على الجنرالات الاخرين فارسل هذا الملك المنصور اليه
ان يأتى مع عساكره قائدا لهم وان يرمى السلاح والبيارق بين يديه فظهر
هذا الجنرال حالا مع جماعته الذين كانوا نحو ثلاثين الفا ومشوا عرايا الرؤس
ضباطا وانفارا ودخلوا فى داخل سبعة آلاف من الاسوجيين وحين مرور
الانفار قدام الملك القوا مكاحلهم وسيوفهم على الارض ووضع الضباط
نشاناتهم وبيارقهم تحت قدميه فامر برجوع جميع هؤلاء العساكر ليجتازوا
النهر ولم يحجز منهم احدا اسيرا ولو حجزهم لكان الاسرآ اكثر من المنصورين
بخمس مرات

فدخل حينئذ الملك منصورا فى مدينة نروى وبمعيته دوقة قورويه وغيره من
كبار ضباط الموسقوبية واعادلهم جميعا سيوفهم ولما عرف انهم لادراهم

عندهم وان تجار مدينة نروى لايسمحون باعطائهم الاشياء بالدين ارسل الف دينار لدوقة فوورويه وخمسمائة لكل واحد من جنرالات الموسقو فتعجبوا غاية العجب من هذا الاكرام الذى لم يكن يخطر ببالهم ثم كتبوا حالا فى مدينة نروى وقائع النصرة ليرسلوها الى مدينة استخلم والى معاهدى اسوج غيران الملك محايده ما كان فيها مدحا لنفسه ومايخل بمقام قيصر الموسقو ولم يمنع تواضعه هذا من كونهم يصورون بعض تماثيل فى استخلم لبقاء ذكر هذه الوقائع فوضعوا تمثالا مصورا فيه الملك على قاعدة عامود وبجانبه من احدى جهتيه واحد من الموسقو وآخر من دانيمرقة وثالث من مملكته له وكلهم مسلسلون ومن الجهة الاخرى صورة هرقوليس مسلحا بدبوس وقابضا برجليه على كلب جهنم مع كتابة هذه الكلمات وهى ضربه ضربة قطع بها ثلاثة من رؤسه

وكان ممن وقع اسيرا فى واقعة نروى رجل طالما تداولت عليه تقلبات الدهر حتى صار يضرب به المثل فى ذلك وهو الابن البكرى للملك كرجستان ووارثه وولى عهده فكانوا يسمونه الجار آقيس ارفشلو ومعناه امير او ابن الجار عند قدماء التتار الذين هم اصل لجميع هؤلاء الامم وليس هذا الاسم مأخوذا من كلمة قيصر التى هى مختصة بروما لان هؤلاء الخشنيين مكثوا مدة طويلة لايعرفون الرومانيين وذلك الامير هو ابن الجار متلسكى الذى كان ملكا على معظم البلاد التى بين جبال عرارة والحدود التى على شرقى البحر الاسود ثم طرده رعاياه من مملكته سنة ١٦٨٨ فآثر ان يكون تحت حكم قيصر الموسقو على ان يكون تحت حكم الترك وكان عمر ابن هذا الملك تسع عشرة سنة فاراد ان يتبع بطرس الاكبر فى غزواته فى الاسوجيين فاخذه فى حال اضطرام نيران الحرب بعض عساكر فنلنديه وهو يحارب وسلبوه وارادوا قتله فانقذه القونتة رنشلد من ايديهم وكساه وا حضره امام الملك فارسله كرلوس الى مدينة استخلم فمات فيها هذا الامير المسكين بعد عدة سنين ولم يمكن الملك حين ارتحال هذا الاميران يمنع نفسه من كونه يقول بحضرة ضباطه فى شأنه انه غريب من بلاد

اسيا ومولود ببلاد كوه قاف وهو ذاهب ليعيش اسيرا فى جليد اسوج وقال انما مثله مثل كوكب فى اصيرذات يوم اسيرا عندنا ببلاد القرم فلم يؤثر هذا الكلام فى هذا الوقت عند العساكر ولكنهم تذكروه فيما بعد حيث تحقق ما اخبر به بعينه

واما قيصر الموسقو فانه سار سيرا حثيثا مع اربعين الفا مقاتل موسقوبى عازما على الاحاطة بحلقة عدوه من جميع الجهات فبلغه فى اثناء الطريق حرب نروى وتشتيت عرضيه فلم يعزم على الهجوم على عدوه المنصور الذى اهلك ثمانين الفا من عرضى محصن ودمرهم باربعين الفا خالين عن الضبط بل رجع على عقبه وتصدى لتعليم جيوشه الضبط والربط وتعليم رعاياه التمدن وقال انا اعرف ان الاسوجيين يحاربوننا زمنا طويلا ولكن ينتهى امرهم ان يعلمونا بانفسهم كيف نغلبهم وصارت مدينة موسقو التى كانت كرسى مملكته فى الخوف والحزن عندما بلغها خبر هذه الهزيمة ومن كبر هؤلاء الاهالى وجهلهم ظنوا ان غلبتهم تجل ان تكون بشرية وانما اعتقدوا ان الاسوجيين سحرة وصار هذا الرأى عندهم عاما حتى انهم استغاثوا بالمقدس نقولاس وهو استاذ موسقوبى وصورة هذه الاستغاثة غريبة فلا باس بذكرها هنا وهى

يا مارى نقولاس يا مفرج كروبنا وصارف همومنا انت ذو القدرة الغير المتناهية هل اذنبنا فى قرباننا وركوعنا وسجودنا او فى خضوعنا وخشوعنا او فى افعال الشكر لك حتى استحقينا ان تتركنا هكذا فقد تضرعنا اليك لتغيثنا من هؤلاء الخلق المهولين ارباب الاساءة والفجور والارعاب المتلفين الذين لا ينقادون فقد هجموا علينا كاسرين كالسباع والذئاب الشاكلة لاولادها وازعجونا وجرحوا وقتلوا منا الجم الغفير نحن قومك ولما كان من المستحيل ان هذا يحصل من غير سحر فنترجاك يا مارى نقولاس ان تكون ناصرنا وحامل لوائنا وان تنقذنا من هؤلاء السحرة وتطردهم بعيدا عن حدودنا مع ما يستحقونه من الجزا انتهت وفى اثناء شكوى الموسقويين لمارى

نقولاس ما حصل لهم من الهزيمة كان كرلوس الثاني عشر يشكر الله عز وجل ويستعد لنصرة اخرى جديدة

فعرف ملكه ان عدوه الذي انتصر على الدانمارقيين والموسقوبيين يأتي لاجل الهجوم عليه فتعصب باتم التعصب وتحد مع قيصر الموسقو واتفقا على ان يجتمعا ليدبرا طريقة في شأن التحزب لما تقتضيه مصلحتهما فاجتمعا في مدينة بيرزان وهي مدينة صغيرة من مملكة لتوانيا من غير عمل بالرسوم الملوكية المقتضية لتأخير الاشغال وتعطيلها خصوصا وذلك لا يلايم حالهما وطباعهما فصار بين ملكي الشمال مخالطة ومعاشرة واتحاد كلي لم يحصل مثله في جنوب اوربا فمكث بطرس واغسطوس معا خمسة عشر يوما في اللذات والشهوات وتجاوزا فيها الحد حتى ان قيصر الموسقو الذي كان يريد ان يصحح ملته ويؤدبها لم يمكنه ان يؤدب نفسه ويمنع ميلها الى الفساد

وقد التزم ملكه له ان يعطي لقيصر الموسقو خمسين الفا من الجيوش النمساوية يشتريهم له من عدة ملوك والتزم له قيصر الموسقو ان يعطيهم العلوفة ويرسل خمسين الفا موسقوبيا في مملكته لتتعلم فيها فن الحرب ووعده ان يدفع له ثلاثة ملايين من نقود ذلك العصر في ظرف سنتين ولو عمل بمقتضى هذه المشارطات لكانت مضرة بملك اسوج لما انها كانت وسيلة اكيدة سهلة في تعليم الموسقوبيين فن الحرب فيكون ذلك اصعب ما يكون على قسم عظيم من اوربا

فبذل كرلوس الثاني عشر جهده في منع ذلك له من اجتناء ثمرة هذه العصبة وذلك انه بعد ان مكث مدة الشتاء بقرب مدينة نروى حضر في اقليم ليونيا بقرب مدينة ريغا التي كان قد حاصرها الملك اغسطوس من غير طائل وكانت الجيوش السكسونية اذ ذاك معسكرة على شاطئ نهر دونا وكان متسعا جدا فلزمهم ان يمنعوا ملك اسوج من العبور وكان على الشاطئ الثاني ولم يكونوا في ذلك الوقت تحت حكم ملكهم لانه اذ ذاك كان مريضا وكان قائدهم المارشال المسمى اسطنو الذي كان قائما بوظائف جنرال وكان

دونه فى الحكم الامير فرديـنان دوق قورلندة وبطقول الذى كان يدافع بسيفه عن وطنه خوفا من كرلوس بعد ان خاطر بنفسه فى ممانعة كرلوس الحادى عشر بكتابته عن خصوصيات وطنه وكان ملك اسوج قد انشأ عمارة سفن على وجه غريب لم يسبق له مثال فكانت جوانبها مرتفعة ارتفاعا خارجا عن حد العادة وكان لها دواليب ترفع وتخفض بها مثل القناطر التى تمد وتطوى فكانت اذا رفعت تستر من فيها من الجيوش واذا نزلت تنفع فى المرور عليها كالجسور وعمل حيلة اخرى وهى انه لما شاهد ان الريح تهب من جهة الشمال التى كان بها الى جهة الجنوب التى كان الاعداء معسكرين بها وضع نارا فى تبن مبلول فانتشر الدخان على النهر فاخفى جيوشه وجميع ما عزم عليه من الافعال والحيل عن اعين السكسونيين وقدم بمساعدة هذا الدخان سفنا ممتلئة من هذا التبن الذى يخرج منه الدخان فصار يتزايد دائما ويدفعه الهواء الى اعين الاعداء حتى صار لا يمكنهم ان يعرفوا ذهاب ملك اسوج الى جهتهم * وهو الذى كان يباشر تلك الحيل بنفسه وسار حتى وصل الى وسط نهر دوينا ثم قال للجنرال المسمى رنشلد ليس هذا النهر اشد خطرا من نهر كوبنهاغ وما قلته لك صحيح فاننا سنغلبهم فوصل فى ربع ساعة الى الشاطئ الثانى فوجد ثلاثة اشخاص نزلوا فيه قبله وهو رابعهم فلام نفسه حيث لم يكن اولهم واخرج حالا مدفعه ورتب صفوفه من غير ان يعارضه الاعداء الا بضرب مدفعهم عدة ضربات فى الهواء بالصدفة لان الدخان كان يمنعهم كثيرا من رؤيته ثم شتت الريح هذا الدخان فشاهد السكسونيون ملك اسوج سائرا اليهم

فعند ذلك اغار المارشال على الاسوجيين مع معظم الخيالة وكانوا حينئذ يرتبون صفوفهم فبمجرد اغارته عليهم وقع الخلل فيما رتبوه وتفرقوا وانهزموا وتبعهم الاعداء حتى وصلوا الى النهر ولما وصلوا الى وسط النهر حثهم الملك على الحرب وجمعهم فى اسرع وقت كانه يسرد هم لتفتيش السلاح فلما اجتمعوا وانضموا لبعضهم وصاروا احسن مما كانوا عليه اولا من الانتظام هزموا

المارشال

المارشال المذكور وتقدموا في السهل فلما استشعر اسطنوان جيوشه حصل لهم دهشة من ذلك وصلهم بمهارته الى محل يبس يكتنفه غدير واجمة كان بها طو بجيته فحصل للسكسونيين من ذلك اطمئنان وتشجعوا ومع ذلك لم يحصل لكرلوس حيرة في الهجوم عليهم لانه كان معه خمسة عشر الفا وهم نحو اثنى عشر الفا ولم يكن معهم الا مدفع واحد من غير جمالة فصارت الواقعة صعبة وسفكت فيها دماء كثيرة ومات تحت الدوق فرسان ودخل ثلاث مرات وسط الوردبان ثم وقع بعد ذلك من فوق فرسه بضربة كرينفة ببندقة فوقع الخلل في جيشه وأيس من النصرة فحمله عساكره المتدرعون بغاية المشقة على رمق من وسط المعركة تحت ارجل الخيل

وبعد ان انتصر كرلوس الثاني عشر ذهب الى مدينة ميطو وهي كرسي مملكة كورلندة فسلم جميع اهالي مدن تلك المملكة انفسهم له من غير جبر ولا قهر فكانت تسميتها سفرة اولى من تسميتها غزوة وتوجه ايضا الى مملكة لثوانيا من غير ان يقف في الطريق وكان كلما مر على بلدة انقادت له ودخلت تحت طاعته وقابلته بالبشر والبشاشة فحصل له من ذلك سرور باطني حتى انه اخبر بذلك حين دخل منصورا في مدينة بيرزان التي تعاهد فيها ملك له وقيصر الموسقو قبل ذلك باربعة اشهر على تدمير مملكة اسوج

ثم انه عزم وهو بتلك المدينة على ان يحرض اهل مملكة له على خلع ملكهم فبينما هو ذات يوم يأكل على المائدة وهو مشغول الفكرة بهذا المقصد حتى ان اكله قل عن العادة والتزم الصمت وظهر من حاله شغل البال واذا بقائم مقام نمساوي كان حاضرا على المائدة يقول باعلى صوته ليسمع الملك كلامه ان اكل الملك قليل بالنسبة لما اكله قيصر الموسقو وملك له في هذا المحل فعند ذلك قال الملك وهو قائم نعم وسأعكر عليهم ثم لما اضاف الى قوة اسلحته بعض سياسة عزم على الاستعداد لما نواه

ومن المعلوم ان مملكة له التي هي جزء من مملكة سرماسيا القديمة اكبر بشيء يسير من مملكة فرانسا لكنها اقل عمارة منها واكثر عمارة من مملكة اسوج

ولم يتنصر اهلها الا منذ سبعمائة وخمسين سنة ومن الغريب ان لغة الرومانيين
الذين لم يدخلوا هذه الاقاليم اصلا مستعملة فى جميع مملكة له فكان سائر اهلها
يتكلمون بها حتى خدمة قوهم وكانت هذه المملكة كثيرة الخصب جدا غير ان
اهلها لم يكونوا ماهرين فى الصنائع حتى ان من كان بها من التجار والصنايعية
كانوا من الفرنساويين والاوستريين خصوصا اليهود فانهم كثروا بها جدا حتى
كان لهم فيها ثلثمائة كنيسة واذا ازدادوا على هذا العدد طردوا منها كما طردوا من
مملكة اسبانيا سابقا وكانوا يشترون الغلال والمواشى والسلع التى فى المملكة
بثمن بخس ويتاجرون فيها فى مدينة دنزيقة ويبيعونها فى بلاد النيمسا خالية
جدا الاعيان الناس الذين يرغبون فى الترفه فى الملابس والاطعمة ولكون
هذه المملكة كانت تروى بالانهار العظيمة كانت كثيرة الغلال عظيمة المرعى
ذات معادن ملحية ومع ذلك كان اهلها فقراء لانهم كانوا مستعبدين لاكابرها
الذين كانوا يحبون البطالة والراحة

وكانت حكومة مملكة له تماثل فى الصورة حكومة الدولة القديمة وهى
السلتية والغوطية ولم تتغير كغيرها من الممالك وامتازت عن غيرها باجتماع
الجمهورية والمنصب الملوكى فيها

وكان لكل بيك زاده الحق فى ان يعطى رايه فى انتخاب الملك بل يمكن ان
يكون بنفسه هو الملك وهذا الحق العظيم ربما كان يعتريه فى بعض الاحيان
تجاوز الحد وذلك ان كرسى المملكة كان دائما معرضا للبيع وكان غالبا يباع
للغرباء لمااته كان يندر وجود غنى من اهل المملكة فكان اعيانهم وكذلك
قسسهم يدافعون عن حريتهم ممن يتولى عليهم غير انهم كانوا يمنعون من
عداهم من اهل المملكة من حريتهم فلذلك كانت الامة فيها مستعبدة لما ان
الحكمة الالهية اقتضت من الازل على اى وجه كان ان يكون العدد الكثير
من الناس محكوما بافراد قليلة فكان الفلاح منهم لا يزرع لنفسه اصلا بل
للملتزمين الذين ينتسب اليهم هو واراضيه وشغله بل ربما كان لهم التصرف
فيه بالبيع والقتل كالبهائم وكان كل بيك زاده مستقلا بنفسه غير تابع لاحد

حتى لو فعل ما يوجب عليه عقوبة لا يحكم عليه بها الا بعد اجتماع جمعية
كبيرة لهذا الشأن ولا يقبض عليه الا بعد الحكم عليه بما يستحقه من موت
او غيره فعلى ذلك يكاد انهم لا يعاقبون اصلا وكان اغلب اهل تلك المملكة
فقراء فكانوا يبيعوا حقوق انفسهم للاغنياء ويقومون بالوظائف الدنيئة
فكانوا يرون ان خدمة امثالهم احسن لهم من التجارة وكان احدهم يخدم
فى الامور الخسيسة ويلقب نفسه بالالقاب الجليلة فكان يعالج خيول سيده
ويقوم بخدمتها ويلقب نفسه بمنتخب الملوك ومبيد الظلمة

وكان الذى يشاهده لك له فى افتخاره وابهته يظن انه اعظم ملوك اروبا تصرفا
مع انه كان اقام لما ان اللاهيين كانوا يعقدون معه مشارطة كثيرة من الملوك
فكان ملك له عند توليته بلبس التاج وتقديسه فى الكنيسة يحلف انه لا ينقض
تلك المشارطة المتفق عليها بينهم وانه ان خالفها لا تكون الرعية ملزمة
بطاعته

وكان هو الذى يعطى المناصب والرتب ولم يكن فى مملكته له شئ بالوراثة الا
وصف الشرف والتزامات الاشراف فكان ابناء الحكام او الملوك لا حق لهم
اصلا فى مناصب آبائهم وكان هناك فرق بين الملك والجمهورية وذلك انه كان
اذا قلد احدا منصبا لا يخلعه منه بخلافهم فانهم كانوا ينزعونه منه اذا تعدى
القوانين

فكان اشرافهم اذا اريد انتخاب ملك عليهم يبيعون آراءهم له وقل ان باعوا
محبتهم فلذلك كانوا بمجرد انتخابهم له يخافون من طمعه ويثيرون الفتن
فى الرعية لاجل القيام عليه حتى ان ارباب المناصب التى قلدها اياهم ولا يمكن
عزلهم كما سبق ان الملك اذا ولى احدا لا يعزله يصيرون اعداء آمله عوضا عن ان
يكونوا اتباعا من اشرافه وتحت طاعته وكان ارباب الديوان مبغوضين دائما
للاشراف فمن ثم كانوا فرقتين وكانت تظن ان هذه الفتن لا تخمد من هذه المملكة
الا انها كانت ضرورية فى جميع البلاد التى يريد اهلها ان يكونوا لهم ملوك
حفظ حريتهم

وجميع الاشياء المتعلقة بالاهالى كانوا يدبرونها فى المشورة العمومية المسماة دييته ومعناها الجمعيات وكانت هذه الجمعية مركبة من ارباب مشورة السنت والبيك زادات وكانت الطائفة الاولى مركبة من الحكام والاساقفة والثانية مركبة من وكلاء جمعيات الاقاليم الخصوصية وكان رئيس هذه المشورة المطران غسنه رئيس مطارنة مملكة له وخليفتها فى وقت خلو الكرسى عن ملك والرئيس بعد الملك وكان يندر ان يكون فى بلاد له كردينال غير هذا المطران لان منصب الكردينالية الرومانية لا يسوغ ان يكون فى المشورة مرتبة اخرى غير مرتبة المطرانية فلو صار المطران كردينالا للزمه اما ان يجلس فى مرتبة ارباب المشورة كغيره نظرا لحماية شرف المحل الذى بعث اليه من طرف رومة او يتخلى عن هذا الحق العظيم نظرا لكونه ليس من اهل المحل الذى بعث اليه

وينبغى لهذه الجمعية ان تعمل فى مملكة له ومملكة لثوانيا بالقوانين وكانت عادة اهل هذه الجمعيات ان يقضوا فى الدعاوى والسيوف بايديهم مثل اسلافهم الذين هم قدماء السرماتيين بل كان هؤلاء يفعلون ذلك فى حال سكرهم وهذا شئ قبيح لم يسبق لاسلافهم وكان كل بيك زاده من اهل هذه الجمعيات يتمتع بحق كان يتمتع به وكلاء الملة فى مملكة رومة وهو كونه يناقض قوانين مشورة السنت فكان البيك زاده الذى يريد مناقضة آراء غيره من ارباب المجالس بمجرد ما يقول انا انقض ذلك توقف جميع الآراء واذا غاب عن محل الجمعية تشتت منها اربابها

وقد جبروا بعد ذلك الخلل الناشئ عن هذه القوانين بامور هى فى الحقيقة اخطر منه وذلك ان مملكة له كانت غالبا لا تخلو عن فرقتين متضادتين وكان اتفاق الآراء فى الجمعية العمومية مستحيلا فان كل فرقة كانت مركبة من فرق صغيرة متعاهدة يستقر الرأى فيما تذاكروا فيه برأى جمهور كل فرقة ولا يعتبر مخالفة العدد الاقل وهذه الجمعية بالنظر لقوانين المملكة خلاف الاصول وانما هى مأذونة لكون العادة قد جرت بها واثبتتها وهى

تحكم

تحكم بالنيابة عن الملك والوكالة عنه وفى الواقع ان مايستقر عليه الرأى فيها قد يكون خلاف ارادته ومنابذا لمصلحته فهى نظيرا لجمعية المسماة الليغة اى العصبة المتحزبة التى كانت فى زمن هنرى الثالث وكان القصد منها اتعابه واضراره وكما حصل فى انكلترة من مشورة المذاكرة المسماة البرلمنت فانها حكمت بقتل كرلوس الاول بقطع عنقه على رؤس الاشهاد بالمغرمة المعدة لقتل المذنبين مع انها فى اول الامر كانت تبرز باسم الملك جميع الاحكام والخلاصات التى ادت فيما بعد لقتله فكذلك فى هذه المشورات الصغيرة المتعاهدة نظير ذلك وبعد تمام الفتنة وانقضاء ما انحط عليه رأى المتعصبين تحضر الخلاصة التى انحط عليها الرأى وتمتحن فى المشورة العمومية المركبة من المعاهدات الصغيرة فهى التى تقررها وتثبتها او تنقضها وتفسخها بل قد يقع ان مشورة عموم منعقدة فى زمن تنسخ ما صدر من مشورة اخرى عمومية فى زمن آخر قياسا على ما فى الدولة الملوكية من ان قانون الملك قد ينسخ قانون من قبله بل قانون الملك المتأخر ينسخ قانونه المتقدم

وكان الاشراف هم الذين يشرعون القوانين هم ايضا قوة الجمهورية وشوكتها فكانوا يركبون الخيل وقت الامور المهمة ويمكن ان يبلغ جماعتهم مائة الف نفس ويقال للجيش المركب منهم البسبوليتى وهم يحسنون الحركة العسكرية بالسهولة غير ان ادارتهم كانت رديئة وذلك لان صعوبة تحصيل الزاد والامداد للناس او البهائم تصيرهم عاجزين عن ان يطول زمن مكثهم مجتمعين فلم يكن فى جيشهم ضبط ولا ربط ولا طاعة ولا تجربة وانما كان مهيبا مرهبا للاعداء بما فيه من حب الحرية فهى الباعث القوى على اجتهاده وغيرته

فيمكن هزمه وكسره وتفريقه وتشتيته واسره زمنا مع بقائه على الرقية ولكن فما اقرب زمن يخرج من ربقة الاسر فارباب هذا الجيش يشبهون انفسهم بالقصب الذى تلقيه الرياح مسطوحا على الارض ثم يعتدل ويستقيم ويرتفع بمجرد سكونها ولهذا لم يكن عندهم مدن حصينة بل يحبون ان يكونوا هم

قلاع الجمهورية وحصونها فلا يطيقون ان ملكهم يبنى حصونا ولا قلاعا
مخافة ان يتوصل بها الى ظلمهم زيادة على ان يحتمى فيها فجميع بلادهم
مفتوحة خالية عن الحصون ما عدا ثلاثة فى الثغور فاذا حصلت حروب
داخلية او اجنبية واصروا على ان يمانعوا او يحاصروا يلزم عندهم تعمير
استحكامات فى الارض على وجه السرعة وان يرمموا الاسوار القديمة المتخربة
ويوسعوا الخنادق المسدودة بالردم فيتفق ان مدينتهم تؤخذ قبل تتميم تلك
الاستحكامات
وليسوا دائما على ظهور خيولهم لحفظ البلاد بل لا يركبونها الا ايام
من مجالسهم العمومية او من الملك وحده عند حلول الشدائد والاخطار
واما الورديان المعتاد لدولة له فانه جيش دائما يعيش من ايرادات الجمهورية
وهو مركب من فرقتين تحت حكم جنرالين مختلفين فاحدى الفرقتين هى
فرقة له ويجب ان تكون ستة وثلاثين الفا والفرقة الثانية كانت اثنى عشر الفا
وهى فرقة لثوانيا وكل واحد من رئيسيهما مستقل بنفسه غير تابع للاخر ومع
ان تنصيبهما من الملك فجميع ملحوظاتهما وافعالهما انما يفيد ان بهما
الجمهورية ولهما شوكة مطلقة على فرقتيهما مثلا امراء الالايات يتصرفون
كما يشاؤن فى آلاياتهم فهم يعيشونهم على حسب مرادهم ويصرفون لهم من
عندهم الماهيات كما يشتهون ولما كان هؤلاء الامراء لا تدفع لهم ماهياتهم
ولا ماهيات عساكرهم الا نادرا كانوا يتلفون البلاد ويسلبون المزارعين ليشفوا
غليل طمعهم وطمع عساكرهم ثم ان امراءه يظهرون فى هذه الالايات بتجمل
وتزين فوق ما يكونون عليه فى المدن فترى خيامهم اظرف من بيوتهم وثلثى
عساكرهم خيالة فرسانا واغلبهم من البيكزادات فتراهم ممتازين بجمال
خيولهم ونفاسة ملابسهم وطقوم خيولهم
واغواتهم قسمان احدهما يسمى قطنة والاخر يقال له بنسرنه فتجد احدهما
لا يمشى الا مصحوبا بعدة خدم تجر خيوله المزينة بالازمة المفضضة المصمرة
بالذهب وسروجها مزركشة مطرزة وركاباتها مذهبة كالسروج وربما كان

الركاب من خالص الفضة ودلاياتها نازلة على عادة الخيول العثمانية فان اهالى له يقلدونهم في الزينة على قدر الامكان

وبقدر ما في الفرسان من الزينة والظرافة ليس في المشاة من ذلك شئ بل سيائهم رديئة الملبس والسلاح ليست لابسة لبسا منتظما كعادات العساكر النظامية وليس عليها شئ من ملابس الالاى ولا شك انها بقيت على رثاثتها الى سنة ١٧١٠ وهم يشبهون الرحالة النزالة ولهم تجلد عجيب على تحمل الجوع والبرد والمشاق وجميع مضار الحرب

ومما يشاهد في عساكرهم الى وقتي هذا هو طبائع قدماتهم المسمين الترماتيين فهم مثلهم في قلة الضبط والربط وفي الحمية عند الحمل على العدو وفي سرعة الهروب والتولى والمبادرة بالرجوع الى المعركة وهم مثلهم ايضا في شدة اضرام نيران الحروب واستئصال الاعداء متى انتصروا

وكان يمدح ملك له اولا انه عند الحاجة يحارب هاتين الفرقتين لارضائه ولمصلحته وبانضمامهما الى العساكر البسبوليتية اللاهية يتسلح جميعهم لحاجته تحت قيادته واوامره والى هذه العساكر جميعها تنضم ايضا عساكر السكسونيين الذين هم رعاياه وعساكر الموسقوبيين المتعاهدة معه فيبلغ الجميع مقدارا عظيما لا يمكن ان تبارزهم عساكر الاسوجيين ثم بعد ذلك خاب امله فجاءة حيث حرم من هذه المعاونات بسبب كونه اهتم بجمعها دفعة واحدة

ولما كان متعودا في بلاده الوراثية على الحكومة المطلقة التصرف خطر بباله انه يمكنه ان يحكم مملكة له كما يحكم مملكة سكس ووثق بذلك ففي ابتداء توليته على المملكة اغضب كثيرا من الناس وذلك لان اول اعماله وتدبيراته اغاظ الحزب المعارض لانتخابه واختياره وجرى ذلك في الباقي فغضب اللاهيون حيث رأوا مدنهم ممتلئة بالمحافظين السكسونيين وثغورهم مشحونة بالعساكر ولما كانت هذه الملة اللاهية اشد ولعا بحرية تهاون مبادرتها بالهجوم على ما جاورها من الممالك لم تعتبر حرب ملكها اغسطوس مع الاسوجيين

واغارته على ليونيا الاغرضا نافعا لمصلحة الجمهورية وشروعا مفيدا لها وذلك ان الملة الحرة لا يكون غشها الا بالصعوبة فى مصالحها الحقيقية ومنافعها الذاتية فلا شك ان الامة اللاهية كانت تعرف ان هذا الحرب الذى شرع فيه ملكها من غير رضاها ولم يحصل فيه نصرة لها فان ارضها تصير من كل الجهات عرضة لاغارة ملك اسوج واما اذا حصل فى هذا الحرب الظفر لها والنصرة لملكها فانها تصير تحت استرقاء ملكها وتصرفه فيها لانه اذا صار صاحب ليونيا كما هو صاحب سكس تصير بلاده مستعبدة بين هاتين المملكتين ففى كلتا الحالتين اما ان تكون مستعبدة للملك الذى انتخبته او يخربها كرلوس الثانى عشر الذى حصلت له الاساءة من طرف اغسطوس بتعديه عليه فلهذا كانت تعارض كل المعارضة فى الحرب الذى تظن ان اشهاره للاسوجيين انما هو فى الحقيقة حرب من طرف ملكهم لهم لا للاسوجيين ورأوا ان السكسونيين والموسقوبيين هم وسائط استرقاقهم ومعينون على اسرهم ثم لما رأوا عن قريب ان ملك اسوج ازال ما كان فى طريقه من الموانع وغيرها وتقدم بجنوده المنصورة الى داخل مملكة لثوانيا ظهرت عداوتهم لملكهم اغسطوس وسلكوا معه ما تقتضيه شهامة الحرية لاسيما حيث رأوه قد خاب فى مشروعه وتمكنوا من التشفى فيه

وكانت فى ذلك الوقت مملكة لثوانيا مفترقة الى فرقتين متعاديتين اصل عداوتهما من منازعات خصوصية ثم استحالت الى حرب داخلى وفتنة اهلية الفرقة الاولى حزب امراء اساپيها والثانية فرقة الامير اوجينسكى فاستمال ملك اسوج امراء آساپيها واما فرقة اوجينسكى فكانت متحدة مع السكسونيين فلما لم يعينوها على حسب مطلوبها انعدم حزبها وصار هباء منثورا فحينئذ جنود لثوانيا لما قل عددهم بهذه الفتن وبفقد الاموال تشتت اغلبهم حين انتصر عليهم عدوهم ومن بقى امينا للملك له فقد تفرق الى فرق قليلة من العساكر الهاربة التى كانت تهيم فى الخلاء لا تدرى اين تتوجه وتتقوت من السلب

والنهب

والنهب فلم يجد اغسطوس في اقليم ابوانيا الا عجز حزبه وبغض رعاياه له ورأى جنود عدوه عظيمة يقودها ملك صغير مظلوم منصور مصمم على الظفر به واشفاء غليله منه نعم ان له في مملكة له جيشا الا ان هذا الجيش كان يجب ان يكون بمقتضى القوانين ستة وثلاثين الف نفس فلم يبلغ تسعة عشر الفا من العساكر التي لم يحسن تخصيص ماهيتها ولا احكام سلاحها حتى ان امراءها كانوا غير مصممين على ان يكونوا من حزبه

فلم يكن له حيلة الا كونه يأمر الاشراف ان يتبعوه في حربه لكن لم يأمرهم بذلك خوفا من انهم اذا امتنعوا من معاونته انكشف ضعفه وبان امره

وفي هذه الحالة الصعبة المشتملة على التعكير والحيرة التمس من الملك جميع احكام المملكة ان يعقد مشورة عموم كما في بلاد الانكليز في المواطن الخطرة التي يخشى على المملكة منها يعرض للملك ان يجمع مشورة المذاكرة وفي الواقع ان اغسطوس كان احوج للجنود من اجتماع المشورة التي فيها لا يعمل الملك شيأ ومع ذلك فقد لزمه ان يعقد المشورة لئلا يغضب الملة من غير ان يعود عليه ذلك بشيء فعين المشورة في مدينة ورشاو وجعل ابتداءها الثنين من شهر كانون الاول (سنة ١٧٠١) وقد لمح عن قريب ان كرلوس الثاني عشر له في هذه الجمعية قوة وسلاطة مثل قوته او اكثر وذلك لان جميع من يميل لامر أسابيها وامر ألوبومرسكي فاحبائهم والحاكم لوفرنتي بخازندار المملكة الذي اصل غنائه الملك اغسطوس وكذلك احباب امرآ سويدسقي كل هولاء كانوا في الباطن مع ملك اسوج

وكان اشد هولاء المنافقين عداوة للملك له الكردينال راجوسكي مطران غنيزنه وهو رئيس بطارنة المملكة ورئيس المشورة العمومية وقد كان رجلا صاحب حيل وخداع وتستر في افعاله وكانت تحكم عليه زوجته الكثيرة الطمع التي كان يسميها الاسوجيون مدام الكردينالة فكانت دائما تغريه على الفتن والدسائس وقد كان قبل ذلك قد ولاه الملك يوحنا سوبيسقي اسقفا على مدينة ورميا وجعله وكيلا ورئيس افندي المملكة ولما كان اسقفا قبل ان يرقى

رتبة غير هذه انتقل منها الى منصب كرد ينال انعاما من ذلك الملك عليه فهذا المنصب وصل عن قريب الى منصب رئيس مطارنة ولما كان منصبه يقتضى هيبته عند جميع الناس كان يشرع فيما يريد الشروع فيه من غير ان يعارضه احد ولا ان يحصل له عقاب

ولما كان له فى المملكة كلمة نافذة اراد ان يستعملها فى تنصيب جاكس سويستق ابن يوحنا المذكور ملكا فى موضع ابيه وشرع فى ذلك ولكن لما كان ابوه مبغوضا وان كان فى الواقع رجلا عظيما معتبرا كان هذا سببا فى ابعاد ابنه من المنصب الملوكى فاجتمع الكرد ينال المذكور حينئذ مع رئيس الدير المسمى بولينياق الجى فرانسا على جعل امير قونتى ملكا فانتخبوه لذلك ولكن اموال سكس وجنودها اغلبت ما حصل عليه الاتفاق من رئيس المطارنة ومن الجى فرانسا فمال رئيس المطارنة هذا الى الحزب الذى اراد تولية المملكة لمنتخب سكس وهو اغسطوس وفى باطنه انه يوقع الفتنة بين الملة وهذا الملك الجديد ولا زال يتوقع لذلك فرصة

فلما وقعت نصرة كرلوس الثانى عشر عدة مرات وكان كرلوس هذا محاميا للامير جاكس واضطرمت نيران الحروب الداخلية فى اقليم لتوانيا وقامت الناس على الملك اغسطوس ظن الكرد ينال انه قد آن ما كان يترقبه من طرد اغسطوس الى سكس وتقليد ابن الملك يوحنا زمام المملكة ولما كان جاكس مبغوضا عندهم فيما سلف من غير ان يكون لذلك سبب انقطعت العداوة بمجرد ما صار اغسطوس مبغوضا عندهم بل تبدلت عداوة جاكس بالمحبة ومع ذلك فلم يشعر اغسطوس بان مثل هذه الفتنة العظيمة تقع فى شأنه ويخرج عليه الناس هذا الخروج ومع ذلك فلا زال الكرد ينال يؤسس العداوة بينه وبين الاهالى

وفى مبدء الامر كان يتراآى من ظاهر هذا الكرد ينال انه يريد ان يوفق بين الملك والجمهورية فبعث مراسلات ظاهرها الوفاق والصلح والمعروف وباطنها انها كالشرك يصطاد بها فى الغالب من لا خبرة له وان كانت لا تخفى على كثير من

الناس مثلا قد كتب ملك اسوج مكتوبا تلطف فيه نهاية التلطف يناشده الله تعالى الذى تعبده جميع النصارى على حد سوا ان يمنح مملكته له الصلح هى وملكها فاجابه كرلوس الثانى عشر بمقصوده الباطنى غير انه بقى فى دوقية لثوانيا العظمى مع جنده المنصور قائلا انه لا يريد التعكير على مشورة العموم اللاهية وانه انما يفعل الحرب مع اغسطوس ومع السكسونيين لا مع اللاهيين وليس غرضه محاربة الجمهورية وانما مراده الذب عنها وانقاذها من الظلم وكان الغرض من المراسلات والمجاوبة عنها اطلاع الخاص والعام على ذلك وكان دائما بين الكردينال وبين وزير ملك اسوج القونت پيپير مراسلات مستمرة وكان هذا الكردينال عنده دائما جمعيات سرية من الرسل التى كانت تسعى بتلك المراسلات فكان جميع ما يقع فى مشورة العموم صادرا من الجمعيات السرية التى فى بيت الكردينال فمن جملة ما التمسته المشورة من الملك اغسطوس ان يبعث رسولا الى ملك اسوج بطلب الصلح وطلبت منه منفقة على رأى واحد ان لا يستعين بالعساكر الموسقوبية ولا يطلبهم لحماية الثغور وان يسرح العساكر السكسونية ويبعثهم الى بلادهم

وفى الواقع ان هذا الملك لما كان نصيبه الخيبة كان قد حصل له ما جبرته عليه المشورة قبل ان تأمره بذلك وذلك ان المعاهدة المنعقدة فى بيرزان مع الموسقوبيين صارت غير نافعة مع انها كانت فى مبدء امرها يظهر ان عليها مدار العمل وكان قد وعد قيصر الموسقو ان يجمع له خمسين الفا من الالمانيين فلم يمكنه ان يفى بوعده وايضا قيصر الموسقو كان خطرا على بلاده فلم يرض ان يعاونها فى ذلك الوقت بجميع قوته لا سيما وانها كانت متفرقة بالفتن والشرور فكان يظن انه يعود عليه من تمزيقهم النصيب وانما شرع ان يبعث فى لثوانيا عشرين الف موسقوبى كان اضرارهم لهذه البلاد اكثر من اضرار الاسوجيين لها وذلك انهم كانوا يهربون قدام العدو وحيث يصادفهم ينهبون اراضى اللاهيين الى ان انتهى بهم الحال ان تتبعهم رؤساء الاسوجيين فلم يجدوا شيأ ينهبونه فرجعوا الى بلادهم اشتاتا واما بقايا

الجنود السكسونية فانهالما انهزمت في مدينة ريغا بدونها الملك اغسطوس
الى سكس لتقضي فيها مدة الشتاء وتجمع عساكر اخر لتجبر خلل ما ضاع وامل
بذلك ان يستميل الملة اللاهية ويسكن غضبها

فحينئذ انقلب الحرب الى غش وتزوير وصارت المشورة متفرقة الى فرق
واحزاب بقدر عدد الحكام واختلفت الاغراض فيكان بها اغراض
اغسطوس منصورة غالبة في يوم وفي اليوم الاخر ساقطة بالكلية وجميع
الناس يبحثون فيها عن الحرية والعدل من غير ان يهتدي احد الى معنى الحرية
او العدل وضاع الزمن في تدبير الامور في السر والجث عليها جهرا على
رؤوس الاشهاد وتحيرام المشورة العمومية فلم تعرف ارباب المجلس
ما يريدون فعله ولم يهتدوا الى ما يناسبهم فعله وفي الحقيقة ان المجالس الكبيرة
لا يمكنها ان تحصل نصائح عظيمة في الفتن الداخلية ولا ان تهتدي الى طريق
الصواب لان ارباب الفتن فيها هم ارباب جسارة وجراءة وارباب الاستقامة
ارباب حياء وخشية وهذا ما جرت به العادة فلا يمكن الاستقرار في مشورة
العموم العظمى على الصواب فلذلك افترقت مشورة العموم في مملكة له مع
اضطرام الفتنة وكان ذلك (في ١٧) شهر اشباط (سنة ١٧٠٢) من الميلاد
بعد مكث ثلاثة اشهر من الفتن والتردد وارباب المشورة الذين هم حكام
الاقاليم والاساقفة مكثوا في مدينة ورشاو حيث كانت المشورة مجتمعة
وتفرقت واما مشورة السنت المسماة سنت له اي مشورة له فكان لها الحق
ان ترتب قوانين وقتية عند الحاجة اليها ولو ان ابطلت مشورة العموم
هذه القوانين بل الغالب الاقرار عليها فلما كانت تلك المشورة قليلة الاهالي
متعودة على المصالح الميرية قلت فيها الفتن وحكمت في اقرب وقت بما استقر
عليه رأى اربابها

وذلك انهم حكموا بان يرسل الى ملك اسوج الاجي الذي يحصل اغراضه
في مشورة العموم وان الاشراف يركبون خيولهم ويتجهزون لما يقع ورتبوا
ايضا عدة قوانين سامة لتسكين الفتن في لتوانيا وعملوا ايضا قوانين تستلزم

اضعاف

اضعاف قوة ممالكهم وحكومته وان كان في هذا الوقت يخشى من كرلوس
الكثرته

فلما رأى ذلك اغسطوس استحسن ان يصطلح مع عدوه المنصور عليه ولو على
شروط صعبة لما رأى ان هذا اولى له من اخذه الشروط الصعبة قهرا عنه من
رعاياه فطلب الصلح من عدوه واراد ان يصنع معه شروطنامه سرا فاخفى عن
مشورة السنت المشى في الصلح حيث اعتقد ان اربابها هم اعظم اعدائه
وكان بينه وبين القونتيسة كونجسمرك محبة والفة وكانت اسوجية
الوطن شريفة النسب فالتجأ اليها في الصلح حيث ان امر الصلح بهذه الكيفية
لايمكنه ان يأتمن عليه الا من يثق به وهذه الاميرة مشهورة بما حصل لاخيها
من الموت الشنيع وكان ابنها رئيسا على الجيوش في فرانسا وقادهم على
وجه اكتسب به الظفر والافتخار وكانت مشهورة ايضا عند جميع الناس
بعقلها وجمالها فكانت في تدبير المصلحة اكثر استعدادا من اى وزير كان
ولاى الجي وايضا لما كان لها اموال واملاك في اقاليم كرلوس الثاني عشر وكانت
مكثت زمنا طويلا قبل ذلك في ديوانه تعللت بعلة ظاهرة في الذهاب الا انه
حتى لايظهر سر سفرها فذهبت حالا الى عرضى الاسوجيين في ليتوانيا
وتلاقت اولا مع الوزير بيبير فواعدها بان يقابلها بالملك من غير تأكيد وكانت
هذه الاميرة كاملة في المعارف فمن جملة الاشياء التي جعلت هذه الاميرة
من احسن اهالى اوروبا ولمال اليها قلوب الناس هو معرفتها الغريبة
بالتكلم بعدة لغات من لغات البلاد التى لم تسافر اليها ولم ترها وكان منطقها
في اللغات لطيفا جدا بحيث لايمكن لاحد ان يرى انها اجنبية بل كل انسان
يظن انها مولودة في بلد اللغة التى تتكلم بها بل ربما كان لها اشعار في اللغة
الفرنساوية بحيث يظن من اطلع عليها انها من اهل ورساى وانها من ديوان
الملك فقد نظمت في مدح كرلوس الثاني عشر اشعارا لاينبغى السكوت
عنها لارباب التواريخ وقد رمزت فيها الى الميثولوجية وجعلت ان جميع آلهة
اليونان تثنى على كرلوس الثاني عشر وتمدحه بغضا لله المختلفة وكل

موشح منها ينتهى بهذه الادوار التى معناها كل آله من الالهة يتحدث بمفاخره ويصدر اسمه فى صحائف دفاتره الا الزهرة وبخوس فلم يذكرا بشئ ومعنى ذلك انهاقد وصفته باستجماعه لسائر الخصال الجيدة وفوقانه فيها ومنافسته لاربابها الا العشق وشرب الخمر فلم يكونا من صفاته فلذلك اهمله قاضى الجمال فى دفتره كما جهل صاحب الحان وصف منظره ومخبره ولا يخفى ان هذا المعنى من الاقتراح العجيب والاختراع الغريب

ومع ذلك فعقل هذه الاميرة ولطائفها واوصافها لم تجد شيا عند كرلوس حيث ابى بالكلية ان يراها وان تمثل بين يديه فعزمت على ان تترقبه فى المنتزهات التى يتردد عليها راكبا على فرسه لتقابله فى هذا المحل وفعلت ذلك فقابلته ذات يوم فى طريق ضيق فنزلت من عربتها بمجرد ماوقع بصرها عليه فسلم عليها الملك من غير ان يتفوه بكلمة غير السلام ولوى زمام فرسه ورجع لوقته فلم ينفع سفر هذه الاميرة بشئ ولم تستفد منه الا سرورها بكونها ظنت ان ملك اسوج لا يخشى احدا غيرها وان لها عنده هيبة حيث لا يرضى مقابلتها خوفا من ان تلزمه بالصلح

فلزم لملك له ان يحتمى باهل المشورة ويرسل لهم حاكم برينبورغة يعرض عليهم عدة مشارطات احداها ان يسألهم ان يتركوا له التصرف فى جيش الجمهورية وان يدفع لهم من ماله قسطين عاجلا * والثانية ان يأذنوا له فى ان يرجع فى مملكته له اثنى عشر الف عسكرى سكسونى فاجابه الكردينال الاول بجواب صعب كامتناع كرلوس الثانى عشر فقال لذلك الرسول على لسان الجمعية ان المشورة عزمت ان ترسل لكرلوس الثانى عشر فى شأن ذلك وان نصيحتى لك ان لا ترجع السكسونيين

فاراد هذا الملك فى هذه الحالة الصعبة انه يحفظ لا اقل من صورة الحكم الملوكى فارسل احد حجابه الى كرلوس الثانى عشر لاجل ان يعرف منه فى اى محل يتلقى الجيبة ملك له والجيبة الجمهورية وعلى اى حالة يتلقاهم فمن سوء حظه نسى ان يطلب من الاسوجيين تذكرة المرور به لادهم لهذا الحاجب فحبس ملك

اسوج

اسرج الحاجب المذكور ولم يقابله قائلا له انى اتلقى الجية الجمهوريه ولا اتلقى شيأ من طرف الملك اغسطوس وهذا فيه هتك حرمة لحقوق الدول ولا يبيحه الاقانون الاقوى

فحينئذ المترك كرلوس خلفه محافظين على بعض مدن مملكة اشوانيا تقدم خلف غردنو وهى مدينة مشهورة فى اوربا بمشوراتها العمومية غيرانها ردية البناء والتحصين

وبالبعد بعض اميال من مدينة غردنو صادف الجية الجمهوريه وكانت مركبة من خمسة من رجال المشورة فارادوا اولا ان يحتفلوا للتشرف بقابلته بجميع احتفالات ما كان يعرفها اصلا وطلبوا منه تلقيب الجمهورية فى التكلم عنها بعلية الشأن وان تمشى امامهم عربات الملك ورجال مشورته فاجيبوا بان الجمهورية لا تلقب الا بالمنيرة وان الملك لا يستعمل العربات اصلا وانه ليس بمعيته رجال مشورة وانما معه كثير من الضباط فيرسل اليكم احد الامراء العظام وانتم تصلون على خيولكم الاصلية

فتلقاهم كرلوس الثانى عشر فى خيمته مع موكب عسكرى فكان كلامهم ممتلئا بالاحتراس وكان خفى المعنى فكان يظهر من حالهم انهم يخافون من كرلوس الثانى عشر وانهم لا يحبون ملكهم اغسطوس غير انهم كانوا خجلين من عزلهم له بامر ملك اجنبى لا سيما وان توليته كانت بانتخابهم فلم ينتج شئ من سفرتهم هذه وانما افهمهم كرلوس الثانى عشر بانه يبت الامر معهم فى مدينة ورشاو

وقبل ان يصل الى تلك المدينة سبقه اليها اعلام بمجيئه فنشره الكردينال وفرقته بمملكته فى مدة ثمانية ايام وكان كرلوس قد حث فى هذا الاعلام جميع اهل له على ان يضموا انتقامهم الى انتقامه وبرهن على ان مصلحته ومصلحتهم يؤلان بذلك الى شئ واحد ولكن الواقع خلافه وانهما متضادتان لا يجتمعان ولما كان هذا الاعلام محميا بفرقة عظيمة مع التعكير الحاصل للمشورة وقرب هذا المنصور اعنى كرلوس من هذه المدينة نشأ عنه تأثير عظيم فى القلوب

فاضطروا الى ان يرتضوا اكرلوس محاميا لهم ومدافعا عنهم حيث ان ذلك على طبق مراده وصاروا بذلك سعداء حيث قنع منهم بذلك اللقب

فعند ذلك اظهر رجال المشورة المعادون لاغسطوس هذا الاعلام على رؤس الاشهاد نصب عينيه والفوا حزبه اقلة عددهم ثم لما عرفوا ان كرلوس مجد السير للقدوم عليهم استعدوا جميعا للسفر مع الاختلال والاضطراب وكان اول من هاجر من مدينة ورشا والكردينال وبادر اغلبهم بالهروب فبعضهم قصد الذهاب الى اراضيه ينتظر انتهاء هذه الفتنة والبعض ذهب ليحرض جماعته على القيام والخروج فلم يبق مع الملك اغسطوس الا الجى الايمبراطور والجى قرال الموسقو ووكيل البابة وبعض اساقفة وحكام منقادين له فاضطروا الى الهروب ولم يتم الامر على شئ وانما بادر الملك قبل السفر بعقد مشورة مع هذا العدد القليل الذى هو كناية عما بقى له من مشورته ولو بلغ اهل له ملبلغوا من الصداقة لخدمته فقد كانوا محبين لوطنهم وكان عندهم كراهة شديدة لعسكر السكسونيين فلذا لم يأذنوا له ان يجلب اكثر من ستة آلاف من السكسونيين لحمايته نفسه واتفقوا جميعا على ان هذا العدد يكون تحت سر عسكره وبمجرد الصلح يرجعون الى اوطانهم واذنوا له فى التصرف فى عساكر الجمهورية كما يحب ويختار

فبعد هذه النتيجة هاجر الملك من مدينة ورشا ومع ضعف شوكته عن اعدائه وعدم مسرته من حزبه فاظهر امرا عموميا ليجمع به اعيان له والجيوش التى لم تكن الا اسماء وصورا غير نافعة ولم يكن يرجو شيأ من مملكة لثوانيا التى كان بها جيش الاسوجيين وتناقص جيش له حتى آل امره الى ارط صغيرة ليس عندها اسلحة ولا قوت مدخر ولا خلوص نية وفترت همة معظم الاشراف وضعفت شجاعته وقلت رغبته فى الحرب فمكث فى اراضيه وصارت اوامر هذا الملك المحكوم عليه بقوانين الدولة بقتل من لم يركب الخيل ويذهب معه الى القتال من هؤلاء الاشراف غير نافذة ولا مقبولة حتى لو اظهروا له الطاعة لما جزم بصدقهم ولم تكن له منفعة عظيمة الا فى جيوش بلده

المنقادين

المنقادين له الذين كان لا يخشى منهم عدم الطاعة لما انه كان مطلق التصرف
فى حكومتهم فارسل فى ذلك الوقت سرا الى السكسونيين يطلب منهم
اثنى عشر الفا ليجدوا فى المسير اليه واحتاج ايضا ان يجلب منهم ثمانية
الآلاف الذين كان قد وعدبهم ايمبراطور المانيا لحرابة فرانسا فلما دخل هذا
الجم الغفير من السكسونيين فى مملكته له نشأ عن ذلك خروج الناس عليه حيث
انه نقض العهد الذى عاهدته عليه فرقته من انه لا يجلب منهم الا ستة آلاف
لكنه كان معتمدا فى ذلك على انه اذا ظفر بعدوه لم تمكنهم الشكوى منه
واذا لم ينجح لم يسمعوا له ولا فى ستة الآلاف المذكورة و بينما كانت هذه
العساكر تأتيه فرقا فرقا و كان هو مشتغلا بالنقلة من اقليم الى آخر لجمع
الاشراف المتعلقين بخدمته اذ وصل ملك اسوج تجاه مدينة ورشاو فى خمسة
من شهر ايار سنة ١٧٠٢ فبمجرد امره بفتح الابواب فتحت له وطرد محافظيها
الذين كانوا من اهل له وخلى سبيل الخفراء الذين كانوا من اهل هذه المدينة
ورتب فى جميع المواضع قراقولات وامر السكان ان يأتواله و يسلموه اسلحتهم
لكن لما كان هذا الامر يغيظهم ويحزنهم تركه وان كان يسره ويشرح صدره
ولم يطلب منهم غرامة الامائة الف فرنك واما اغسطوس فجمع جيوشه
بمدينة قراقو وحصلت له دهشة حين رأى الكردينال قد اتاه فى هذه
المدينة وكان هذا الكردينال يرغب فى حفظ الهيبة والوقار لنفسه حيث
اراد ان يطرد ملكه باللطف من غير هرج ولا اساءة ادب فافهمه ان ملك اسوج
مستعد للصلح معه واستأذنه ان يذهب لمقابلة ملك اسوج ليجرى الصلح فاذن
له اغسطوس حيث لم يستطع ان يمنعه من ذلك وان كان عاقبة هذا الامر
تعود عليه بالضرر الشديد

فسار الكردينال لوقته بنظر ملك اسوج الذى لم يكن رآه قبل ذلك اصلا
فرآه فى مدينة براغا بقرب ورشا وغير انه لم يصنع له احتفالا وموكبا كما صنع
نظيره لاجنبية الجمهورية فوجد هذا الملك الفاتح لابسا كسوة من الجوخ
الغليظ الازرق ازرارها من النحاس المطلى بالذهب ومتنعلا بجزمة غليظة

وفى يديه كفوف من جلد الجاموس تضرب الى مرفقيه جالسا فى اوضة من غير فراش وبصحبته دوقة اوليستان والقونتة پيپر وكان اكبروزرائه وعدة جنرالات فتمشى الملك بعض خطوات لمقابلته هذا الكرد ينال ووقفا يتحدثان معا مقدار ربع ساعة فكان آخر كلام كرلوس ان قال باعلى صوته لا اصالح اهل له مالم ينتخبوا لهم ملكا آخر فلما سمع الكرد ينال هذا الكلام الموافق لرأيه اخبر به جميع حكام له واظهر لهم ان هذا الامر على غير مراده وانه يلزم اجراء ما اراده هذا الملك المنصور

فلما وصل هذا الخبر الى ملك له عزم على الحرب ولو افضى الى زوال كرسيه فافنى ما عنده فى هذه العزيمة الكبيرة التى بها يتم الامر له اوعليه وكانت جيوش السكسونيين قد وصلت اليه من حدود سكس واتته اعيان اقليم قراقو والذين كانوا يأتون اليه افواجا افواجا الاجل ان يعرضوا عليه اندراجهم فى سلك نظامه ويكونوا مدداله فكان يقوى بنفسه عزائم كل واحد من هؤلاء الاعيان بتذكيرهم المعاهدة السابقة فوعدوه بانهم لا يفرون عن القتال معه الى آخر قطرة من دمائهم فلما تقوى بمساعدتهم وباعانة الجيوش المسماة جيوش التاج ذهب بنفسه ليبحث عن ملك اسوج وكانت اول مرة سافر فيها بنفسه لذلك فوجده بأثر ذلك قد اقبل بنفسه جهة اقليم قراقو

وفى ثالث عشر شهر توز (سنة ١٧٠٢) تقابل الملكان فى سهل متسع بقرب فليسو بين ورشاو وقراقو وكان مع اغسطوس اربعة وعشرين الف مقاتل تقريبا ولم يكن مع كرلوس الا اثناعشر الفا فابتدؤا الحرب بارسال المدافع ففى اول رمية رماها السكسونيون اصيب دوقة اوليستان فى صلبه بضربة مدفع وكان رئيس الخيالة الاسوجية وشابا وافر الشجاعة تام كامل الفضيلة فسأل عنه الملك هل مات ام لا فقيل له انه قد مات فسكت ودموعه تنحدر وستر وجهه بيديه ثم كر بحصانه على حين غفلة واقتحم فى وسط الاعداء وهو قائد ورديانه

واما ملك له فلنه فعل جميع ما يلزم ان يفعله ملك يحامى عن تاجه فقاد بنفسه

ثلاث مرات جيوشه للحمل على الاعداء غير انه لم يقع منه قتال الا من معه من السكسونيين واما اهل له الذين كانوا ميمنة جيشه فهربوا جميعا من اول الواقعة بعضهم من الخوف وبعضهم من قلة رغبته في القتال ثم ان حزايا كرلوس الثاني عشر الفائقة اكسبته نصرة كاملة على عدوه فاغتنم عرضى الاعداء وبيارقهم ومدافعهم وخزنتهم العسكرية ولم يقف في ميدان الواقعة بل سار مستقيما الى مدينة قراقو متتبعا ملك له الهارب امامه اليها ٠

فتجاسر اهل مدينة قراقو واغلقوا ابوابها امام هذا المنصور فكسرها ولم يمكن للمحافظين ان يرموا بالمدافع رمية واحدة بل ضربهم بالسياط والعصى وطردهم الى القلعة ودخل فيها معهم فتجاسر ضابط من ضباط الطوبجية وتهيأ لضرب المدفع فلحقه كرلوس واخذ منه الفتيلة فخر امير البلد على ركب اللالا يقبلها واقام عند اهالى هذه البلدة ثلاثة الايات من الاسوجيين يفعلون ما بدا لهم وضرب هذا المنصور على المدينة غرامة مائة الف من العاملة المسماة ريسدالة (وهى قرنسكان ونصف) ولما بلغ قبوتنة احتنبولك الذى تولى حكومة هذه المدينة ان اهلها اخفوا الخزائن في قبور ملوك مملكة له التى بتلك المدينة في كنيسة مارى نقولا من فتحها فلم يجد فيها الا ما جعل لزينة الكاس من انواع الذهب والفضة فاخذ بعضها وارسل من ذلك كاسا من الذهب الى كنيسة من كنائس اسوج وهذا مما يهيج غضب جميع اهل له القاثوليقية على ملك اسوج ويحثهم على القيام عليه لو كان عندهم ما يقويهم على اسلحته

فخرج ملك اسوج من قراقو مصمما على ان يتتبع الملك اغسطوس من غير تراخ فلما بعد عن المدينة ببعض اميال وقع بفرسه فانكسر فخذه فرجعوا به الى قراقو فلازم الفراش مدة شهر ونصف بين ايدى الاطباء والجراحية وفى اثناء هذه المدة تجسس عن الملك اغسطوس ما كان يجده واشاع في الحال فى له وفى سائر بلاد الروسيا ان كرلوس قد مات من تلك الوقعة فاكسب هذا

الخبر الكاذب الذى وقع فى القلوب صدقه مدة قليلة جميع العقول التعجب والحيرة وفى هذه المدة القليلة جمع اغسطوس فى مرنبورغ ثم فى لوبلين جميع طوائف المملكة التى كانت مجموعة فى سندومير فصارت تلك الجمعية كبيرة جدا غيران بعض حكام الاقاليم امتنع ان يبعث اليها احدا من طرفه فاستمال اغسطوس اغلب الناس بالانعامات والمواعيد والبشاشة اللازمة للملوك الذين لهم التصرف المطلق ليصيروا محبوبين عند الناس وللملوك المنتخبين كى يدوم لهم منصبهم ولكن ستستيقظ هذه الجمعية من غفلة غلط هذا الخبر الكاذب الذى هو موت كرلوس وكانت هذه الجمعية قد شرعت فى تنجيز مقصودها فكان لابد لها من تتميم ذلك حيث اقسم جميع رؤسائها انهم يدومون على الامانة لملكهم اغسطوس فانظر ما اشد العقول قبولا للتغيير والتبديل والاختلاف حتى ان الكردينال اظهر انه لم يزل مرتبطا بالملك اغسطوس حيث ذهب الى جمعية لوبلين وقبل يد الملك ولم يمتنع ان يحلف كغيره بمعنى انه ماشرع ولا يشرع فى شىء يكون مخالفا لمرام اغسطوس فعافاه الملك من الحلف على الشق الاول من المحلوف عليه واقسم على الشق الاخير وهو انه لا يخونه فى المستقبل مع الخجل فنشأ عن هذه الجمعية ان الجمهورية تدفع من مالها مصاريف جيش مشتمل على خمسين الف رجل لخدمة ملكهم وامهل الاسوجيين ستة اسابيع ليظهر هل يريدون الحرب او الصلح وكذلك امهل امراء ساپيها المدة المذكورة وكانوا اول من اضرم نيران الفتن باقليم لتوانيا ليأتوا الاستسماحه وصفحه عنهم

فشفى كرلوس الثانى عشر من جرحه فى مدة هذه المشورة وصار يهدم كل شىء صادفه فى طريقه واستمر عازما على جبر اهله على عزل ملكهم بانفسهم فجمع بسبب دسائس الكردينال جمعية جديدة فى مدينة ورشا وليعارض بها الجمعية التى فى لوبلين فقال له جنرالاته ان هذا الامر يطول ولا يجدى نفعا ويكتسب فى مدته الموسقوبيون كل يوم الشجاعة على الجيوش التى تركتها فى لتوانيا وانغرنا وان الحروب التى تقع غالبا فى هذه الاقاليم بين الاسوجيين

والموسقوبين

والموسقوبيين ليس فيها نجاح للاسوجيين غالبا واخبروه ان من اللازم ان يحضر بهذه الاقاليم وحيث ان كرلوس كان من شأنه التصميم على تنجيز مقاصده ومشروعاته اجابهم بقوله لا ابرح عن هذا المحل الا بعد عزل ملك له ولو لزم الى اقيم فيه خمسين سنة

فترك كرلوس جمعية ورشاو تناقض وتناقش جمعية لوبلين بالمكاتبات والمجادلات بلسان القلم وتبحث عن طلب حقوقهما فى مدخليتها فى محل قوانين المملكة وكانت تلك القوانين مجملة فكانت كل فرقة تؤولها على وفق مرادها فبذلك كانت عند النجاح لا تنقض وضم الى جيوشه ستة آلاف من الخيالة وثمانية آلاف من المشاة التى اتته من اسوج وسار بهم الى بقايا جيش السكسونيين الذين كان هزمهم فى قليسوو كانوا فى مدة سقوط كرلوس من فوق حصانه ولزومه للفراش يشجع بعضهم بعضا ويجمعون عساكر ليزيد بها عددهم فتباعدت هذه البقايا عن الدنو من ملك اسوج وذهبت الى بلاد الضفة البة فى شمال مدينة ورشاو الغربى فكان نهر بوغ فاصلا بينه وبين هؤلاء الاعداء فاجتازه كرلوس مع خيالته سابحين فيه وذهب المشاة الى مخاضة وصلوا منها (وكان ذلك فى اول شهر ايار سنة ١٧٠٣) فوصلوا الى السكسونيين فى محل يسمى بلطسق وكان حاكمهم جنرالا يقال له اصطنو وكانت عدتهم عشرة آلاف ولعلة ملك اسوج فى سيره لم يأخذ معه جيوشا كافية لما انه كان يعرف ان العدد القليل يكفيه فى فزع الاعدآء من اسلحته فزعا عظيما حتى ان نصفهم هرب عند دنوه منهم من غير محاربة ولم يثبت امامه الجنرال اصطنو مع الاثنين الامدة قليلة ثم لما رأى ان جيشه تشتت وولى مدبرا قبل ظفر كرلوس بهم لم يجد بدا من الهروب فلم يبلغ عدد من اسره الاسوجيون منهم الف رجل ولا عدد القتلى ستمائة وكان تعبهم فى طردهم اعظم من تعبهم فى هزمهم .

ولما لم يكن مع الملك اغسطوس الا باقى السكسونيين المنهزمين فى سائر الجهات ذهب بسرعة الى طورنة وهى مدينة قديمة من مدن مملكة برسيا على نهر

وسطولة وهى تحت حماية اللاهيين فاراد كرلوس محاصرة هذه المدينة فلما
رأى اغسطوس انه لا يطمئن فيها ذهب الى مدن له التى يمكنه ان يجمع فيها
بعض عساكر ولم تدخلها اغارات الاسوجيين الى ذلك الوقت ولكن لما جد
كرلوس فى سيره تارة يسبح فى الانهار وتارة يجرى مع مشاته الراكبين على
مؤخر الخيل خلف الخيالة لم يمكنه ان يأتى بمدفع لمحاصرة هذه المدينه بل لزمه
ان ينتظر اتيان المدافع بحرا من اسوج
فعند ذلك نصب معسكره بالبعد عن تلك المدينة ببعض اميال وكان غالبا
يدنو من أسوارها ابرودها وكسوته الخالية من الزينة بالطراز ونحوه التى
كان يلبسها دائما كانت تنفعه فى مثل هذا المشى الخطر نفعا لا يخطر بباله
اصلا فكانت تمنع الاعدآء من معرفته حتى لا يخصوه بالرمى فتقدم ذات يوم
تقدما كثيرا وكان معه احد جنرالاته المسمى ليوان وكان على ذلك
الجنرال كسوة زرقا بشريط من الذهب فمن طيب نفس كرلوس وخوفه على
هذا الجنرال ان تفهمه الاعدآء امره ان يجلس ورآءه ولم يتفكر انه عرض
نفسه لخطر عظيم لينقذ احد الرعايا ولما عرف ليوان بعد فوات الوقت خطأه
فى كونه لبس كسوة تتطلع اليها الناس وتعرض من يكون معه للخطر وخاف
على الملك فى اى موضع كان تردد فى طاعة امره بالجلوس ورآءه ولا زال بينه
وبين الملك النزاع فى ذلك وفى اثناء المشاجرة اخذه الملك من يده واخره وتقدم
عليه وستره وفى الوقت والساعة خرجت رمية مدافع وجاءت بالانحراف
والمواربة فاصابت الجنرال ليوان فمات لوقته فى المحل الذى تركه فيه الملك
قبيل ذلك بلحيظه فموت هذا الجنرال الذى قتل عوضا عن الملك مع ان الملك
اراد ان يخلصه اعان كثيرا على كون الملك يزيد اعتقاده فى المذهب الذى
يعتقده من التسليم للقضاء بالكلية وظن الملك ان اجله الباقى مع مرور هذه
المصائب عليه لابد انه امر مقدر وان القدر اعده لفعل امور عظيمة
لابد من وقوعها
فكان كرلوس ينجح فى كل ما يشرع فيه وكانت تدبيراته واسلحته سعيدة

وكان

وكان كانه حاضر فى مملكته لان صارى عسكره الاعظم المسمى رانشيلد كان فى هذه المملكة مع فرقة عظيمة من الجيش وكان متفرقا فى شمال حدود الموسقو وفى شرقيها نحو ثلاثين الفا من الاسوجيين الذين تحت حكم جنرالاته المتنوعين فكانوا يقبضون على كل من مر عليهم من جنود قيصر الموسقو وكان كرلوس فى الغرب فى الجهة الاخرى من مملكته قائدا اعظم ارطه

ولما كان ملك داينمرقه متمسكا بعهد اتراونداال الذى منعه ضعف شوكته من نقضه التزم السكوت ولم يعارض فى شئ ولوفور عقله ورزانته لم يظهر الغم الحاصل له من رؤيته ملك اسوج بقرب اقاليمه ويوجد بعيدا عن هذه الاقاليم بين نهرى البة وويزر دوقية ابرعة ممتدة جهة الجنوب الغربى وهى اخر امتداد فتوحات الاسوجيين القديمة وهذه الدوقية الممتلئة بالمحافظين تفتح ايضا لهذا الفاتح ابواب مملكة سكس وبلاد المانيا ومن مبدء المحيط الجرمانى الى مصب نهر بروسطانه الذى هو عرض اوربا والى ابواب الموسقو كان جميعه فى الحيرة وانتظار تقلبات عامة وكانت سفن ملك اسوج التى ببحر بلطق معدة لنقل اسرى مملكة له الى بلده فكانت اسوج مدة هذه التقلبات فى غاية من الهدء والراحة متمتعة بفخار ملكها من غير ان تكون مكافئة بموجباته حيث ان مصاريف جيوشها المنصورة ولوازمها كانت من اموال المنهزمين

وفى مدة عدم معارضة ممالك الشمال لاسلحة كرلوس تجاسر اهل مدينة دنزيقة على امر يناقض مقصوده وذلك ان اسوج اعانته على تتميم محاصرة طورنة فامدته باربعة عشر زورقا واربعين سفينة من سفن النقل وفيها ستة آلاف رجل ومدافع وذخائر فلزم لهذا الامداد ان يمر بنهر وسطولة وكانت دنزيقة فى مصب هذا النهر وهى مدينة غنية حرة تتمتع مع طورنة والبنغة فى مملكته له بمزايا المدن الاعبراطورية فى المانيا غيران حريتها كان يعرض لها تقلبات وفتن من اغارات الداينمرقيين تارة والاسوجيين وبعض ملوك

الفلمنكيين تارة اخرى فكانت حريتها ناشئة من غيرة تلك الممالك من بعضها ووقوع الفتن بينها فلما وصل هذا الامداد الى تلك المدينة طلب القونتة استنبوك وكان جنرالا اسوجيا من حاكمها على لسان كرلوس ان يمر بما معه من العساكر والذخائر فحصل لهذا الحاكم دهشة على حسب العادة الجارية عند من يريد التداخل والتقرب لمن هو اقوى منه فلم يمكنه ان يمتنع من ذلك ولا ان يجيب بما يفيد الرضى فعند ذلك تقوى عليه الجنرال المذكور وطلب اكثر مما ساله فيه وهو ان يأخذ من المدينة غرامة مائة الف من النقود معاقبة له على امتناعه وآل امر العساكر و المدافع و الذخائر ان وصلت امام طورنة وشرعت في محاصرتها في الثاني والعشرين من شهر ايلول

فدافع عنها حاكمها المسمى روبل مع خمسة آلاف من المحافظين مدة شهر وبعد ذلك لم يجد بدا عن التسليم بالطوع والاختيار فاسر كرلوس المحافظين وارسلهم الى اسوج واما روبل فانه حضر عند الملك مجردا عن السلاح وكان الملك دائما يغتنم الفرصة في اظهار فضله عند اعدائه فاعطاه بيده سيفا واتحفه بهدية عظيمة من الفضة وخلى سبيله ومع كون هذه المدينة صغيرة فقيرة ضرب عليها كرلوس غرامة اربعين الف ريال نقدا فكانت هذه الغرامة شديدة الصعوبة عليها واما مدينة البنغة الموضوعة على فرع من نهر وسطولة التي اسمها الامير التوتونيون التابعة ايضا للمملكة له فانها لم تعتبر بما حصل لاهل مدينة دنزيقة حيث ترددت كثيرا في اعطاء عمر للاسوجيين فعوقبت باشد من عقوبة مدينة دنزيقة وذلك ان كرلوس دخلها في ثالث عشر شهر كانون الاول ومعه اربعة الاف رجل مادون حراب البنادق فحصل لاهلها فزع شديد فخروا جثيا على ركبهم وطلبوا ان يصفح عنهم وبرلف بهم فجردهم عن الاسلحة وامر العساكر بالاقامة معهم وبعد ذلك احضر القاضي وطلب في نفس يوم الدخول غرامة مائتين وستين الف ريال وكان في المدينة مائتا مدفع وما لا يحصى من البارود فاخذه وغنم من هذه المدينة شيأ كثيرا

لا يكاد يسبه

لايكتسبه في واقعة اخرى وهذا النجاح العظيم كان بشارة ودليلا على عزل اغسطوس

وذلك ان الكردينال بمجرد حلفه ان لايشرع في شيء يكدر على ملكه اغسطوس ذهب الى جمعية ورشاو متعللا بالصلح بين الملكين فوصل اليها وهو لا يتكلم الا بالصلح والطاعة لملكه وكان معه عساكر جمعها من اراضيه (وكان ذلك في ١٤ شهر اشباط سنة ١٧٠٤) فعند ذلك رفع برقع الحياء عن وجهه وقال على لسان الجمعية ان اغسطوس يليق ان يكون منتخب سكس ولا يستحق ان يلبس تاج مملكة له فاجابوا جميعا متفقين على رأى واحد ان الكرسي خال فاراد الملك كرلوس هو والجمعية ان يعطوا للامير جاكس سوبيسق كرسي ابيه يوحنا وكان جاكس المذكور في ذلك الوقت في مدينة برسلو باقليم سليزيا ينتظر مع القلق تاج ابيه فبينما هو في الصيد والقنص مع احد اخوته المسمى قنسطنطين بالبعد عن المدينة المذكورة ببعض فراسخ اذخرج عليهما من غابة قريبة منهما ثلاثون خيالا من السكسونيين بعثهم اغسطوس سرا فاحاطوا بهما واخذوهما فورا وصاروا يركبونهما خيولا متعددة لاجل سرعة السير حتى وصلا في اقرب زمن الى مدينة ليبسيق وحبسا فيها مع التشديد والتضييق فنشأ عن هذه الفعلة ان مادبره كرلوس والكردينال وجمعية ورشاو ذهب هباء من غير طائل

ولما كانت عادة الدهر في الغالب انه يلعب بالملوك جعل الملك اغسطوس في اقرب زمن مشرفا على ان يؤخذ وذلك انه بينما هو على مائدة بالبعد من قراقو بثلاثة فراسخ متكلا على مقدم خفره المعسكر في بعض الفراسخ اذ ظهر الجنرال رنسلد بعد ان اخذ هذا الخفر ولم يكن مع اغسطوس من الزمن الا بقدر ما يركب فيه فرسه وكان قد هرب قبله عشرة رجال فركب الفرس لهرب وراءهم فتبعه الجنرال المذكور مدة اربعة ايام وهو مشرف على القبض عليه في كل وقت فدخل الملك مدينة سندوميرفتبعه الجنرال ولم يخلص هذا الملك الا باسباب غريبة

وكانت فرقة الملك اغسطوس تلقب بطائفة الكردينال بخيانة الوطن كما ان تلك الطائفة كانت تلقبها بذلك ايضا فقسم جيش التاج بين الفريقين ولما اضطر اغسطوس بعد ذلك الى طلب الاعانة من الموسقو بين ندم على عدم ذهابه لها اولا لطلب الاعانة منها بدلا عن ذهابه تارة الى سكس التى فقدت بها امواله وتارة الى مملكته التى لم تنفعه بل كان ملك اسوج المنصور هو الحاكم فى الحقيقة على مملكته

ولما كان عند قونتة بفبير سياسة كما كان عند ملكه كرلوس عظم عرض حينئذ على ملكه المذكور ان يستولى على تاج مملكة لهب نفسه ولا يعطيه لاحد وان اجراء ذلك بجيشه المنصور سهل جدا خصوصا وفى مملكة له حزب ذو قوة مطيع له قبل الاستيلاء وصار يرغبه فى هذا الامر بانه بذلك يصير ناصرا للدين الانجيلى لان هذا اللقب كان يعجب كرلوس ويسربه فقال الملك كان الاسهل ان نعمل فى مملكة له ما عمله غسطاوة وازى فى مملكة اسوج وهو أن نرتب فيها الدين اللوثريانى ونبطل استرقاق الاشراف والقسوس للاهالى فاغتر كرلوس بذلك وخطر له ان يفعل ولكن لم يمكث هذا الخاطر فى باله لانه كان متولعا بحب الفخر فكان يفوت جميع مصالحه ويذهبها فى تحصيل ما يفتخر به حتى ان حظ اخذ مملكة له من بابة رومة وان كان يحصل له به سرور الا انه كان يقدم الفخر على حاجة نفسه فقد قال لقونتة بفبير انى احب اعطاء الممالك اكثر من اخذها وقال ضاحكا انك تصلح لان تكون وزير اعند ملك ايطاليانى يقبل منك هذه النصائح العائدة عليه بالمصالح

وكان كرلوس حينئذ بقرب مدينة طورنة وهى جزء من بروسيا الملوكية التى تنتسب الى مملكة له وكان دائما مشغولا بتدبير الاشياء التى تقع فى ورشاو وكان يضبط الممالك المجاورة له اتم الضبط حتى لا يقوم احد منها عليه فذهب اليه اسكندر وهو اخو الاسيرين اللذين اخذا من اقليم سليزيا ليطلب منه الانتقام من ملك له فوعده كرلوس بذلك لظنه انه سهل خصوصا وقد كان

عاز ماعليه من قبل ولكن لمالم يكن عنده تؤدة وصبر على ان يولى ملكا على مملكته عرض على الاميراسكندر ان يجلس على سرير الملك الذى أبعد الدهر عنه اخاه جاكس سو بيبقى معتقدا انه لا يأبى ذلك فقال له الامير المذكور لاشئ يجبرنى على ان استفيد لنفسى فائدة من مصيبة اخى الاكبر فصار ملك اسوج وقونتة بيبير واحباب هذا الامير لاسيما الشاب حاكم بلتانة بسنانيا واستانسلاس لكزنقى يلحون عليه فى قبول التاج فصمم على الامتناع فبلغ ذلك الملوك المجاورين لذلك المحل فتعجبوا غاية العجب من هذا الامتناع الذى لم يسمع بمثله اصلا ولم يعرفوا من الشخصين من هو اولى بمدحهم اكثر من الآخر اهو ملك اسوج حيث سمحت نفسه باعطا تاج مملكة له لغيره مع انه لم يبلغ من السن حينئذ الا اثنتين وعشرين سنة ام الامير اسكندر الذى امتنع من اخذه

المقالة الثالثة

فى الكلام على انتخاب استانسلاس لكزنقى ملكا على له وموت الكرد ينال الاول وخلوص الجنرال شولمبورغ من اعدائه بكيفية عظيمة وغزوات قيصر الموسقو وتأسيس مدينة بترسبورغ وواقعة فروانستاذ ودخول كرلوس فى مملكة سكس وصلح الترتنستاد وتنازل اغسطوس عن التاج وتسليمه اياه الى استانسلاس وتقطيع الجنرال بطقول وكيل قيصر الموسقو وتلقى كرلوس فى مملكة سكس رسل جميع الملوك وذهابه الى مدينة درسدة لينظر قبل سفره الملك اغسطوس

كان استانسلاس فى جمعية ورشاو موكلا باخبار ملك اسوج بالمشاجرات التى حدثت بعد زمن اسر الامير جاكس وكانت تباشير السعادة تلوح على وجه استانسلاس وكان يترائى منه الجسارة التامة ولين الجانب مع الصلاح وخلوص الطوية الذى هو اعظم من المحاسن الظاهرة كلها حيث انه يزين الكلام بحلية العظم اكثر من زينته بحلية الفصاحة وقد ادهش عقل كرلوس بحكمته التى تكلم بها معه فى شأن الملك اغسطوس والجمعية والكرد ينال الاول والمصالح المختلفة التى كانت منشأ الفتن فى مملكة له

وقد سرني الملك استانسلاس بما حكاه لي من قوله لملك اسوج باللسان اللاطيني كيف يمكننا الانتخاب مع ان الاميرين جاكس سوبيسقي وقنسطنطين ماسوران فاجابه كرلوس كيف تخلص الجمهورية اذا لم ننتخب فكانت هذه المخاطبة بمفردها سببا في استيلاء استانسلاس على سرير الملك وقد اطال الملك كرلوس المخاطبة معه قصد اليقف على كنه قريحة هذا الشاب الوكيل وبعد انقضاء المجلس قال كرلوس باعلا صوته اني لم اجد رجلا يليق للصلح بين الخصمين اعظم منه وسال فورا عن طبيعة هذا الوكيل لكزنقي فاخبر بانه ذو شهامة متعود على الكد والتعب وانه كان دائما ينام على فراش محشو بالتبن ولا يطلب من خدمه اصلا خدمة لذاته وقل ان وجد له نظير في هذا القطر وكان لا يحب التبذير وكان اتباعه يحبونه حبا شديدا ويمكن ان يقال انه بمفرده هو الذي كان له في مملكته اصحاب اصدقا في زمن كان الانسان لا يخالط فيه غيره الا لمصلحة نفسه او للتعصب والتحزب فلما وجد كرلوس طبيعة هذا الشاب ملايمة لطبيعته في بعض الخصال صمم على تنفيذ غرضه فقال باعلى صوته بعد المخاطبة السابقة قد وجدت رجلا يصير صديقي دائما فهموا حالا ان معنى هذه الكلمات ههنا رجل يصير ملكا

ولما عرف الكردينال ان كرلوس عزم على تولية لكزنقي مثل تولية اسكندر لعبد الغليم ذهب الى الملك بسرعة ليسعى في تغيير هذا العزم لانه كان يريد اعطاء التاج لرجل لوبومرقي فقال له الملك ما الذي بينك وبين استانسلاس فقال له الكردينال يا ملك الزمان انه صغير جدا فقال له الملك مع العنف والانفة ان سنه تقريبا كسني وادار ظهره جهة الكردينال وارسل فورا القونتة المسمى اورن لجمعية ورشاو يخبرهم انه يلزم انتخاب ملك في ظرف خمسة ايام وان هذا الملك يكون استانسلاس لكزنقي فوصل هذا القونتة لسبع مضين من شهر تاموز وعين للانتخاب اليوم الثاني عشر من هذا الشهر فكان ذلك الامر سهلا جدا يشبه امر الملك بارتحال عرضي من معسكره مثلا في مثل هذه المدة فلما خاب امل الكردينال حيث لم تحصل له فائدة من دسائسه الكثيرة

رجع

رجع الى الجمعية واضرم فيها نيران الفتن لاجل ابطال هذا الانتخاب لانه لا منفعة له فيه فاتى كرلوس الى ورشا ومختفيا فلما علم الكردينال بمجيئه التزم السكوت وبذل جهده في عدم الحضور وقت الانتخاب والتزم انه لا يكون مع احد من الخصمين حيث لم تمكنه معارضة هذا الملك المنصور ولم يرد اعانته ففي يوم السبت ثاني عشر شهر تاموز (سنة ١٧٠٤) الذي عين للانتخاب اجتمعوا بعد الظهر بثلاث ساعات في خلا معد لذلك يقال له كولو وحضر معهم اسقف بسنانيا عوضا عن الكردينال الاول ومعه اعيان فرقته وكذلك القونت اورن مع الجيين من جماعة كرلوس كانا مبعوثين للجمهور بهذه مكثت الجمعية الى تسع ساعات من الليل ثم تم الامر اسقف بسنانيا قائلا على لسان الجمعية قد اخترنا استانسلاس ملكا على له فعند ذلك رموا قلنسواتهم في الهوا وكانت هذه العادة علامة على الرضى وانقطعت منازعة المعارضين بغوغا الفرح وصياح السرور

فكانت غيبة الكردينال ومن حذا حذوه عن مجلس الانتخاب غير مفيدة بل اضطروا في اليوم الثاني الى ذهابهم جميعا لمبايعة هذا الملك الجديد وحصل لهم غاية الذل حيث جبروا على مشيهم خلفه الى عرضي ملك اسوج فعند وصوله اليه حظي منه بالتشريفات اللازمة لملك بولونيا وعين له كرلوس جيوشا وامو الا تقوية لرتبته الجديدة وتثبيتا لها

وعقب ذلك سافر كرلوس من ورشا لتتميم فتح له وتواعد مع جيشه ان يتلاقيا امام مدينة ليوبولدة وهي تخت عظيم من تعلقات الروسيا وهي في نفسها مدينة عظيمة وازداد عظمها بالاموال التي كانت تدخلها بكثرة وكان يظن انها تقاوم العدو خمسة عشر يوما لما فيها من التحصينات التي حصنها بها الملك اغسطوس فاحاط بها هذا الفاتح في خامس شهر ايلول واغار عليها في سادسه على حين غفلة فكان كل من تجاسر على رفع السلاح في وجهه قتل حالا ومع انه كثر اللغط بان هذه المدينة محتوية على خزائن جسيمة لم يتعرض اليها جيوش كرلوس بل اشتغلوا بقتال اعدائهم في ميدان الحرب

فاسروا من بقي من محافظيها وامر الملك ان ينادي بصوت البوق ان من كان عنده من اهالي هذه المدينة شيء للملك اغسطوس او لعماله فعليه ان يأتيني به قبل انقضاء هذا اليوم والا قتلته فامتثلوا امره الا قليلا منهم واتوا اليه بار بعمائة صندوق من نقود الذهب والفضة ومن النحاس والاشياء النفيسة

وفي مبدء حكم استانسلاس حصلت واقعة غريبة وذلك انه اضطر ان يقيم في مدينة ورشاو لبعض مصالح تقتضي اقامته وكان معه امه وبنتاه وكان ارباب دوانه الجديد هم الكردينال الاول واسقف بسنانيا وبعض اعيان مملكة له وكانت عدة خفر دوانه ستة آلاف لاهي من جيش التاج الذين دخلوا تحت طاعته عن قريب ولم تتحقق اماناتهم ولم يكن مع حاكم تلك المدينة الذي هو الجنرال اورن الا الف وخمسمائة اسوجي فكانوا جميعا في ورشاو مع الهدء التام فاراد استانسلاس ان يذهب منها الى تتميم فتح ليوبولدة فبلغه على حين غفلة انه دنا من المدينة جيش كبير مع الملك اغسطوس وذلك انه بذل جهده وسلك في سيره الى عدوه مسالك الحيلة التي لم يسبق نظيرها من جنرال اصلا فغش بذلك ملك اسوج واتى بعشرين الف ليهجم على ورشاو ويختطف منها خصمه

ولم تكن ورشاو محصنة وكانت حمايتها موكولة الى جيوش لاهية لم تعلم اماناتهم وكان لاغسطوس بها خبرة بحيث لو مكث فيها استانسلاس لهلك ولكنه ارسل عائلته في بسنانيا تحت رعاية خفر الجيوش اللاهية الذين كان يأتمنهم غير انه لم يجد بنته الصغيرة التي كان عمرها سنة لكونها ضلت عن حاضنتها فظن انها هلكت في هذا الفشل والهرج ثم بحث عنها فوجدها في اصطبل بقرية مجاورة للمدينة كما ذكرته لي نفس هذه البنت التي بعد تقلبات عظيمة صارت ملكة على فرانسا واما اعيان المدينة فتشتت اكثرهم في الطرق المختلفة واما استانسلاس فانه سافر الى كرلوس وتعلم من ذلك الوقت التجلد على المصائب الشديدة فاضطر الى ترك سرير ملكه ستة اسابيع بعد انتخابه ملكا عليه

فدخل اغسطوس في المدينة كانه حاكم مغتاظا انتصر على عدوه وكان الاهالي في ذلك الوقت قد سلب اموالها ملك اسوج فتمم سلبها اغسطوس وصار قصر الكردينال وجميع بيوت الامرآء المتعاهدين معه وسائر اموالهم التي في المدينة والخلاء غنيمة لسلب اغسطوس ومما يستغرب في هذه الفتنة ان وكيل البابا الذي اتى مع اغسطوس طلب على لسان البابا ان يأخذ اسقف بسنانيا الذي كان تابعا لديوان رومة حيث تحزب مع ملك تغلب على سرير الملك باسلحة ملك لوثرياني٠

واما ديوان رومة الذي كان يتفكر دائما في ازدياد قوته المتعلقة بالحكومة مستعينا في اكتساب ذلك بقوة الرياسة على الدين القانوليقي٠ فقد كان رتب منذ زمن طويل في بلاد له مشورة قسيسية ذات حل وعقد رئيسها وكيل البابا في بلاده فكان كل وكيل للبابا بهذه المملكة ينتهز الفرصة في توسيع شوكة البابا بالمملكة وكان هذا يوافق مزاج رعاع الناس ولا يوافق مزاج عقلائهم فكانوا ينازعون في ذلك فكان وكلاء البابا يزعمون ان لهم الحق في قضاء جميع الامور الشرعية القسيسية بل في اوقات الفتن وقيام الاهالي على ملوكهم تغلب الوكلاء على خصائص وحقوق كثيرة غير ذلك تمكنوا منها الى نحو (سنة ١٧٢٨) ومن هذه السنة سلبت منهم هذه الخصائص والمزايا بعد ان اشتدت وصارت لا يطيقها احد ولولا ذلك لبقيت

ولما كان اغسطوس مسرورا جدا بمعاقبة اسقف بسنانيا وتأديبه حيث ان ذلك يسر ديوان رومة الذي سيصير عدوه في زمن آخر سلم في الاسقف اللاهي لوكيل البابا فبعد ان نهب بيته بحضرته وصلته العساكر الى هذا الوكيل الطلياني٠ فارسله الى سكس حتى مات بها واما القونتة اورن فانه حوصر في حصن وصار الاعداء يرمونه بالنار ولما كان هذا الحصن غير متين سلم نفسه للاعداء وكذلك من كان معه من الاسوجيين وكانوا الفا وخمسمائة فكان هذا اول فائدة استفادها اغسطوس في مدة سوء حظه ونجح فيها على اسلحة عدوه المنصور

ولكن بذل جهده هذا الليس الا كلهيب نار خمدت عاجلا وذلك لان جيوشه
الذين جمعهم بالسرعة كانوا من اللاهيين المصممين على تركه عند اول مصيبة
تحل به ومن السكسونيين الذين لا معرفة لهم بالقتال لكونهم لم يروا الى ذالك
الوقت حربا اصلا ومن همج القوزاقيين الذين كانوا يهتمون بسلب المنهزمين
اكثر من اهتمامهم بغلب اعدائهم وكل هؤلاء المذكورين كانوا ينزعجون من
سماعهم اسم ملك اسوج

واما ملك اسوج المنصور فانه ذهب ومعه الملك استانسلاس ليبحث عن
عدوه قائدا جيوشه المنتخبة فكان الجيش السكسوني يهرب امامه
في جميع المحال وكان اهل المدن يرسلون له مفاتيحها قبل ان يصل اليها
بثلاثين ميلا فكان لا يمضى عليه يوم الا ويكتسب فيه فائدة وكان النجاح
ملازما وحليفا له حتى انه كان يقول الذهاب الى الصيد اولى من الذهاب
الى الحرب وكان يتشكى من كونه لم يبذل في النصرة ثمنا

واما اغسطوس فانه جعل جيشه مدة زمن تحت قيادة شولمبورغ وكان
جنرالا ماهرا جدا وكان اغسطوس قد احتاج الى خبرة هذا الجنرال لما ان
جيشه كان فاتر الهمة فرأى هذا الجنرال ان حفظ جيش سيده اولى له من
طلبه للنصرة فكان قتاله بالتدبير والتؤدة بخلاف هذين الملكين فكانا
يسارعان الى الحرب ويبادران اليه اتم المبادرة وكان يسير في مواضع خفية
وكان يمر بالمسالك النافعة وكان يفدى مشاة جيشه بالخيالة حيث كان
يأمرهم بالتأخر ليتقدم المشاة ويبعدوا عن العدو فحصل له الفخر بكونه انقذ
جيوشه بالانصراف امام عدو لا يظفر منه الا بمثل هذا الفخر

وبمجرد ما وصل الى اقليم بسنانيا بلغه ان الملكين اللذين كان يظن ان بينه
وبينهما خمسين فرسخا سارا تلك المسافة في تسعة ايام ولم يكن معه الا ثمانية
آلاف من المشاة والف من الخيالة فلزمه ان يثبت امام جيشهما الكبير وامام
ملك اسوج الذى كان يخافه السكسونيون بالطبع لكونه هزمهم غير مرة
وكان شولمبورغ لا يسمع نصائح الجنرالات النمساويين بل كان يزعم ان مشاة

جيشه

جيشه يقاومون خيالة الاعداء فى وسط الخلاء من غير احتياج الى متاريس
تجاسر على ان يجرب ذلك مع الخيالة المنصورين الذين هم تحت قيادة
الملكين واعظم الجنرالات الاسوجية فعسكر بجيشه فى معسكر لا يقدر العدو
ان يحيط به وكان اول صفوفه جاثيا على الركب متسلحا بالحرب والبنادق
متلاصقا تجاه خيل الاعداء كانه سور مغروز فيه حرب وبنادق والصف
الثانى كان منحنيا قليلا على اكتاف الصف الاول ويضرب بالنار
من فوق اكتافهم على الاعداء والصف الثالث كان يرمى بالنار من خلف
الصفين فهجم الاسوجيون مع القساوة التى تعودوا عليها على السكسونيين
فثبتوا امامهم من غير خوف ولا انزعاج فنفرت خيول الاسوجيين من ضرب
البنادق والحرب فعوضا عن ان تتقدم رجعت على اعقابها فكان
هجوم الاسوجيين عليهم خاليا عن الانتظام ودافع السكسونيون عن انفسهم
وحافظوا على صفوفهم

ثم رتب شولمبورغ عساكره المشاة على هيئة مربع مستطيل ومع انه اصيب
بخمس جراحات ذهب فى نصف الليل مع عدم اختلال هذا الترتيب الى مدينة
غورو الصغيرة التى بينها وبين محل الواقعة ثلاثة فراسخ فبينما هو آخذ
فى الاستراحة بهذا المحل واذا بالملكين قد ظهرا خلفه

وكان خلف هذه المدينة جهة نهر اودير غابة كثيفة انقذ بها هذا الجنرال
السكسونى مشاته الذين لحقهم التعب الشديد فتبعهم الاسوجيون من
غير سآمة فى هذه الغابة وكانت طرقها صعبة السلوك حتى على المشاة
فخرج السكسونيون من هذه الغابة قبل خيالة الاسوجيين بخمس ساعات
ووجد فى مخرج هذه الغابة نهر يقال له برطس وهو بجانب قرية تسمى
ربطسان فارسل شولمبورغ بالسرعة يجمع الزوارق ليجتاز بها هذا النهر
فاجتازه مع عساكره الذين قد هلك نصفهم فى ذلك الوقت فوصل كرلوس
الى النهر حين وصل شولمبورغ الى شاطئه الآخر ولم يشاهد الى الآن ملك
مثل هذا المنصور تبع عدوه بمثل هذه الحدة والحمية الشديدة وكانت شهرة

شولمبورغ متوقفة على نجاته بالهروب من ملك اسوج بخلاف الملك فكان يعتقد ان فخره مقصور على القبض على شولمبورغ وجيشه فلم يطيع الفرصة بل امر الخيالة ان يخوضوا النهر فانحصر السكسونيون بين هذا النهر الذي هو نهر برطس ونهر اودير الاكبر الذي ينبع من سيليزيا وكانت مياهه في ذلك الوقت غزيرة سريعة التيار في هذا المحل

فظهر انه لا محيص من هلاك شولمبورغ ولكنه بعد ما فقد بعضا من عساكره الباقين اجتاز نهر اودير ليلا وانقذ جيشه بهذه الطريقة فلم يستطع كرلوس ان يمنع نفسه من ان يقول قد غلبنا شولمبورغ في هذا اليوم

وبعد ذلك صار شولمبورغ جنرال البنادقيين ولماجي سور ايطاليا من الترك نصب له الجمهورية صنما في مدينة كرفو تشريفا له ولم يكن يفعل مثل هذه التشريفات الا الجمهوريات واما الملوك فكانوا يكافئون على ذلك بالهدايا ونحوها لا غير

ولكن ما كان سببا في فخر شولمبورغ كان قليل الجدوى للملك اغسطوس حيث جبر مرة ثانية على ترك مملكته لاعدائه وذهب الى سكس ورمم بالسرعة حصون درسدة خوفا على كرسي ممالكه الموروثة له وكان الحق معه في ذلك

فوجد كرلوس مملكته مطيعة له واقتدى به جنرالاته حيث هزموا في مدينة كرلنده عدة سرايا من الموسقوبيين الذين كانوا لا يظهرون منذ واقعة نروى الا فرقا فرقا وكان قتالهم في هذه الحروب التي وقعت بينهم وبين الجنرالات يشبه قتال همج التتار الذين يخطفون ويهربون ثم يظهرون ليهربوا ثانيا وكان الاسوجيون يعتقدون انهم يظفرون باعدائهم في اي واقعة كانت ولو كان عددهم عشرين في مقابلة مائة من اعدائهم فاستعد استانسلاس للبس التاج في اثناء هذه الاحوال السعيدة وسمح له الدهر بذلك بعد ان ساعده عليه في مدينة ورشاو وغدر به وذلك بطلب الاعيان الذين اتحد وابه لنجاح اسلحته فاجتمعت لذلك جمعية بتلك المدينة وزالت الموانع ما عدا ديوان رومة

فانه كان يعارض فى ذلك

وذلك ان هذا الديوان كان مع اغسطوس لكونه ترك الدين البروتستانى وتدين بالدين القاثوليقى ليجلس على سرير الملك الذى تغلب عليه استانسلاس واجلسه عليه كرلوس الذى هو اكبر اعداء هذا الدين فارسل فى ذلك الوقت بابه رومة المسمى كليمان الحادى عشر اوامر لجميع بطارقة مملكة له لاسيما الكردينال الاول يهددهم فيها بالحرمان و الكفر اذا هم حضروا لبس استانسلاس للتاج او تجاسروا على شئ من حقوق اغسطوس

ولو وصلت هذه الاوامر الى البطارقة الذين كانوا فى ورشاو لكان ربما يخشى من ذلك ان بعضهم يعمل بموجبها ويطيع واغلبهم وان كان لا يطيعها الا انه يغتنم الفرصة فى كونه يتعالى فى اغراض استانسلاس اذا احتاج الامر الى رأى ذلك الاغلب فاحتيط لمنع هذه الاوامر ان تتلقى فى ورشاو ولكن تلقاها فى السر راهب ليسلمها بالامانة للبطارقة فاعطى منها اولا مكتوبا لبطرق يسمى قلمة وكان بين هذا البطرق وبين استانسلاس ارتباط اكيد فاخذ المكتوب واتى به الى الملك مختوما فامر الملك باحضار الراهب وسأله كيف تجاسرت على مثل هذا الفعل فاجابه الراهب بان هذا بامر رئيسى فقال له استانسلاس ان امتثالك من الآن فصاعدا الاوامر ملكك اولى من امتثالك لاوامر رئيس الرهبان واخرجه من المدينة لوقته

وفى هذا اليوم اظهر ملك اسوج كتابة وامر بوضعها فى الطرق ومضمونها ان كهنة البطارقة الساكنين فى ورشا ولا دخل لهم فى مصالح الدولة ومن خالف ذلك منهم عوقب اشد العقاب ولاجل تمام الاطمئنان فى هذا الشأن وضع خفرا على ابواب جميع البطارقة وامر ان لا يدخل احد من الغربا فى المدينة وانما شدد هذه التشديدات لئلا يعكر البطارقة على استانسلاس فى حكمه وكان يقول انى لا استريح من تعب الحرب الا بتوقيف دسائس الديوان الرومانى بمحاربته بالمكاتبة بخلاف الملوك الاخرين فانى احتاج فى الحرب معهم الى الاسلحة الحقيقية

ثم ان كرلوس واستانسلاس طلبا الكردينال الاول ليحضر محفل تتويج
استانسلاس وتصبيه فاعتقد هذا الكردينال انه لا ينبغى له ان يرتحل
من دنزيقة ليحضر تتويج ملك لم يرد انتخابه لذلك ولكن لما كانت سياسته
انه لا يقدم على فعل شئ من غير علة ولا سبب مهد اعتذارا بينا لامتناعه من
الذهاب فوضع على باب بيته ليلا امر البابة فاغتاظ حاكم دنزيقة من ذلك
الامر وامر بالبحث عن فاعله فلم يقف عليه واظهر الكردينال ايضا انه
مغتاظ والواقع خلافه لان ذلك كان علة له فى عدم حضوره تتويج الملك
الجديد فكان فى تلك الفعلة ارضا لكرلوس واغسطوس واستانسلاس والبابة
رومة ثم مات بعد ذلك بايام قلائل وترك بلدته فى الهرج والفشل من غير ان
يكتسب من دسائسه شيأ سوى مخاصمته وبغضه عند هؤلاء الملوك الثلاثة
وهم كرلوس واغسطوس واستانسلاس وعند جمهوريته وعند البابة حيث
امتنع من الذهاب اليه حين طلبه الى رومة ليخبره بسلوكه غير انه عند
موته كتب للملك اغسطوس ليصفح عنه فيما وقع منه فى حقه كما هو عادة
ارباب السياسة من انهم اذا احتضروا وحصل لهم فى بعض الاوقات شغل بال
وتحير فيما وقع منهم

(وفى اليوم الرابع من شهر تشرين الاول سنة ١٧٠٥) حصل تتويج
استانسلاس وتصبيه مع الهدء التام بمحفل فى مدينة ورشا ومع ان العادة
التى كانت جارية فى مملكة له ان يتوج الملك فى مدينة قراقو فتتوج استانسلاس
أنكزنقى وزوجته المسماة كرلوتة اوباليتقة ملكين على له والذى باشر تتويجهما
مطران ليو بلدة بحضور جمع كثير من الاساقفة وحضر ايضا كرلوس الثانى
عشر خفية هذا التتويج الذى هو بمفرده ثمرة فتوحاته

فبينما كرلوس يولى ملكا على مملكة له التى انقادت له من غير ان يقدر ملك دانيمرقة
على التعكير عليه وكان ملك البروسيا يبحث عن محبته ومخالطته وذهب الملك
اغسطوس الى ممالكه الوراثية اذ صار قيصر الروسيا بالتدريج مهيبا مهولا
على الممالك فهو وان اعان اغسطوس فى مملكة له اعانة هينة لكنه صدرت

منه

مذبحة عظيمة في انغريا

وذلك ان هذا القيصر لم يكتف بتعلمه فن الحرب حتى صار فيه من عظماء المقاتلين بل علمه لرعاياه الموسقوبيين فصارت جيوشه منتظمة بالضبط والربط وصار عنده عظماء المهندسين ومهرة الطوبجيين وكثرت عنده الضباط العظام وكان له معرفة جيدة بجمع العساكر وتكثيرها وتعلم بعض جنرالاته ان يحاربن العدو على وجه مستحسن وانه اذا اقتضى الحال عدم الحرب امسك عنه وقد جدد هذا القيصر زيادة على ذلك في بحر بلطق عمارة سفن تضاهي سفن الاسوجيين فلما تقوى بتلك الثمرات التي ابتدعتها جودة قريحته في غيبة ملك اسوج اغار (في اليوم الحادي والعشرين من شهر اغسطوس سنة ١٧٠٤) على مدينة نروة على حين غفلة بعد ان حاصرها محاصرة عظيمة ومنع ان يأتيها من البر والبحر امدادات واسعافات للممانعة عنها فبمجرد استيلائه عليها اشتغل عساكره بالسلب والنهب وانهمكوا على الاشياء القبيحة فصار هذا القيصر يطوف جميع جهاتها ليمنع هذا الخلل وسفك الدماء فكان يأخذ بنفسه النساء من ايدي العساكر الذين ارادوا ذبحهن بعد ان فعلوا الفاحشة بهن حتى الجأته الضرورة ان قتل بيده بعض الموسقوبيين الذين لم يمتثلوا امره والى الآن ينظر في دار وسية نروة اللوح الذي وضع عليه سيفه حين دخوله فيها ويتذكر الناس مخاطبته لاهاليها المجتمعين بتلك الدار من قوله لهم ان هذا السيف ليس مصبوغا بدم الاهالي بل بدم الموسقوبيين الذي سفكته لحفظ حياتكم

ولو استمر قيصر الموسقوبيين على هذه المروءة لصار اعظم الناس قدرا ولما كان يرغب في تعمير المدن اكثر من رغبته في تخريبها اسس في اثناء فتوحاته الجديدة بالبعد عن نروة بمسافة قليلة مدينة بترسبورغ وجعلها في ذلك الوقت دار اقامته ومركز تجارته وكانت موضوعة بين فنلندة وانغريا في جزيرة سبخة يتقسم حولها نهر نوا الى عدة فروع قبل صبه في خليج فنلندة وكان هذا القيصر هو الذي باشر بنفسه تخطيط هذه المدينة وقلعتها وميناها

وارصفتها المزينة لها وحصونها التى تمنع العدو من دخولها وكانت هذه الجزيرة قبل ذلك خربة لا يزدرع بها شئ فلم تكن فى مدة الصيف القصيرة بهذه الاقطار الا تلالا من التراب وفى مدة الشتاء الطويلة الا محلا للجليد وكان لا يدرك الوصول الى تلك الجزيرة الا بواسطة غابات خالية عن المسالك وغدران صغيرة غزيرة المياه وكانت قبل بنائها ماوى للذئب والدب فصارت الآن معمورة بالطوائف التى جمعها قيصر الموسقو من ممالكه وكانوا اكثر من ثلثمائة الف وكان ذلك فى سنة ١٧٠٣ وذلك ان ارباب الفلاحة بمملكة استراخان وكذلك من كان مقيما بحدود الصين انتقلوا جميعا الى هذه المدينة ولزم قبل الشروع فى تأسيسها قطع الغابات وتسليك الطرق وتجفيف الغدران واقامة الجسور فغير القيصر طبيعة تلك الاماكن التى كانت قبل ذلك لا يتوهم لياقتها للبشر وصمم على جعلها مدينة ولم يعقه عن مرامه ما كان يعرض له من فيضان للمياه الذى كان يفسد عمله وجدب الارض وجهل العملة والطاعون الذى اهلك مائتى الف رجل عند اخذه فى انشائها فاستمها غير مكترث بهذه الموانع التى كانت تجلبها اليها الطبيعة ولا بعقول الامم التى لم تكن تقتضى ذلك ولا باطراء من الحرب الشنيع فصارت بترسبورغ مدينة فى ١٧٠٥ وصارت مينا هام ملئة بالسفن وكان القيصر يستميل اليها الغرباء بالانعام والبشاشة فكان يعطى بعضهم اراضى وبعضهم بيوتا ووسع بهمته الفنون التى كانت تلطف هذا القطر الخشنى لاسيما وقد صيرها لا يمكن وصول الاعداء اليها فلم يمكن للجنرالات الاسوجيين الذين كانوا دائما يهزمون جيوشه ان يضروا بهذه القبيلة الجديدة فى شئ فكانت مستريحة بين الحروب التى كانت حواليها

ولما جدد قيصر الموسقو ممالك جديدة مديدا عانته الى الملك اغسطوس الذى فقد ممالكه فارسل اليه الجنرال بطقول الذى كان قد دخل عن قريب فى خدمة الموسقو وكان فى ذلك الوقت الجى قيصر الموسقو فى سكس يطلبه للاتيان الى مدينة غرودنو ليتذاكرا ثانيا فى شأن ما هو عليه من الحالة

البيشة فذهب اليها الملك اغسطوس ومعه عدة ارط صغيرة يقودها الجنرال
شولمبورغ الذي حصلت له شهرة في الشمال باجتيازه نهر اودر وكان هذا
الجنرال نهاية رجاء اغسطوس وذهب اليها ايضا قيصر الموسقو وخلفه
سبعون الفا عزما على تجديد الحرب مع ملك اسوج من غير ان يخاف الملك
اغسطوس المعزول من غيظ اهل له على ترك بلادهم للجيوش الموسقوبية
واتفقا على تقسيم جيش الموسقو الى عدة ارط للقبض على ملك اسوج ايضا
وجيدوفي هذا الوقت جدد الملك اغسطوس رتبة النشان المسمى عندهم
بالعقاب الابيض بعد ان كانت قد اضمحلت وتلاشى امرها ليستميل بها
بعض امراء مملكة له الذين كان طمعهم في المنافع الحقيقية اكثر من
طمعهم في المناصب التي تصير سخرية اذا كان مقلدها ملكا في الاسم فقط
وانتهت معاهدة الملكين على هذا الوجه الغريب وذلك ان قيصر الموسقو
ترك جيوشه لمعاهدة وسافر عاجلا الى استراخان ليطفي ما كان يخافه فيها
من نيران الخروج والقيام عليه فبمجرد سفره امر الملك اغسطوس بالقبض
على بطقول فتعجب جميع اهل اوربا من تجاسره على القبض على الجي قيصر
يحامي عنه لما ان في ذلك مخالفة لحقوق الملل واضرارا بمصالحه

وسبب تلك الحادثة على ما قاله لي ضارى عسكر السكسونيين الذي هو ابن
الملك اغسطوس هو ان بطقول لما طرد من اسوج لكونه دافع عن خصايص
وطنه ليونيا التي الى اغسطوس وصار عنده جنرالا لكن لما كان ذا حمية
شديدة وتكبر لم يحصل بينه وبين الجنرال المسمى فلمنغة التئام وتوافق لما ان
هذا الجنرال كان اعظم منه حمية وكبرا وكان نديما للملك اغسطوس فانتقل
بطقول الى خدمة قيصر الموسقو وصار عنده جنرالا والجيا بقرب الملك
اغسطوس ومن حذقه وفطنته انه فهم ان مقصود الجنرال فلمنغة
ورئيس افندي ان يعرضا على ملك اسوج الصلح بينه وبين اغسطوس فبادر
بالعزم على ان يوقع الصلح بين ملك اسوج وقيصر الموسقو فعرف مقصوده
رئيس افندي وتسبب في القبض عليه ثم قال اغسطوس بعد ذلك لقيصر

الموسقوان بطقول خائن لنا والواقع انه لا ذنب له غير انه خدم سيده الجديد
خدمة عظيمة ولكن امانة الخدمة التي في غير محلها تعتبر كانها خيانة
ومن ذلك الوقت انقسم من بعض الجهات ستون الف موسقوبية الى عدة ارط
صغيرة وصاروا يحرقون كل ما صادفوه من اراضي اتباع استانسلاس
ويخربونها وتقدم شولمبورغ بالجيوش الجديدة من جهة اخرى فكان
من سعد الاسوجيين ان تشتتت جيوش اعدائهم في اقل من شهرين
وذلك ان كرلوس الثاني عشر واستانسلاس اغاروا على ارط الموسقوبيين
المتفرقة ارطة بعد اورطة مع الحمية والشهامة حتى صار كل جنرال موسقوبي
ينهزم قبل ان يعرف انهزام فرقته
وما كان يعوق نصرة ملك اسوج عائق فكان اذا وجد بينه وبين اعدائه
نهرا يجتازه بالسباحة مع الاسوجيين واخذت فرقة من الاسوجيين امتعة
اغسطوس وكانت مشتملة على مائتي الف ريال من الفضة المسكوكة واخذ
استانسلاس من الامير منزيقوف وكان جنرال الموسقوبية ثمانمائة الف
من النقود المسكوكة ايضا وقاد كرلوس عساكره الخيالة ثلاثين فرسخا
في مدة اربع وعشرين ساعة ومع كل خيال منهم فرس آخر اعده للركوب
اذا تعب فرسه ولما وقع الخوف في الموسقوبيين وقل عددهم ولوا مدبرين
مع الخلل وعدم الانتظام الى خلف نهر بوريسطين
وبينما كرلوس يطرد الموسقوبيين امامه حتى اوصلهم الى آخر مملكة
لثوانيا واذا بشولمبورغ قد اجتاز نهرا ودير قاندا عشرين الفا يحارب بهم
الجنرال المسمى رنشلد الذي كان مشهورا بانه اعظم جنرالات كرلوس
الاسوجية فمن ثم كان يقال له بارمينيون اسكندر الشمالي وهو كرلوس الثاني
عشر فتقابل هذان الجنرالان المشهوران اللذان كان كل منهما اسند الملكه
فيما قضى عليه سعادة وشقاء بقرب مدينة بونيزة في محل يقال له فورنشاد
وكان معينا لجيوش اغسطوس ولم يكن مع رنشلد الا ثلاث عشرة فرقة من
المشاة واثنتان وعشرون من الخيالة وكان مجموعهم عشرة الاف رجل

واما شولمبورغ فكان معه ضعف ذلك وكان في جيشه ارطة قدرها ستة اوسبعة الاف من الموسقو بيين الذين تعلموا الضبط والربط العسكري وكان يوثق بهم كانهم اعظم المقاتلين ووقع الحرب بينهما في المحل المذكور في ثاني عشر شهر اشباط سنة ١٧٠٦ فكانت النصرة لرنشلد على شولمبورغ حيث ظفر به مع انه فيما سبق اوقع ملك اسوج في الحيرة حيث فر منه مع جماعته التي كان مقدارها اربعة آلاف ولم يظفر به الملك المذكور ولم يمكث القتال بين هذين الجنرالين ربع ساعة لما ان السكسونيين لم يستطيعوا مقاومة اعدائهم ولم يستمروا على الحرب لحظة واحدة واما الموسقويبون فانهم بمجرد وقوع بصرهم على الاسوجيين القوا اسلحتهم ووقع فيهم الرعب والانزعاج واختل نظامهم اختلالا عظيما حتى قيل ان الاسوجيين وجدوا في محل المعركة سبعة آلاف من البنادق المعمرة ملقاة على الارض وبالجملة فلم يسبق لهذه الهزيمة نظير في سرعة الانجياز وفضيحة الاعداء ومع ذلك فقد اعترف ضباط السكسونيين والاسوجيين لشولمبورغ في هذه الواقعة بانه لم يوجد له نظير في ترتيب عساكره على وجه عجيب وعرفوا بسبب تلك الواقعة ان الاحتياط والنظر في عواقب الامور قد يأتي على خلاف المراد ولا يجدي نفعا

وكان من جملة الاسرى ارطة كاملة من الفرنساوية كانت قد اسرها جيوش سكس سنة ١٧٠٤ في واقعة هوشتيد الشهيرة المهولة التي عادت بالضرر على فخار لويز الرابع عشر ونظمها اغسطوس من ذلك الوقت في سلك عساكره الذين يحاربون فرسانا ورجالا وأمّر عليها رجلا فرنساويا من عائلة يقال لها جوبوز فقتل هذا الامير عند اول رمية من الاسوجيين واسروا الارطة بتمامها فعند ذلك طلبت من كرلوس الدخول في خدمته فاجاب سؤالها وادخلها في الخدمة فانظر الى الحكمة الالهية حيث حقنت دماؤهم عند انتقالهم من ملك الى آخر

واما الموسقويبون فانهم تضرعوا الى كرلوس في حقن دمائهم فلم يقبل ذلك

منهم وذبحوا فى نحو ست ساعات بعد انقضاء الحرب زجرا لاهل بلادهم وليكون خلى البال من هؤلاء الاسرى الذين لم يجد لهم دواء الا السيف

فعند ذلك وجد اغسطوس نفسه بلا مدد ولم يبق معه الا مدينة قراقو التى كان فيها هو وارطتان من الموسقوبيين وارطتان من السكسونيين وبعض فرق من جيوش المملكة الذين كان يخشى منهم ان يسلموه لهذا المنصور وعظمت عليه المصيبة حين بلغه ان كرلوس قد دخل سكس فى اول شهر ايلول سنة ١٧٠٦

وفى سنة ١٧٠٦ شق كرلوس مملكة سليزيا مستكفا ان يستأذن ديوان وبانة فوقع فى قلوب اهل المانيا الرعب والخوف وكان بها مشورة راتسبون وهى كناية عن الشورى السلطانية وكانت خائبة الآراء لا تنفذ اوامرها وان كانت على رؤس الاشهاد فاعلنت ان ملك اسوج اذا تجاوز خلف نهرا ودير مع جنوده يكون بذلك من اعداء السلطنة الامبراطورية فكان هذا سببا حاملا لكرلوس على ان يبادر بالمجيء فى المانيا من غير ان يعبأ بما اعلنت به المشورة

فلما شعر اهل القرى بجيشه تركوا مساكنهم وولوا هاربين فى جميع الجهات فصنع فيها كرلوس كما صنع فى كبنهاغ حيث وضع فى سائر الاماكن رقاعا مكتوبا فيها انى لم آت الا للصلح وان من عاد الى وطنه ودفع ما يضرب عليه من الغرامة عاملته معاملة رعيتى ومن لم يعد كان مطرودا فلما علم الهاربون بذلك وكانوا يعهدون ان هذا الملك ينجز ما يقول صاروا يأتون افواجا افواجا واختار هو ان يعسكر بجيشه فى محل يقال له الترنشاد قريب من فضاء لوتزان الذى هو ميدان مشهور بنصرة غسطاوة ادلف وبموته فيه وذهب لينظر الموضع الذى قتل فيه هذا الرجل العظيم فلما وصل اليه قال قد بذلت الجهد فى ان اعيش دائما مثل هذا الرجل وارجو من الله ان يمن على فاموت مثله ميتة فاخرة

وارسل وهو فى هذا العرضى الى جميع اقاليم سكس وامر اهلها ان يجمعوا

ويبعثوا

وبعثوا له فوراد فاتر خزائن المملكة فبمجرد وصولها اليه ووثوقه بصحة ما فيها ضرب على المملكة غرامة قدرها في كل شهر ستمائة وخمسة وعشرون الف رسدالة وزيادة على ذلك جبر السكسونيين ان يدفعوا لكل عسكري اسوجي في كل يوم رطلين من اللحم ورطلين من الخبز وجرتين من البوزة واربع صلديات (وهي نوع من المعاملة) وعلف الخيل فلما ترتبت تلك الغرامات على هذا الوجه جدد قانونا للضبط والربط ليحفظ به السكسونيين من اساءة عساكر الاسوجيين فامر ارباب المضايف الذين في المدن التي وضع بها محافظين من طرفه ان كل صاحب مضيفة يبعث اليه في كل شهر شهادة تنامة بكيفية سلوك من كان نازلا عنده من العساكر الاسوجية فان لم تشهد الورقة المبعوثة بحسن سلوكهم قطعت ماهية من اساء وزيادة على ذلك كان يذهب المفتشون في كل خمسة عشر يوما الى المضايف ليعرفوا اهل ارتكب الاسوجيون ذنبا اولا وكانوا يهتمون بتعويض الخسارات التي كان يخسرها صاحب المضيفة من السكسونيين وبمعاقبة المذنب من الاسوجيين

ومن المعلوم ان الجيوش الاسوجية كانت دائما مضبوطة مع التشديد والصعوبة وكانوا لا يقدمون على اخذ شيء من البلاد التي يأخذونها عنوة الا بعد صدور الاذن لهم بذلك وكانوا اذا ذهبوا الى الغنيمة بالاذن يتركونها بمجرد اشارة تدل على المنع وهم الى الآن يفتخرون بما حصل منهم من غاية الضبط والامانة مدة مكثهم في بلاد سكس ومع ذلك يتشكى السكسونيون من الاضرار الذي ارتكبه الاسوجيون في بلادهم فكلام كل مناقض لكلام الآخر ولا يمكن الجمع بينه الا اذا نظرنا الى اختلاف الملاحظ بينهم اذ يندر ان الفرقة الغالبة لا تتجاوز الحد في حقوقها دائما وان الفرقة المغلوبة لا تستعظم اقل ضرر واساءة وتجعل ذلك من قبيل السلب والنهب فمن ذلك ما اتفق ان الملك كان ذات يوم يتنزه وهو راكب على فرسه بقرب مدينة لوبسيقة فاتى اليه رجل من فلاحي السكسونيين ومثل بين يديه ذليلا وطلب منه ان ينصفه من احد عساكر الطوبجية حيث غصب منه قوت

عائلته فامر الملك باحضار العسكري - فلما حضر عبس الملك وقطب وجهه وقال له هل صدق هذا الرجل فيما ادعاه من الغصب فقال العسكري ياملك انى لم اوذه بمثل ما اذيت به سيده الملك اغسطوس حيث تغلبت على مملكته وانما اخذت منه ديكاروميا فاعطى الملك بنفسه للفلاح عشر دوقات (نوع من المعاملة) وصفح عن العسكري في تجاريه على هذه المقالة الغريبة قائلا له اعلم ياحبيبى انى وان تغلبت على مملكة الملك اغسطوس فلم انغلب عليها النفسى

وكان اعظم اسواق لونبسيقة باقيا على عادته فى الاخذ والعطاء فكان التجار يأتون اليه مع كمال الطمانينة من غير ان يرى فيه احد من عساكر الاسوجيين حتى كان يقال ان جيش ملك اسوج لم يدخل فى مملكة سكس الا لحفظ بلادها وكان الملك مطلق التصرف فى احكامه بتلك المملكة مع الهدء التام لحكمه فى مدينة استخلم

وكان الملك اغسطوس اذ ذاك حيران فى بلاده يذهب من بلد الى اخرى لكونه محروما من مملكتيه الانتخابية والوراثية فكتب بيده مكتوبا الى كرلوس يطلب منه الصلح وامر سرا البارون المسمى أمهوف ان يذهب به اليه بمعية مسيو فنجستين كاتب المشورة الخصوصية وفوض لهما تفويضا مطلقا فى هذا الشان واعطاهما ورقا ابيض بختمه وقال لهما اذهبا واصرفا الهمة فى ذلك لعلكما تحصلان مشارطات غير مضرة وقد الجأته الضرورة ان يخفى ما عزم عليه من الصلح وان لا يتوسل الى كرلوس بملك آخر لانه كان فى ذلك الوقت ما كثا فى له تحت ذل الموسقوبيين فاخفى ذلك خوفا من ان يصل الخبر لمعاهده ايمبراطور الموسقو فينتقم منه انتقاما شديدا فى نظير انقياده لكرلوس ويكون الحق معه فى ذلك فوصل هذان الرسولان الى عرضى كرلوس ليلا فمثلا بين يديه خفية واعطياه المكتوب فقرأه وقال لهما انى آتيكما فى هذا الوقت بالجواب وتركهما وذهب سريعا الى اوضته وكتب ما معناه رضيت بالصلح لكن بالشروط الآتية التى لا يغير منها شئ وهى

ولان الملك اغسطوس يتخلى مدة حياته عن تاج له ويبايع استانسلاس على انه الملك الحقيقي ويلتزم انه لا يؤمل ابدا ان يجلس على الكرسي ولو بعد موت استانسلاس

ثانيا انه يبطل جميع المعاهدات الاخرى خصوصا معاهدة الموسقوبيين

ثالثا انه يرسل الى امرادو بيتي وجميع من عنده من الاسارى

رابعا انه يبعث الى جميع الهاربين الذين دخلوا في خدمته خصوصا بوحنا بطقول ولا يبحث عمن دخل في خدمتي من جماعته

ثم اعطى الورقة المشتملة على هذه الشروط للقونتة بيبيرو وكله في تدبير ما بقي مع رسولي الملك اغسطوس فلما وجدا هذه الشروط صعبة قاسية وقع في قلوبهما الرعب منها وسلكا مسلك الحيلة على ما هو عادة الانسان اذا فقد شوكته واجتهدا في ذلك لعل ملك اسوج يلين جانبه ويرق قلبه وتكلما في هذا الشان مع القونتة المذكور عدة مرات فلم يزد هذا الوزير في جوابه عن زخرف مقالهما على قوله ان سيدي لا يرضى بتغيير ما عزم عليه

وبينما هم في اثناء هذه المصالحات السرية ببلاد سكس اذ حدث امر يترآى منه ان اغسطوس ينال مصالحة اعظم من تلك المصالحة ويتعاهد مع كرلوس المنصور عليه على شروط احسن من تلك الشروط وذلك ان سر عسكر الموسقوبيين المسمى منز يقوف جاء مع ثلاثين الفا الى اغسطوس في مملكة له وكان اغسطوس في ذلك الوقت يخشى من مجيئهم عنده فضلا عن كونه ينتظر المعاونة منهم وكان معه بعض ارط من اللاهيين والسكسونيين تبلغ عدتهم ستة آلاف فلما رأى كثرة جيش هذا الامير مع قلة عساكره خشي ان تظهر مصالحته السرية وكان يرى ان عدوه قد عزله عن مملكته ويخشى ان يأسره معاهده ففي اثناء هذه الحالة الصعبة اتفق ان هذا الجيش الموسقوبي تقابل مع جنرال اسوجي يقال له ميبرفلد وكان معه جيش يبلغ عشرة آلاف في محل يقال له كاليش قريب من اقليم بثنانيا فحرض الامير منزيقوف الملك اغسطوس على القتال مع هذا الجنرال فتحير الملك في امره وصار يتعلل بعلل

مختلفة لانه وان كانت الاعداء اقل من الجيش الموسقوبى بثلاث مرات الا انه كان فيهم اربعة آلاف من الاسوجيين يقومون وحدهم بالنصرة على اغسطوس وكان يرى ان محاربة الاسوجيين فى مدة طلبه لصلحهم وعدم الظفر بهم مما يزيد فى مقته ومصائبه فعزم على ان يبعث منز الميرفلدامينا يخبره بوقوع الصلح بينه وبين كرلوس ليذهب من غير قتال فلم تجد هذه النصيحة نفعا بل ترتب عليها ما يخالف مرام اغسطوس وذلك ان ميرفلد ظن ان ما اخبره به اغسطوس حبالة نصبها له لخديعه فيترك القتال فصمم على الحرب

نظفر الموسقوبيون فى هذه الواقعة بالاسوجيين وكانت صفوفهم منتظمة وتمت النصرة لاغسطوس وان حصلت قهرا عنه فدخل منصورا فى اثناء سوء حظه فى مدينة ورشاو التى كانت سابقا دار اقامته ثم صارت الآن مهدومة الاسوار خربة راضية ان يحكمها اى ملك تغلب عليها واغتر بعد هذه اللحظة فعزم على الهجوم على ملك اسوج مع الجيش الموسقوبى فى مملكة سكس ولكنه تعقل بعد ذلك ان كرلوس معه جيش اسوجى لم يغلب الى الآن وان الموسقوبيين يتركونه بمجرد سماع الصلح وان سكس التى هى بلاده الوراثية قد فقدت اموالها واهاليها وان الاسوجيين والموسقوبيين يتممون خرابها وان السلطنة الايمبراطورية لاشتغالها بالحرب مع فرانسا لا تسعفه بالاعانة فيمكث مجردا من الممالك والاموال والاصحاب فمال الى الانقياد للقانون الذى رتبه عليه ملك اسوج وكان قد ازدادت صعوبته لما بلغ كرلوس ان اغسطوس اغار على جيوشه فى مدة المصالحة فكان غضب كرلوس من ذلك وميله الى اهانة عدوه اغسطوس الذى لم يظفر به الا فى ذلك الوقت سببا فى ازدياد قسوته عليه وعدم الرفق به فى شروط المصالحة فهذه النصرة جعلت اغسطوس اسوء حالا مما كان عليه وبحسب الظن ان ذلك لم يتفق لغيره وبينما هو فى ورشاو يأمر الناس بالتهليل بالشكر اعلاما بالبشارة اذ اتاه رسولاه فنجستين من سكس ومعه ورقة المشارطات التى تلزمه بنزع التاج فلم يرد فى قبولها ثم وضع عليها علامة الرضا وسافر الى سكس طامعا ان حضوره

عند ملك اسوج يكون سببا في الالفة بجانبه والرفق به وان عسى ان يتذكر كرلوس ما بين عائلتهما قديما من المصاهرة ولحمة النسب الرابطة بينهما فكان اول وقوع بصر كل منهما على صاحبه في محل يسمى غونردوف في عرضي القونتة بيبير من غير احتفال فكان كرلوس لابسا حزمة غليظة والمنديل الذي بعنقه من السلاوى الاسود ولباسه على عادته من الجوخ الغليظ الازرق وازراره من النحاس المطلي بالذهب وكان متقلدا بسيفه الطويل الذي قاتل به في واقعة نروى وكان غالبا يتوكأ على قبضته فلم يتحادثا الا في شأن هذه الحزمة الغليظة فقال كرلوس لاغسطوس اني منذ عشر سنوات لم انزع هذه الحزمة الا عند النوم فكانت هذه الاشياء الهزئية بمفردها هي مخاطبة هذين الملكين اللذين تغلب احدهما على تاج الآخر وكان اغسطوس يتكلم دائما مع الملاطفة والاستعطاف كما هو عادة الملوك وارباب المصالح العظيمة في اثناء ما يقع لهم من المكايد الصعبة واكلا معا مرتين فكان كرلوس يظهر دائما انه سينفع اغسطوس ولكن لما كانت عادته تنفيذ اغراضه واجراء مشروعاته جدد شروطا اخرى اصعب من السابقة التي كان اشقها عليه الزامه ان يسلم لعدوه جنرال جيشه ووزيره الاعظم ومن اعظم اسباب اهانته جبره على ان يرسل لخليفته دفاتر مملكته وتاجه المكلل بالجواهر واعظم من ذلك كله جبره على تهنئة انسان تولى منصبه وذلك ان كرلوس امره ان يبعث مكتوبا لاستانسلاس تهنئة له بالمنصب فترجى المعافاة من ذلك فابى كرلوس الا الكتابة فامتثل حينئذ وكتب ما معناه على ما رأيته منقولا من مكتوب استانسلاس وكان باقيا عنده الى الآن

سيدي واخي

قد اقتضى رأينا انه لا يلزم كثرة المراسلات بيننا ولكن لاجل ارضاء الحضرة الاسوجية وان لا نتهم بالامتناع عن تنفيذ مرامه سطرنا لسعادتكم هذه الشقة تهنئة لكم على لبس التاج ونرجوا ان تحسن احوال رعيتكم ويصيروا

امن مما كانوا عليه فى مدتنا فان جميع الناس يعتقدون انا لم نكافئ على احساناتهم الا بالخيانة واغلبهم لم يجتهد الا فى خلعنا عن المملكة ونرجو ان لا تكونوا عرضة لمثل هذه المصائب ونسأل الله تعالى ان ينظر اليكم بعين الحفظ والحماية حرر ذلك فى ادرسدة ٨ شهر نيسان سنة ١٧٠٧

اخوك وجارك الملك اغسطوس

ولزم اغسطوس ان يأمر ضباط حكومته ان لا يلقبوه من الآن فصاعدا بملك مملكته وان لا يدعى له فى المحافل العمومية بهذا اللقب الذى تخلى عنه ولزمه ايضا ان يطلق الاميرين السبو يقيين ولم يتأثر من ذلك كثيرا وان شق عليه اطلاقهما وعند خروجهما من السجن غضا بصرهما عنه ولم يعبأ به واما تسليمه فى بطقول فكان عليه من اشد المصائب وتحير فى شانه وذلك ان ايمبراطور الموسقو كان يطلبه لكونه الجيه وملك اسوج كان يطلبه مع التشديد والتهديد وكان بطقول اذ ذاك محبوسا فى قلعة تسمى خونجستان بمملكة سكس فرأى اغسطوس انه يمكن الجمع بين ارضا كرلوس وتشريف نفسه عند ايمبراطور الموسقو فارسل خفرا لتسليم هذا المسكين للجيوش الاسوجية وكان قد ارسل قبل ذلك امرا لحاكم خونجستان ان يخلى سبيل هذا المسجون ليهرب ولكن سوء حظ بطقول غلب على ما دبره اغسطوس فى انقاذه وذلك ان حاكم خونجستان كان يعلم ان بطقول من ارباب الثروة التامة فطلب منه الفدا فابى بطقول معتمدا على حقوق الدول وعلى ما بلغه من عزم اغسطوس على انقاذه ورأى ان ذلك يحصل مجانا فبينما هو على هذه الحالة اذ وصل الخفراء المامورون بالقبض عليه فاخذوه فورا وسلموه لاربعة من اليوزباشية الاسوجية وساروا حتى وصلوا به الى عرضى الترنتاد فمكث فيه ثلاثة اشهر مسلسلا بسلسلة حديد عظيمة مربوطة فى خشبة كبيرة ثم نقل الى قزمير

ولم يكترث كرلوس بكون بطقول الجى قيصر الموسقو وانما تذكر انه كان من رعيته فامر مشورة الحرب ان تشدد فى الحكم عليه فحكمت ان يقطع اربعة

ارباع فذهب اليه قسيس الملك واخبره بانه قد حكم عليه بالقتل من غير ان بينه على اى كيفية يكون قتله فلما رأى هذا الرجل الذى كان لا يهاب الموت في كثير من الحروب انه صار مع هذا القسيس ووجد شجاعته غير معضدة بغبار النصرة ولا بالحمية الغضبية اللذين هما منشأ الجسارة الانسانية بكى بحرقة حتى تساقطت دموعه على صدر القسيس وكان اذ ذاك خاطبا امرأة سكسونية تسمى مدام انسيدل كانت من بيت شهير وكانت ذات جمال ومعارف وكان عازما على الدخول بها قبل القبض عليه بمدة قليلة فطلب من القسيس ان يذهب اليها ويسليها ويسكن روعها ويخبرها بانه يموت وهو باق على محبتها ولما اتى به الى محل العذاب ونظر الخوازيق والدواليب منصوبة صار يضطرب ويتلوى مما اعتراه من الخوف والانزعاج والقى نفسه على الوزير فعانقه الوزير وسترة بعباءته وهو يبكى فجاء عند ذلك ضابط اسوجى وقرأ باعلى صوته ورقة تتضمن ما معناه

اعلموا ان حضرة ملكنا الحليم قد امر صراحة بان هذا الرجل الذى خان وطنه يقطع قطعا على ما وقع منه ويكون عبرة لغيره فاياكم والخيانة واخدموا ملككم بالصدق والامانة فقال بطقول عند ما سمع لفظة الحليم اى حلم عنده ولما سمع قوله خان وطنه قال ما اصعب هذا الكلام مع انى كثيرا ما نفعت وطنى وبعد ذلك ضربوه بالسيف ست عشرة ضربة حتى قاسى من العذاب الشديد اشقه واقصاه فهكذا كانت كيفية موت هذا المسكين يوحنا بطقول الجى نيصر الموسقو وجنراله

فاضطربت اقوال الناس فى امره فمنهم من قال انه يستحق القتل نظرا لكونه عصى مليكه ومنهم من قال انه شهيد حرية بلاده نظرا لكونه نشا باقليم ليونيا وحامى عن مزايا وطنه وانه لم يخرج منه الا للذب عن مزاياه واتفقت كلمتهم على ان ما حصل له من هذه الفعلة الفظيعة ليس مما ينبغى بل كان الواجب احترامه لكونه الجى قيصر الموسقو ولكن لما كان ملك اسوج ناشئا فى المظالم واطلاق التصرف اعتقد انه انصف فى هذه الفعلة مع ان جميع اهل اوربا

استقبحت ذلك وجعلته من باب الظلم والقساوة
ومكثت اعضاؤه مقطعة اربع قطع على الخشب والخوازيق يراها العام والخاص الى سنة ١٧١٣ التى استولى فيها اغسطوس على مملكته فامر بجمع هذه الاعضاء التى تدل على ما وصل اليه من الضرورة فى الترشاد لجمعت فى صندوق صغير واتى بها اليه فى مدينة ورشاو وكان اذذاك بوزنوال رسول الدولة الفرنساوية حاضرا هنالك فاراه اغسطوس هذا الصندوق قائلا انظر الى اعضاء بطقول من غيران يزيد على ذلك كلمة تدل على القدح فيه اوانه قتل مظلوما ولم يمكن لاحد من الحاضرين ان يتكلم فى شأن هذا الخطب الجسيم المحزن
وبعد قتل بطقول بمدة قليلة اسر رجل ليونيانى يقال له بيقول وهو حامل لسلاحه وحكمت عليه مشورة السنت بالقتل فى مدينة استخلم من غيران تقطع اعضاؤه فظهر بذلك حيث لم يعامل هذا الرجل فى العقوبة كما عومل بطقول مع ان الذنب واحد ان كرلوس لم يرد بقتل بطقول مجرد العقاب بل اراد مع ذلك الانتقام ايضا ومع كون بيقول المذكور لم يمثل به كما مثل ببطقول عرض للمشورة المذكورة بعد ان حكمت عليه بالقتل انه ان عفا عنه الملك اعلمه بكيفية تحصيل الذهب بالكيمياء فصنع تجربة ذلك وهو مسجون بحضور هاميلتون الميرالاى وارباب الحل والعقد بالمدينة والذى ظهر من تجربته من الذهب ووجد فى البودق سواء كان ناشئا عن صحة العمل او كان مجرد حيلة وشعبذة لينقذ بها نفسه كما هو الظاهر اخذوه ووضعوه فى دار الضرب بمدينة استخلم وحرروا بذلك للمشورة اعلاما صحيحا يدل على ان ما فعله هذا الرجل امر مهم جدا فامرت الملكة جدة كرلوس بامهاله والاستبقاء عليه حتى يعلم الملك بهذا الامر الغريب وتصدر منه الاوامر بما يريد
فارسل كرلوس يقول حيث لم اقبل من اصحابى الشفاعة فى هذا الرجل فكيف اصفح عنه لمجرد هذه المنفعة فكان تصميمه على اجراء مقصوده دليلا على

اتصافه بمكارم الاخلاق وان اعتقد صحة ما ادعاه بقول من الكيميا ولما بلغت اغسطوس هذه القصة قال لا عجب في كون ملك اسوج لم يهتم بقبول الكيميا لانه وجدها في سكس يعني انه بتغلبه على تلك المملكة وامتلائه على اموالها صار في غنية عن الكيميا

ولما بلغ قيصر الموسقو ما وقع بين اغسطوس وكرلوس في الترنتاد من الصلح الغريب مع ان المعاهدة التي بينه وبين اغسطوس كانت تقتضي المنع من ذلك وبلغه ان الجيه بطقول اخذه ملك اسوج غير مكترث بقوانين الملل بث شكواه في جميع دواوين اوربا فاعلم بذلك ايمبراطوار المانيا وملكة الانكليز ووكلاء الاقاليم المجتمعة زاعما ان ما وقع لاغسطوس من الضرورة التي الجأته للصلح والتسليم في بطقول انما هو جبن وخيانة منه وترجى من هذه الدول ان تكون واسطة في رد الجيه عليه وان تتدارك هذا العيب الكبير الذي يحصل لكونه مزريا بمقامه ومقام غيره من الملوك وصار يحرضهم على انهم لا يذلون انفسهم لملك اسوج باعطائهم اياه ما هددهم عليه من كفالتهم للصلح الواقع بينه وبين اغسطوس في الترنتاد فاثبتت لهم هذه المراسلات قوة شوكة ملك اسوج زيادة على ما كانوا يعهدونه فيه وكان ايمبراطور المانيا وملكة الانكليز ودولة الفلمنك مشغولين بالكلية في ذلك الوقت بالحرب مع فرانسا فرأوا انه لا يناسب اغاظة ملك اسوج بامتناعهم من اعطائه كفالة الصلح لما ان ذلك امر هين ولم تتعرض دولة من الدول المذكورة لانقاذ بطقول بل قالوا جميعا انه اذا كان لاحد من الرعايا دعوى مع ملكه كانت لاغية لا يلتفت اليها لما كان اخوف الملوك في ذلك الوقت من ملك اسوج

فتذاكرت مشورة قيصر الموسقو في ان يصنع بالضباط الاسوجيين المأسورين ببلادهم كما صنعه ملك اسوج ببطقول فلم يرض القيصر بهذا الامر الشنيع لان عاقبته سيئة وذلك انه كان بمملكة اسوج اسراء موسقويون اكثر ممن كان عنده من اسراء الاسوجيين

وبحث عن ان ينتقم منهم انتقاما لا يضر به وكان اعظم جيوش كرلوس اذ ذاك

فى مملكة سكس لا يشتغل بشئ وكان بمملكة له جنرال اسوجى يقال له لوانهوب وكان معه تقريبا عشرون الفا من العساكر فلم يمكنه ان يمنع المارة من طرق بلاد له ليا انها غير محصنة وكانت مشحونة بالفرق المتعصبة وكان ملكها استانسلاس فى ذلك الوقت عند كرلوس فى العرضى فانتهز القيصر هذه الفرصة ودخل فى مملكة له ومعه من العساكر ما ينوف على ستين الفا فجعلهم اربطا وسار حتى وصل الى مدينة ليوبلدة فوجدها خالية عن محافظى الاسوجيين وكانت مدن مملكة له فى ذلك الوقت لمن يحضر بجيوشه على ابوابها فامر قيصر الموسقو بعمل جمعية فى مدينة ليوبلدة فكانت كجمعية ورشاو التى عملت لعزل اغسطوس

وكان بمملكة له فى ذلك الوقت كردينالان كانا كملكين احدهما مولى من طرف اغسطوس والآخر من طرف استانسلاس فجمع الكردينال الذى من طرف اغسطوس جمعية فى مدينة ليوبلدة وحضرها جميع من تركه هذا الملك فى صلح الترنتاد مع من استمالهم قيصر الموسقو بانعاماته فتذاكروا فى انتخاب ملك جديد لمملكة له ولو وقع ذلك لكان لها ثلاثة ملوك لا يدرى ايهم احرى بالمنصب

وفى اثناء هذه المدة اتحد قيصر الموسقو مع ايمبراطور المانيا لما ادركهما من الخوف من ملك اسوج فنال منه القيصر لن صار يبعث له الايمبراطور خفية عدة كثيرة من ضباط النمساويين فكانوا يأتون اليه كل يوم مع الضبط والربط والتجربة حتى كثرت جيوشه وكان يستميلهم الى خدمته بالانعامات وكان قد اعطى تمثال صورته المرصع بالالماس لرؤساء الضباط ولكل قائم مقام ممن حاربوا معه فى واقعة كاليس واعطى من دونهم من الضباط تماثيل من الذهب واعطى الانفلرتماثيل الفضة وكل هؤلاء كانوا من عساكره الخاصين به واعطاهم ذلك مكافأة لهم على ما ظهر منهم فى واقعة كاليس المذكورة وتشجيعا لهم وكانت هذه الآثار الدالة على نصرتهم فى تلك الواقعة قد صيغت بمدينته الجديدة المسماة بترسبورغ التى كانت تتزايد فى الفنون

والمعارف كما علم جيوشه الحمية والفخر
وما كان بمملكة له من الفشل وكثرة التعصب والتخريب المستمر منع جمعية ليوبلادة ان تبت الامر على شئ مما شرعت فيه فنقلها القيصر الى مدينة لوبلين فلم ينقص تبديل المحل من هذه الفتن والحيرة شيأ غير انه المحط رأيها على عدم الرضا باغسطوس الذى تخلى عن المملكة ولا باستانسلاس الذى انتخب بالقهر والغلبة ولم يحصل منها اتفاق ولا تجاسر على تعيين ملك سواهما وفى اثناء هذه الشورى التى لم تجد نفعا كانت فرقة امرآ سابيها وفرقة اوجنقى ومن كان مع اغسطوس سرا ورعية استانسلاس الجديدة يتحاربون مع بعضهم ويتغلب كل على اراضى الآخر فكان ذلك تتميما لخراب اوطانهم واما الجيوش الاسوجية التى كان قائدها لوانهوب فانها كانت منقسمة الى عدة فرق فكانت فرقة فى ليونيا وفرقة فى لثوانيا واخرى فى مملكة له وكان كل منها يبحث عن الارط الموسقوبية وكانت تحرق كل ماصادفته مما ينتسب لاعدآء استانسلاس واما الموسقوبيون فكانوا يخربون كل ماوجدوه فى طريقهم سوآء كان لاعدآئهم اولاصدقائهم فكان لايشاهد اذذاك الامدن محترقة صارت رمادا وجماعات لاهية هائمة فى الاراضى لاتملك شيأ وتكره بالسوية كلا من ملكيها (اغسطوس واستانسلاس) وكرلوس وقيصر الموسقو
(وفى خامس عشر شهر تموز سنة ١٧٠٧) ارتحل استانسلاس من عرضى الترنتاد وبصحبته الجنرال ونشيلدوست عشرة ارطة من الاسوجيين واخذ معه اموالا كثيرة ليسكن هذه الفتن الحاصلة فى مملكة له ويبايعه اهلها على انه ملك عليهم فبويع له فى جميع الاماكن التى مربها وانجذبت اليه قلوب العالم لما رأوا اضبط جيوشه ودلهم ذلك على خشونة الموسقوبيين وقساوتهم وعندما رأت منه الفرق المتحزبة البشاشة ولين الجانب جنح اليه اغلبهم واستمال ببذل الاموال معظم جيش المملكة واما قيصر الموسقو فانه لما خشى ان تنقص ذخائره فى هذه المملكة التى خربتها جيوشه ذهب الى لثوانيا حيث

انها المحل الموعود لاجتماع ارطه وبها مخازن لوازمه وضروريانه فترتب على
هذا الذهاب ان صار استانسلاس حاكما مع الراحة على مملكة له
الاماندر منها
ولم يكن فيها من يعكر عليه الا القونته سينياسقى وكان رئيس جنرالات جيش
المملكة بتنصيب اغسطوس وكان كثير المعارف والطمع فلذا كان رئيس
عصبة ثالثة وذلك انه لم يرض باغسطوس ولا باستانسلاس فبذل الجهد
ان يتولى بنفسه على المملكة فلم يفده ذلك شيأ فاكتفى بكونه رئيس حزب
ولم يكن لمن كان تحت اوامره من جيش المملكة ماهية وانما اباح لهم السلب
والنهب فى بلادهم فكان كل من خشى من سلبهم او اصيب به يذهب الى
استانسلاس الذى كانت تتقوى شوكته شيأ فشيأ على التدريج
واما ملك اسوج فكان اذذاك مقيما مع عسكره فى الترنتساد وكان يأتى اليه
جميع الجيية اغلب ملوك النصارى فكان بعضهم يترجاه ان يترك اراضى
الايمبراطورية والبعض الآخر يغريه على محاربة الايمبراطور نفسه حتى شاع
فى جميع المحال انه تحزب مع فرانسا على تدمير العائلة النمساوية الايمبراطورية
وكان من جملة هؤلاء الاجيية دوق شهير يقال له جونى مار لبوروغ كان
مبعوثا من طرف جانة ملكة ابرطانيا الكبرى وكان من خبره انه لم يحاصر
مدينة الا اخذها ولم يذهب الى غزوة الا ظفر فيها وكان فى مدينة سنت جامس
من اعظم جلساء ملكتها وكان فى ديوان وكلاء الملة بمملكة الانكليز رئيس فرقة
وكان اذا بعث الى البلاد الاجنبية بصدد التدبير يفوق فى ذلك مدبرى عصره
وكثيرا ما آذى فرانسا بتدبيراته وحروبه ويحكى عن كاتب سرامراء الدولة
الانكليزية وهو مسيو باجل وكان من ذوى الفضل والمعارف انه قال ان اعيان
الدولة قد عزموا غير مرة على معارضة هذا الدوق فى جميع ما يعرضه عليهم
فجاء اليهم وصار يكلمهم باللغة الفرنساوية وكان لا يحسنها حتى امالهم الى رأيه
انتهى وقد اخبرنى بهذه الحكاية الامير بولنغبروق
وكان هذا الدوق والامير اوجين الذى كان معه فى نصراته وهنسيوس

وكيل

وكيل مملكة الفلمنك هم الذين يديرون الامور الحربية الصادرة من المتعاهدين فى شأن فرانسا وكان هذا الدوق يعلم ان كرلوس مغتاظ من الدولة الايمبراطورية بل ومن الايمبراطور نفسه وان الفرنساوية التمسوا منه الاعانة وانه ان انضم هذا الفاتح الى الفرنساوية الذين هم حزب لويز الرابع عشر اضر ذلك بالمتعاهدين المتحزبين على فرانسا .

نعم وان كان كرلوس الثانى عشر حلف (فى سنة ١٧٠٠ سنة) انه لايكون له دخل فى محاربة لويز الرابع عشر مع المتعاهدين الا ان هذا الدوق كان يعتقد ان الملوك لايكونون ابدا امراء كلامهم بحيث لايحنثون فى ايمانهم اذا رأوا ان الحنث يعود عليهم بالمنفعة او يترتب عليه عظمهم وفخارهم فسافر من مدينة لاهيا عازما على التجسس والبحث عن مقاصد ملك اسوج وقد اخبرنى مسيو فبريس وكان فى ذلك الوقت مع كرلوس المذكور ان الدوق مارلبوروغ حين وصل عندهم وقعت المخاطبة سرا بينه وبين بارون يقال له غويرتز وكان قد شرع هذا البارون اذ ذاك فى مشاركة القونتة بيبير فى تلقى اسرار الملك ولم يقع بين الدوق والقونتة المذكور كلام مع ان هذا القونتة كان اعظم وزراء ملك اسوج ثم ركب الدوق عربة البارون غويرتز حتى وصل الى عرضى كرلوس فنشأ عن ذلك ان صار ما بينه وبين القونتة بيبير من الود مشوبا بنوع من التكدير ومع ذلك فهو الذى احضر الدوق الى الملك وكان بصحبتهما روبنسون وزير مملكة الانكليز فاخذ الدوق يكلم الملك بالفرنساوية ويقول له ما كان اسعدنى لو تعلمت تحت رعايتكم ما اجهله من الفنون الحربية فلم يجبه الملك بشئ مما يستحسن فى المخاطبات غير مكترث بكون الذى يكلمه مارلبوروغ وانا اعلم ان ملك اسوج وجد هذا الدوق لابسا ملابس فاخرة يرغب فيها كثيرا وان منظره يقضى بكونه ليس من ارباب الحروب فصارت محاورتهما غير مقصورة على شئ بعينه مع كونها متعبة وذلك ان كرلوس كان يتكلم باللسان الاسوجى ويترجم عنه روبنسون وكان من صفة مارلبوروغ انه لايبادر بالافصاح عما هو آت بصدده وانه بالاعتياد والتمرن صارت له

مملكة يعرف بها احوال الناس ويطلع على مقاصدهم الخفية بما يستنبطه من افعالهم واشاراتهم وكلامهم فلذا ادرك ما فى ضمير الملك وعرف مقصوده وذلك انه حين تكلم معه فى شأن الحرب رأى انه يكره فرانسا بطبعه كراهة شديدة وانه يسر من التكلم فى شأن فتوحات المتعاهدين عليها وكان اذا جرى على لسان الدوق اسم قيصر الموسقو احمرت عينا كرلوس كانهما يقدحان نارا من الغضب مع ان المخاطبة فى هذا الشأن كانت خفيفة لا تقتضى ذلك وشاهد هذا الدوق زيادة على ذلك خرطة مرسوما فيها بلاد الموسقو موضوعة على طاولة امامه فعرف بمجرد ذلك ان الغرض الحقيقى لملك اسوج ومرغوبه ان يعزل قيصر الموسقو بعد عزل ملك له وفهم ان مكث هذا الملك فى مملكة سكس ليس الا لعمل مشارطات صعبة مع ايمبراطور المانيا وكان هذا الدوق يعلم ان هذا الايمبراطور لا تمكنه المعارضة فى هذا الشأن فيحصل مقصود الملك مع السهولة فلما عرف الدوق مقصود كرلوس تركه على ما هو عليه مكتفيا بكونه اطلع على سريرته من غير ان يظهر له ما هو آت بصدده وقد اخبرتنى بهذه الحكاية دوقيسة زوجة مارلبوروغ المذكور التى تأيمت بعده وكانت موجودة فى وقت تأليف هذا الكتاب

ولما كان يندر ان ايقاع المصالحات يتم ويحصل من غير رشوة وكان من المشاهد ان وزرآء الممالك المرخصين فى هذا الخصوص يشرى منهم سخط ملوكهم ورضاؤهم بالدراهم ظن جميع اهالى اوربا ان الدوق مارلبوروغ لم ينجح فى مقاصده عند ملك اسوج الا ببذل اموال جسيمة للقونتة بيير فترتب على ذلك انحطاط سيرة هذا القونتة الاسوجى الى الآن والذى ظهر لى بعد الفحص الشديد عن منشأ هذا التشنيع والتكلم فى القونتة المذكور حسب الامكان انه لم يقبل من مارلبوروغ شيأ وانما قبل من ايمبراطور المانيا هدية متوسطة غير جسيمة المقدار بعثها له مع القونتة ورانسلو وكان ذلك باجازة كرلوس ورضائه ومن المعلوم ان كرلوس كان مصمما على عزل قيصر الموسقو وانه لم يسمع فى شأنه نصيحة احد تحمله على العدول عن تصميمه وكان

غير

غير محتاج لاراء بيير في شأن هذا القيصر من حيث الانتقام الذي كان يبحث عنه منذ مدة طويلة

وبالجملة فمما يحقق براءة هذا الوزير ما صدر من كرلوس في شأنه من التشريف الذي يدل على حسن سيرته حين بلغه انه مات ببلاد الموسقو حيث نقل جسمه الى استخلم وامر ان تعمل له جنازة عظيمة على طرف الخزينة

ولما كان هذا الملك لم يصب الى ذلك الوقت بمصيبة بل ولم يتأخر نجاحه في شئ من مقاصده اعتقد ان ظرف سنة يكفيه في عزل قيصر الموسقو وانه يرجع بعد ذلك الى بلاده ويصير حكما بين جميع ممالك اوربا لكنه اراد قبل ذلك ان يذل ايمبراطور المانيا

وذلك ان البارون استرالهام كان قد بعثه ملك اسوج الى مدينة ويانه فوقع بينه وبين القونتة زوبور وكان حاجب الايمبراطور مشاجرة في وقت الاكل منشاوها ان هذا القونتة ابى ان يشرب على محبة كرلوس قائلا مع الانفة انه ملك كثير الاضرار بسيدي فكذبه استرالهام وضربه على وجهه وما كفاه ذلك حتى تجاسر على طلب حقه في الديوان الايمبراطوري فخوف الايمبراطور من غيظ ملك اسوج جبره على انه ينفي القونتة المذكور وكان ينبغي له ان يأخذ بناصره لما انه من رعيته ومع ذلك فلم يقنع كرلوس بما حصل بل طلب من الايمبراطور ان يرسله اليه

فعند ذلك امتثل ديوان ويانه واجاب طلب ملك اسوج وارسل هذا القونتة اليه فوضعه في السجن بمدينة استيتين مدة وبعد ذلك خلى سبيله

وطلب منهم زيادة على ذلك امرا يخالف قوانين الملل وهو ان يسلموا له في الموسقو بين الذين كانت عدتهم الفا وخمسمائة وكانوا قد انقذوا انفسهم منه بفرارهم الى اراضي هذه الايمبراطورية فلزم لديوان ويانه ان يرضى بهذا الطلب الخارج عن العادة غير انه كان في ويانه اذذاك ايلجي موسقوبي هرب هؤلاء المساكين وفرقهم الى طرق مختلفة ولولا ذلك لظفر بهم اعداؤهم

وطلب امرا ثالثا وهو آخرها واصعبها وذلك انه جعل نفسه حماية وملجأ

لرعايا الايمبراطور الذين كانوا متدينين بالدين اللوثريانى وكانوا مقيمين باقليم سليزيا المنسوب الى العائلة النمساوية لا للدولة الايمبراطورية حيث طلب من الايمبراطور ان يعيد لهم حريتهم ومزاياهم التى كانت مرتبة لهم سابقا فى المشارطات الوسفالية ونسختها مشارطات رسويك فاجاب الايمبراطور طلبه حيث لم يكن مرامه الا ابعاد هذا المجاور الخطر عنه وامتثل امره واعاد لهم ما طلب منه فصار لهؤلاء اللوثريانيين المقيمين باقليم سليزيا ما ينوف على مائة كنيسة تركها لهم القانوليقيون عملا بهذه المشارطة ولكن اغلب هذه العطايا التى وصلت اليهم حين كان الدهر مساعد الملك اسوج سلبت منهم بمجرد عجزه وعدم امكانه ان يرتب قوانين على غيره

وهذا الايمبراطور الذى جبر على فعل ما ذكر امتثالا لاوامر كرلوس كان يسمى يوسف وكان البكرى من ولدى ليوپلد واخا كرلوس السادس الذى خلفه من بعده وكان بقربه وكيل من وكلاء البابا فلامه ملامة شديدة على كون ايمبراطورقانوليقى مثله يسلم فى مصالح دينه للوثريانيين فاجابه وهو يتبسم بقوله ينبغى لك ان تحمد الله على كون ملك اسوج لم يطلب منى ان ادخل فى الدين اللوثريانى فانه لو طلب منى ذلك لتحيرت ولم ادر كيف اصنع

وكان القونتة المسمى وراتسلو اجيا للايمبراطور فبعثه الى كرلوس بالمشارطات المتعلقة باللوثريانيين المقيمين بسليزيا وعليها امضا الايمبراطور فجاء الى كرلوس فى مدينة لبسيق فقال كرلوس انى صرت الآن من اعظم المحبين للايمبراطور الا انه كان مغيظا كثيرا من ديوان رومة لانه كان يعطل عليه تنفيذ اغراضه حسب الامكان وكان كرلوس ينظر الى هذا الديوان بعين الاحتقار وعدم الاعتبار لان نصف ممالك اوربا كان عدوا لهذا الديوان وكان دائما على حذر من النصف الآخر فلم يكن نفوذ كلمته الا بحزمه وتدبيره ومن ثم كان كرلوس مصمما على الانتقام منه وقال للقونتة وراتسلو ان الاسوجيين سابقا كانوا قد تغلبوا على رومة وانهم باقون على خصالهم الحميدة لم يتغيروا كما تغيرت رومة وارسل يخبر البابا بانه لابد ان يطلب منه ذات يوم ما تركته الملكة كرستينة

فى رومة من الاموال والامتعة وكان لا يعلم الى اى محل يذهب هذا الشاب الفاتح بسطوته وحروبه لو ساعده الدهر فكان يعتقد انه لا يتعذر عليه شئ ومن ثم ارسل بمساعدة ضباط الى اسيا بل والى مصر ليرسموا له المدآئن ويخبروه بالقوة العسكرية فى تلك الممالك ومن المعلوم انه لو كان فى ذلك الوقت انسان يمكنه ازالة دولة العجم والترك والتغلب على ايطاليا لم يكن ذلك الانسان الا كرلوس الثانى عشر فانه كان مثل اسكندر فى السن والمهارة الحربية والمشروعات بل كان يزيد عليه فى التجلد على المشاق وفى القوة وكان لا ينهمك مثله على اللذات بل ربما كان الاسوجيون اعظم من المقدونيين واقوى منهم ولكن مثل هذه المقاصد العظيمة اذا حصل فيها الظفر والنجاح كانت تعتبر كانها من الامور الالهية الخارقة للعادة واذا لم يحصل فيها نجاح لسوء حظ من شرع فيها اعتبرت كانها اوهام وخيالات

وبالجملة فانتفت عن كرلوس جميع الموانع ونفذ اغراضه فبعد ان اذل الامبراطور ورتب قانونا على الامبراطورية وحمى دينه اللوثريانى بين القاثوليقيين وعزل ملكا ونصب آخر ورأى ان جميع الملوك يخافونه ويفزعون منه استعد للسفر ومع انه اقام بمملكة سكس سنة لم يشتغل فيها بشئ لم تؤثر لذات هذه المملكة ومسراتها فى اخلاقه وعوايده شيأ فكان يركب فرسه فى اليوم ثلاث مرات ويستيقظ فى الساعة الرابعة من الصباح على حسب الساعات الافرنجية (وذلك عند الفجر تقريبا) ويلبس وحده ولا يشرب نبيذا ولا يمكث على المائدة الا مقدار ربع ساعة ويعلم جيوشه كل يوم ولم يكن همه الا فى اخافة ممالك اوربا وارهابها

ولم يدر الاسوجيون الى اى محل يذهب بهم هذا الملك وانما ظنوا انه يريد بلاد الموسقو وقد قال قبل سفره بايام للجنرال الذى يعين المنازل العسكرية ائتنى بصورة الطريق من مبدئه لبسيق وسكت لحظة عند هذه الكلمة نخشى ان لا يفهم الجنرال مقصوده فقال له وهو يضحك الى جميع تخوت ممالك اوربا فاتى له هذا الجنرال بصورة جميع الطرق وبدء منها بطريق لبسيق الموصلة الى

استخلم وكتبها دون غيرها بحروف كبيرة وذلك لان اغلب الاسوجيين كانوا متشوقين للرجوع الى مدينة استخلم الآن كرلوس لم يكن يخطر بباله ان يرجعهم الى اوطانهم وقال للجنرال المذكور قد عرفت من هذه الصورة المحل الذي تريدان نذهب اليه ولم تدران بينك وبين استخلم امدا طويلا وكان الجيش في ذلك الوقت سائرا بقرب مدينة درسدة وكان كرلوس متقدما على الجيش كما هو عادته بعيدا عن خفرائه بمائتين او ثلثمائة قدم فخفي عن ابصارهم على حين غفلة فحث السير جماعة من ضباطه وارخوا اعنة خيولهم في طلبه والبحث عنه في جميع الجهات فلم يجدوا له خبرا ولم يقفوا له على اثر فوقع في الجيش الحزن والفزع وامسكوا عن السير واجتمع الجنرالات للمذاكرة في هذا الشأن وصار الجيش في حيرة وضجيج من هذا الامر فبينما هم كذلك اذ مر بهم رجل سكسوني فاخبرهم بحقيقة الحال

وذلك انه حين مروره بقرب مدينة درسدة اشتاق لزيارة الملك اغسطوس فدخل المدينة راكبا وخلفه ثلاثة او اربعة من رؤساء الضباط فسئلوا عن اسمائهم عند ابواب المدينة فقال كرلوس اسمي كرل واني عسكري وغير من معه اسماءهم ايضا فرآهم القونتة افليمنغة مارين في المدينة فعرفهم فذهب سريعا ليخبر سيده وصار مشغول البال بما يلزم عمله لملاقاة الملك وتكلم مع اغسطوس في هذا الشأن فبينما هم كذلك اذ دخل كرلوس منتعلا في اوضة اغسطوس قبل ان يفيق من دهشته وكان اذ ذاك مريضا وعليه ثوب النوم فبادر عند ذلك بلبس ثيابه وجلسا معا على المائدة فكان كرلوس اشبه بمن عزم على السفر وجاء لتوديع صاحبه ثم ذهب لينظر حصون المدينة واسوارها وفي هذا الوقت بعينه ظن رجل من ليونيا كان مطرودا من مملكة اسوج وانتظم في سلك العساكر السكسونية انه لا يجد له فرصة اعظم من ذلك في طلب الصفح عنه من الملك فترجى من اغسطوس ان يسأل له كرلوس في شأن ذلك معتقدا ان كرلوس لا يابى مراعاة خاطر ملك تغلب هو على مملكته وقد حضر عنده الآن في مثل هذا الامر الخفيف فاجابه اغسطوس من غير

توقف وتكفل له بذلك وكان اذذاك بعيدا عن كرلوس فتكلم فى شأن ذلك مع هوردوهو جنرال اموجى وقال متبسما اظن ان سيدك لا يخيب املى فى هذه الشفاعة فقال له الجنرال المذكور انك لا تعرف حقيقة حاله فهو فى هذا المحل اشد اباء من غيره فلم يبال اغسطوس جهدا فى طلب الصفح عن هذا الليونيانى والح على كرلوس فى ذلك فامتنع من اجابته على وجه يفيد انه لا ينبغى له العود الى السؤال ثانيا وبعد ان مضت هذه الساعات القليلة فى تلك الزيارة الغريبة عانق اغسطوس وسافر فلما رجع الى جيشه وجد جميع الجنرالات مغمومين على غيبته عنهم وقالوا له انا قد عزمنا على محاصرة مدينة درسدة لو اسرك اهلها فقال الملك انهم لا قدرة لهم على مثل ذلك وبلغه فى اليوم الثانى وهو فى جيشه ان اغسطوس عقد مشورة غريبة فى مدينة درسدة فقال البارون استرلمسام سيظهر لكم ان هذه الشورى انما هى فى شأن ما فاتهم فعله بالامس وبعد مضى ايام حضر رنشلد عند الملك وصار يتكلم معه متعجبا من ذهابه الى درسدة فقال له الملك كرلوس انى معتمد دائما على سعد حظى ومساعدة الدهر لى غير انه مر بى وقت مشئوم وهو ان افلمينغة كان يريد ان اطيل المكث عندهم ليغدر وابى

(المقالة الرابعة)

فى الكلام على نصرة كرلوس الثانى عشر بمملكة سكس وارتحاله منها متتبعا قيصر الموسقو وتوغله فى داخل مملكة اوقرينة وعلى ما وقع له من الخسارات وعلى جرحه وواقعة بلطاوى وما ترتب عليها واضطراره الى الهروب الى بلاد الترك وكيفية قبوله فى اقليم بسربى (وهو اقليم بين بغدان ونهر طونة والبحر الاسود)

قد ارتحل كرلوس من مملكة سكس فى شهر ايلول سنة ١٧٠٨ ومعه جيش يبلغ ثلاثة وأربعين الفا كانوا قبل ذلك متدرعين بالحديد وصاروا الآن متدرعين بالذهب والفضة لثروتهم من نهاب مملكتى له وسكس وكان مع كل عسكرى

من المعاملة النقدية خمسون ريالا ولم تكن الارط قاصرة على عددها اللازم لها
بل كان فى كل ارطة عدة رجال زائدين على عددها المعلوم وزيادة على هذا
الجيش كان لووانهوب وهو من اعظم الجنرالات ينتظره فى مملكته بعشرين
الف رجل وكان لهذا الملك ايضا جيش آخر فى مملكة فلندة يبلغ خمسة
عشر الفا وكانت تأتيه جموع عسكرية بجمعونها له من اسوج فبتلك الجيوش
كان لا يشك فى انه يمكنه عزل قيصر الموسقو
وكان القيصر اذذاك فى مملكة لثوانيا مشتغلا بتقوية فرقة تركها الملك
اغسطوس وباستمالتها اليه وكانت جيوشه منقسمة الى عدة ارط وكانت
تهرب فى سائر الجهات عند سماعها ان ملك اسوج قد قرب منهم لان القيصر
كان قد امر الجنرالات ان لا ينتظروا قدوم هذا الفاتح اذا كانت جيوشهم اقل
من جيوشه فامتثلوا امره
وفى اثناء سير هذا الملك المنصور تلقى الجيا من طرف الترك فقابله الايلجى
فى عرضى القونتة بيبير لان هذا الوزير كان دائما تعقد عنده المحافل العظيمة
وكان يحسن هيئته يدل على شوكة ملكه ورفعة منصبه لان الملك كان دائما
مسكنه وخدمه وملبسه اردأ من ادنى ضباط جيشه فلذا كان يقول
ان قصرى هو عرضى بيبير وكان مع هذا الايلجى التركى مائة عسكرى من
العساكر الاسوجية فقدمهم لكرلوس وكان هؤلاء العساكر قد اسرهم
القلموقيون وباعوهم فى بلاد الترك فافتداهم السلطان وارسلهم الى كرلوس
كأن ذلك اعظم هدية امكنه اهداؤها لهذا الملك ولم تصدر هذه الهدية
من طرف الدولة العلية لكونها تخشى بأس كرلوس وانما سببها انه لما كان
السلطان عدوا بالطبع لقيصر الموسقو وايمبراطور المانيا اراد ان يتحصن
منهما بالتحبب الى ملك اسوج ومعاهدته مع مملكته ثم ان الايلجى هنى
استانسلاس بالمنصب فانظر الى هذا الملك كيف اقره على منصبه فى مدة
قليلة المانيا وفرانسا والانكليز واسبانيا وبلاد الترك ولم يبق احد لم يقر
استانسلاس على منصبه الا البابا فانه انتظر حتى يساعد الدهر استانسلاس

ويتمكن من المنصب تمكنا تاما ولم يبادر بذلك كغيره لانه كان يعلم فى مبدء توليته ان ادنى حادثة تنزع منه الملك لعدم التمكن

وبعد ان قابل كرلوس ابجى الدولة العلية ذهب يبحث عن الموسقوبيين وكان عساكر قيصر الموسقو قد ترددوا الى مملكته واكثروا الدخول والخروج فيها نيفا وعشرين مرة فى اثناء الحرب وذلك لان هذه البلدة كانت مفتوحة من جميع جهاتها لخلوها عن الاسوار والحصون فلم تمنع جيش العدوان يأوى اليها فلذا كان عساكر الموسقوبيين يتجاسرون على الرجوع غالبا الى المحل الذى هزمهم فيه كرلوس بل وكانوا يتوغلون فى داخل البلد كما كان يفعل ملك اسوج وكان القيصر مدة اقامة كرلوس فى سكس قد تقدم الى ليو بلدة التى هى بالطرف الجنوبى من مملكته ثم سار جهة الشمال الى مدينة غردنو احدى مدن مملكة لثوانيا بالبعد عن ليو بلدة بمائة فرسخ

فترك كرلوس استانسلاس فى مملكته وترك معه عشرة آلاف اسوجى ورعاياه الجديدة لحماية مملكته الجديدة من الاعداء الاجنبيين واهل الوطن وسار فوق الجليد امام الخيالة قاصدا جهة مدينة غردنو وكان ذلك فى شهر كانون الثانى سنة ١٧٠٨ فجاوز نهر نيمان وهو على فرسخين من المدينة ولم يكن عند القيصر علم الى ذلك الوقت بسير ملك اسوج فلما بلغه ان الاسوجيين قد قدموا عليه خرج من باب المدينة الشمالى ودخلها كرلوس من الباب الجنوبى ولم يكن معه من الخفراء الاستمائة عسكرى لان باقى جيشه لم يستطع متابعته فى السير فولى القيصر هاربا ومعه اكثر من الف رجل لظنه ان مع كرلوس جيشا كاملا فاخبره فى ذلك اليوم رجل خائن من اهل له بانه انما ترك المدينة لستمائة رجل فقط وان معظم جيش كرلوس بينه وبين المدينة اكثر من خمسة فراسخ فعند ذلك لم يضيع الفرصة بل افرز من جيشه الفا وخمسمائة خيال ليلا للاغارة على ملك اسوج فى المدينة فوصل هؤلاء الجماعة الموسقوبيون وقد ساعدتهم ظلمة الليل الى مقدمة

خفرآء الاسوجيين من غيران يشعروابهم وكان عدد هذه المقدمة ثلاثين رجلا فثبتوا وحدهم لمصادمة الالف والخمسمائة رجل المذكورين مقدار ثمن ساعة وكان كرلوس اذذاك فى طرف المدينة من جهة اخرى فبادر بالمجىء الى جماعته مع باقى الخفرآء الستمائة فعندذلك بادر الموسقو بيون بالهروب ولم تمض الامدة قليلة حتى اتاه جيشه فتتبع عند ذلك الاعدآء وسارت الارط الموسقو بية التى كانت فى لتوانيا بالهروب الى جهة الشرق فى اقليم منسق بقرب حدود الموسقو وكان المحل الموعود لاجتماعهم وكان كرلوس قدوزع الاسوجيين الى عدة فرق فتبعوا الموسقو بيين وساروا خلفهم اكثر من ثلاثين فرسخا فى الطريق فكان كل من الهاربين والمتتبعين يحثون السير كل يوم مع ان الوقت اذذاك كان شديد البرد وذلك لانه منذ زمن طويل صارت جميع الفصول مستوية عند عساكر كرلوس وعساكر القيصر وانما كان الفارق بين الطائفتين هو خوف الموسقو بيين عند سماعهم اسم ملك اسوج

وكان مابين مدينة غردنو ونهر برسطين من جهة المشرق كله برك وصحارى وغابات واسعة وكان لايوجد فى سائر الاراضى الزراعية قوت ولامؤونة لان الفلاحين كانوا يدفنون فى الارض الحبوب وماشابهها مما لاتتلفه الارض فالجأت الضرورة العسكر ان صاروا يجسون الارض بحراب للكشف عن تلك المخازن الارضية فكان الموسقو بيون والاسوجيون يأكلون على التعاقب من هذا القوت غيرانهم كانوا لايجدونه دائما ولم يكن فيه كفاية لهم لكن لما كان كرلوس قد تبصر فى عاقبة هذا الامر الشديد امر حين عزمه على السفر باستصحاب الزاد لاجل مؤونة جيشه فكان لايعوقه عن تتبع الموسقو بيين عائق ولزمه حين مروره بغابة منسق ان يقطع الاشجار فى كل وقت ليسلك الطريق بجيوشه وذخائره وامتعته وبعدان جاوزها وصل فى اليوم الخامس والعشرين من شهر حزيران سنة ١٧٠٨ امام نهر بيريزين تجاه محل يقال له بورسلو

واما

واما قيصر الموسقو فانه جمع فى هذا المحل معظم جنوده ونصب فيه معسكره
قاصدا منع الاسوجيين من اجتياز هذا النهر فامر كرلوس بعض ارهط
من جيشه ان ينزلوا على شاطئه تجاه بورسلو كانه يريد بذلك انه يجتاز النهر
نصب اعين اعدائه وصعد فى ذلك الوقت مع جيشه مسافة ثلاثة فراسخ
جهة منبع هذا النهر والقى عليه قنطرة وسار عليها بالرغم عن طائفة من
الموسقويين يبلغ عددها ثلاثة آلاف كانت فى ذلك المحل بصدد منعه من
الاجتياز وتوجه نحو الاعداء من غير تمهل فلم ينتظره الموسقويون حتى
يقدم عليهم بل رحلوا جهة نهر بروسطين وصاروا يخربون جميع الطرق
ويفسدون كل شئ صادفوه فى طريقهم ليعوقوا الاسوجيين عن السير
ولكن كان كرلوس يغلب هذه الموانع ويحث السير دائما جهة نهر بروسطين
فصادف فى طريقه عشرين الفا من الموسقويين متحصنين فى محل يقال له
هولوسين خلف غدير لا يمكن الوصول اليه الا باجتياز نهر فلم ينتظر كرلوس
وصول بقية المشاة اليه بل نزل فى الماء قبل خفرآئه المشاة فاجتاز النهر
والغدير وكان الماء يضربه غالبا الى اعلى كتفيه وفى اثناء ذهابه للاعدآء
على هذا الوجه امر الخيالة ان يسيروا حول الغدير ويهجموا على الاعدآء
من الجانب الآخر فصير الموسقويون حيث لم يجدوا ما يمنع الاسوجيين
عنهم وذلك لان الملك هجم عليهم مع خفرآئه المشاة وادركته الخيالة
بعد ذلك بيسير
فاقتحم هؤلاء الخيالة صفوف الاعداء وادركوا الملك فى اثناء القتال فعند ذلك
ركب فرسه لكنه بعد ذلك بقليل من الزمن وجد فى المعركة شابا من اعيان
اسوج يقال له جيلنستيرن كان يحبه الملك كثيرا قد جرح جرحا بليغا يمنعه
من السير فنزل كرلوس عن فرسه وامره بركوبه ومكث هو فى اول جيش
المشاة يعطى الاوامر راجلا وربما كانت هذه الغزوة اخر غزواته لانه
كابد فيها مشاق عظيمة واظهر فيها من المهارة ما لا تدركه العقول
وجعلوا التذكار هذه الواقعة تمثالا رسموا على احدى جهتيه صورة محل

الواقعة وعلى الاخرى نصرته فيها

فانهزم الموسقوبيون من جميع الجهات وجاوزوا نهر بروسطين الفارق بين مملكة له وبلادهم ولم يأل كرلوس جهدا فى طلبهم وتتبعهم فذهب فى اثرهم وجاوز هذا النهر العظيم الذى يشق مدينة مويلو وهى آخر مدن مملكة له وكانت غير مستقرة على حالة واحدة بل تارة كان يحكمها اللاهيون وتارة يحكمها الموسقوبيون فكانت عرضة لاغارات كل من المملكتين

فلما رأى قيصر الموسقو مملكته التى جدد فيها الفنون والتجارة قد صارت عرضة لحرب يترتب عليه تعطيل جميع مقاصده العظيمة بل ربما كان ينشأ عنه خلعه عن المملكة خطر بباله ان يتصالح مع كرلوس فارسل رجلا من اعيان مملكة له يعرض على كرلوس مشارطات الصلح لينقطع الحرب بينهما وحيث كانت عادة كرلوس انه لا يصالح اعداءه الا فى دار اقامتهم وكرسى سلطنتهم بعد ان يدخل بلادهم منصورا عليهم اجاب بطرس بقوله اصالح حضرة القيصر فى مدينة الموسقو فلما رأى القيصر المذكور جوابه ووجده مشتملا على الكبر والفخر قال ان اخانا كرلوس يزعم دائما انه يقفو اثر اسكندر ولكنى اظن انى لست دارا ملك العجم

واذا اصعدت جهة الشمال من مدينة مويلو التى جاوز فيها الملك نهر بروسطين وسرت جهة امتداد ذلك النهر على حدود مملكة له والموسقو وجدت بالبعد عن تلك المدينة بثلاثين فرسخا بلدة يقال لها سمولنسقو بها طريق عظيمة توصل من مملكة له الى الموسقو فهرب القيصر فى هذه الطريق فحث الملك السير فى طلبه حتى انه وقع القتال غير مرة بين ساقة خفراء الموسقو ومقدمة جيش الاسوجيين وكانت النصرة دائما للاسوجيين غير انهم ضعفوا من كثرة غلبتهم فى هذه الحروب الصغيرة التى لا طائل تحتها فانهم كانوا يفقدون فيها كثيرا من رجالهم

وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر ايلول سنة ١٧٠٨ اغار الملك على جيش مركب من عشرة آلاف من الخيالة وستة آلاف من القلموقيين بقرب مدينة

ميوانسقو

وهؤلاء القلموقيون هم من التتار المقيمين بين مملكة استراقان وهى التزامات القيصر ومملكة سمرقندة وهى بلاد التتار الاسبوقيين ووطن طومور المشهور باسم طامرلان وتمتد بلاد القلموقيين جهة الشرق الى الجبال الفارقة بين بلاد المغول وآسيا الغربية وكان الذين يقيمون جهة مملكة استراقان يدفعون الجزية للقيصر وكان مطلق التصرف فى الحكم عليهم غيرانهم لما كانوا من الطوائف الرحالة النزالة كان غير متمكن من تنفيذ احكامه عليهم فى كل وقت وحمله ذلك على ان يسلك معهم مسلك السلطان الاعظم مع العرب سكان البوادى فكان تارة يحمل ما يقع منهم من السلب والنهب وتارة يعاقبهم وكانت ارطة الموسقوبيين لا تخلو دائما عن هؤلاء القلموقيين حتى ان القيصر بذل الجهد حتى وصل الى كونه يعلمهم الضبط والربط العسكرى كبقية عساكره

فاغار ملك اسوج على هذا الجيش ولم يكن معه الاست ارط من الخيالة واربعة آلاف من المشاة فزحزح الموسقوبيين عن مكانهم وكان كرلوس اذ ذاك قائد ارطة اوستروغوسى فاستطرد الاعداء امامه فكر عليهم وكانت الطرق منخفضة غير معتدلة فتوارى بها القلموقيون فلما وصل اليهم الملك ظهروا من مخالبهم وحجزوا بين الارطة التى مع الملك وبقية جيش الاسوجيين واحدق الموسقوبيون والقلموقيون بهذه الارطة الى ان وصلوا للملك وقتلوا اثنين من المعاونين كانا بجوار بان قريبا منه واصيب فرسه فمات لوقته فقدم له الركبدار بفرس اخرى فقتل الركبدار والفرس التى اتى بها برمية اسهم لم تخطئهما فصار كرلوس يقاتل راجلا ومعه بعض ضباط يجرون حوله دائما

فصار ضباطه ما بين اسير وجريح وقتيل على التراب طريح وطريد عنه بازدحام الاعداء عليهم ولم يبق معه الا خمسة رجال وقتل بيده اكثر من اثنى عشر رجلا من غير ان يصاب بجرح اصلا لانه كان مصحوبا بالسعادة التى كان يثق

بها في جميع احواله وبعد ذلك جاء امير الاي يسمى دوردوف واقتحم صف القلموقيين مع فرقة من جماعته وانقذ الملك منهم فتتبع بقية الاسوجيين التتار وانتظمت صفوفهم ثانيا وركب كرلوس فرسه ومع ما حصل له من هذه المشاق تتبع الموسقو بين مسافة فرسخين

وكان هذا المنصور دائما يتتبع الطريق الموصلة الى كرسي الموسقو وكان بين مدينة ... ولنسقو التي حصلت بقربها الواقعة وبين كرسي الموسقو نحو مائة فرسخ فرنساوي وقل زاد الجيش جدا حتى انهم سألوا الملك ان ينتظروا وصول الجنرال لوانهوب لكونه ارسل بصدد جلب الزاد اليهم وان يأتيهم بمدد مقداره خمسة عشر الفا فلم يسمع الملك هذه النصيحة النافعة كما هو عادته بل زاد على ذلك امر اتعجب منه جميع الجيش وهو انه عدل عن الطريق الموصلة لبلاد الموسقو وسار بهم في الجنوب جهة اقليم اوقرينة وهي بلاد القوزاقيين وهي بين بلاد التتار الصغيرة ومملكة له وبلاد الموسقو وامتدادها من الجنوب الى الشمال نحو مائة فرسخ من الفراسخ الفرنساوية وكذلك تقريبا من المشرق الى المغرب ويقسمها نهر بروسطين الى قسمين متساويين وهو جار فيها من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ومدينة هذا الاقليم الاصلية هي باتورين وهي على نهر صغير يقال له سيمة والجزء المتوغل في الشمال من ذلك الاقليم كثير الخصوبة والزراعة وجزؤه الجنوبي موضوع تقريبا على ثمان واربعين درجة وهو اكثر بلاد الدنيا خصوبة وصحاري غيرانه لما كانت حكومة تلك البلاد غير منتظمة لم يكن لهذه الخيرات المتولدة منها ثمرة ولا فائدة لاهلها وذلك لان بلادهم مجاورة لبلاد التتار الصغيرة فكانوا لا يزرعون ولا يغرسون لان تتار بودزياق وتتار بريكوب والبغدانيين كانوا جميعا من ارباب السلب والنهب فلو زرع هؤلاء الاهالي او غرسوا اشيأ لاتلفوه عليهم

وكان اهل بلاد اوقرينة يميلون كثيرا الى الحرية لكن لما كانت بلادهم محاطة ببلاد الموسقو ومملكة السلطان الاعظم ومملكة له لزمهم ان يبحثوا

عمن يحامى عنهم ويكون سندا لهم من احدى هذه الممالك الثلاث فكانوا اولا
تحت حكم مملكة له وكانت تلك المملكة تعاملهم معاملة الارقاء المستعبدين
فسلموا امرهم للموسقو بيين فسلكوا فى الحكم عليهم مسلكا صعبا جدا
وكان للاوقرنيين قبل ذلك حق فى انتخاب امير يولونه عليهم يسمونه جنرالا
فعندما حكمهم الموسقو بيون حرموهم من هذه المزية وصار ارباب الديوان
الموسقوبية هم الذين ينتخبون لهم هذا الجنرال
وكان القائم بهذا المنصب اذذاك رجلا من اعيان مملكة له يسمى مازيبة
ولد فى اقليم پودوليا ونشأ فى خدمة يان كاسمير وصار له المام فى ديوان هذا
الملك بالعلوم الادبية وكان من خبره انه فى حال صغره حصل بينه وبين
زوجة رجل من اعيان اللاهيين الفة ومودة سرية فلما اطلع زوجها على
ذلك جرده من ثيابه وربطه على فرس جموح وارسلها تعدو به على تلك الحالة
حتى وصلت به الى بلاد اوقرينة لانها كانت منها فى الاصل وقد اودى به
التعب والجوع حتى اشرف على الهلاك فرءآه بعض الفلاحين فازالوا ما به
ومكث عندهم مدة طويلة وحصلت له شهرة فى عدة غارات على التتار وصار
القوزاقيون يعتبرونه ويعظمونه لكثرة معارفه ولما كان يزداد دائما فى الشهرة
والتعظيم حمل ذلك قيصر الموسقو على ان يوليه جنرالا على بلاد اوقرينة
فاتفق ذات يوم انه اجتمع مع القيصر على مائدة فامره القيصر ان يعلم
القوزاقيين الضبط والربط وان يجعلهم مستمرين تحت حكمه بالكلية
فقال له مازيبه ان حالة اوقرينة وعقول اهاليها تأبى ذلك وكانت الخمرة
قد دبت فى رأس القيصر وكان من عادته انه اذا اشتد غضبه لا يمكنه تسكينه
فقال لهذا الامير انك خائن وهدده بانه يضعه على الخازوق
فلما رجع مازيبه الى اقليم اوقرينة عزم على الخروج والعصيان وسهل عليه
وسائل ذلك مجيء جيش ملك اسوج عند حدود اقليمه فصمم على الاستقلال
وعلى ان يجعل لنفسه مملكة ذات شوكة من اقليم اوقرينة ومن بقايا
ايمبراطورية الروسيا وكان شجاعا جسورا لا يسكن من الاشتغال مع انه كان

كبير السن فتحزب مع ملك اسوج على عزل قيصر الموسقوفى اقرب زمن لتعود منفعة ذلك عليهما

وقال له الملك ان الملتقى بقرب نهرد سنا فعاهده مازيبة على ان ياتى له فى هذا المحل مع ثلاثين الفا من العساكر مصحوبين بذخائر الحرب والزاد والخزائن التى لا تعد ولا تحصى فعند ذلك سار جيش الاسوجيين قاصدا تلك الجهة من غير ان تنشرح لذلك صدور الضباط لانهم كانوا لا يعلمون معاهدة الملك مع القوازقيين وبعث كرلوس للجنرال لووا نهوب يحثه على ان يبادر بالحضور عنده مع الارطة التى بصحبته وان يأتى له بالزاد فى اقليم اوقرينة وكان قد عزم على ان يقيم به مدة الشتاء حتى يقف على حقيقته ليتمكن فيما بعد من فتح بلاد الموسقوفى فصل الربيع الآتى وتوجه فى ذلك الوقت جهة نهردسنا الذى يصب فى نهر برسطين عند مدينة قيوفى وهى اعظم مدن ذلك الاقليم

وما وجده الاسوجيون من العوائق فى طريقهم المتقدمة كان كلا شئ بالنسبه الى ماصادفوه منها فى هذه الطريق الجديدة فانهم اضطروا فيها الى اجتياز اجمة يبلغ طولها خمسين فرسخا ممتلئة من السبخة وكان دليل جيشهم جنرالا يقال له لاجرقون معه خمسة آلاف من العساكر ومعه ايضا الجماعة التى تسلك الطرق فاخطأ الطريق الحقيقية واضل الجيش عنها جهة الشرق بمسافة ثلاثين فرسخا وبعد مضى اربعة ايام من سيرهم عرف الملك خطأ هذا الجنرال فرجعوا بعد التعب والمشقة الى الطريق الحقيقية ولكن اغلب المدافع والعربيات وقعت فى وحل البرك وتلفت

وكانت غاية امرهم انهم بعد ان ساروا مدة اثنى عشر يوما مع التعب الشديد وخلص زادهم وصلوا الى شواطئ نهرد سنا فى المحل الذى تواعد الملك والامير مازيبه ان يتلاقيا فيه وقد لحقهم من التعب والجوع ما اسقمهم واضعف قواهم ولم يجدوا الامير المذكور فى ذلك المحل وانما وجدوا هناك ارطة موسقوبية متوجهة جهة الشاطئ الآخر من هذا النهر فتعجب الملك

من ذلك وعزم على ان يجتاز النهر ليشن الغارة على هذه الارطة وكانت
الشواطئ منحدرة جدا فاضطر العساكر ان ينزلوا منها بالحبال ثم اجتازوا
النهر على حسب عادتهم التى اعتادوها فنزل بعضهم فى قوارب صنعوها
بالسرعة وبعضهم اجتازه بالسباحة ولم تكن تلك الارطة الموسقوبية التى
كانت سائرة فى ذلك الوقت الا ثمانية آلاف فلم يمكنها ان تثبت امامهم امدا
طويلا بل ظهر الاسوجيون على هذا المانع ايضا

ثم دخل كرلوس فى هذه البلاد القفرة لا يدرى اين يذهب ولا يعلم هل بقى مازيبة
بوعده ام لا وبينما هو كذلك اذ ظهر هذا القوزاقى الا ان حالته تدل على انه
هارب لا معاهد ذو شوكة وذلك ان الموسقوبيين اطلعوا على مقصوده
فشنوا الغارة على القوزاقيين وقتلوا اغلبهم واسروا اصدقاءه والسلاح
بايديهم وكانوا ثلاثين رجلا وعاقبوهم بعقاب يسمونه رووهوان يأتوا بالرجل
ويطرحوه على صليب ويقطعوا اعضاءه ويضعوها على عجلة فى محل يراه
الخاص والعام واحرقوا امدنه ونهبوا خزائنه وقبضوا على الزاد والذخائر
التى كان قد اعدها للملك اسوج ولم ينج من ايديهم الا هو وستة آلاف وبعض
خيول عليها اموالهم لكن بشق الانفس ومع ذلك كان يحمل الملك
على الثبات والتصميم على ما هو آت بصدده ويذكر انه يعرف حقيقة هذه
البلاد المجهولة للاسوجيين وان القوزاقيين يحبون الملك وكانوا اذ ذاك
يكرهون الموسقوبيين كراهة شديدة فلذا كانوا يأتون الى عرضى الملك
افواجا لتكثير الجيوش الاسوجية

وكان كرلوس مؤملا ان الجنرال لوانهوب يأتى اليه بعوض ما تلف منه لانه
كان قد ارسل اليه ان يأتيه بخمسة عشر الفا من الاسوجيين يفضلون
فى الشجاعة على مائة الف من القوزاقيين وبالآلات الحربية والزاد فيحضر
عنده على حالة كحالة مازيبة تقريبا

وذلك ان هذا الجنرال جاوز نهر برستين من مدينة مويلو وسار بالبعد
عن تلك المدينة بمسافة عشرين فرسخا من الفراسخ الفرنساوية قاصدا الطريق

اوقرينة وكان معه من آلات الحرب ثمانية آلاف عربة ومن النقود ماجمعه فى طريقه من اقليم لثوانيا فلما وصل الى قرية ليسنوقر يبامن مجمع نهرى برونيا وسوسا اللذان يجريان منه ايصا فى نهر برسطين ظهر قيصر الموسقو قائدا جيشا مقداره اربعون الف موسقوبى تقريبا

وكانت عساكر هذا الجنرال الاسوجى لاتبلغ ستة عشر الفا ومع ذلك لم يحصن جيشه لان كثرة نصرات الاسوجيين جعلتهم لايلتفتون لعدد اعدائهم كثروا اوقلوا وانما كانوا يبحثون عن المحل الذى يجدونه مناسبا لهم فحمل الجنرال المذكور عليهم من غير تردد فى هذا الشأن وكان ذلك بعد الزوال من اليوم السابع من شهر تشرين الاول سنة ١٧٠٨ فقتل الاسوجيون من الموسقوبيين عند الصدمة الاولى الفا وخمسمائه فوقع الخلل فى جيش القيصر وصار عساكره يهربون فى جميع الجهات فعند ذلك عاين الوقت الذى اشرف فيه على الهزيمة الكاملة وعرف ان نجاة ممالكه متوقفة على نصرته فى هذه الواقعة وانه ان وصل لوانهوب الى ملك اسوج مع جيشه منصورا عليه تيقن هلاك نفسه

فلما رأى جيوشه قد اخذوا فى التأخر ورجوعهم القهقرى بادر الى السياقة وكانت من عساكر القوزاقيين والقلموقيين وقال لهم قدامر تكم ان تقتلوا كل من شرع فى الهروب من العساكر بل ان حصل عندى جبن وفررت من القتال فقد ابحت لكم دمى ثم رجع من هذا المحل الى مقدمة الجيش وتهكم على العساكر وحرضهم على الثبات وساعده على ذلك الامير منزيقوف والامير غاليتزان واما الجنرال لوانهوب فانه لما كان مأمورا من طرف سيده بان يلحقه بالسرعة من غير ان يتوانى فى الطريق اثر السير على القتال معتقدا ان ماصنعه مع الموسقوبيين يثبطهم عما كانوا عزموا عليه من تتبعه ولحاقه

فبينما هو كذلك اذ حمل عليه القيصر فى الساعة الحادية عشر من اليوم الثانى عند شاطئ غدير ووسع جيشه ليحيط بالاسوجيين فقاوموهم وثبتوا امامهم

ومكثم

ومكث القتال بينهما مدة ساعتين مع الثبات التام من الفئتين الا ان الموسقوبيين فقدوا من رجالهم بقدر ما فقده الاسوجيون ثلاث مرات ومع ذلك فلم يبرحوا عن مواضعهم ولم تثبت النصرة لاحد من الفريقين على الآخر

ولما مضت اربع ساعات من القتال جاء الامير بايير الى القيصر بمدد مشتمل على عدة ارط فاخذوا فى القتال ثالث مرة واضطرمت نيران الحرب بين الطائفتين اكثر من المرتين السابقتين وما زالوا كذلك حتى اتى عليهم الليل فكانت النصرة لاكثر الفريقين عددا وهم الموسقوبيون ووقع الخلل فى صفوف الاسوجيين فرجعوا على اعقابهم حتى وصلوا الى امتعتهم فعبرهم بذلك الجنرال لوانهوب وكانوا اذ ذاك خلف العربات ومع انهم فى هذه الواقعة كانوا مهزومين لانهم كانوا نحو تسعة آلاف تقريبا فلم يهرب منهم احد بل صفهم الجنرال للقتال بالسهولة كانهم لم ينهزموا واما القيصر فانه قضى ليلته وهو محترس من العدو وعساكره متسلحون ومنعهم ان يذهبوا للسلب وهددهم بانه ان صدر ذلك من ضابط عوقب بعزله وان كان من عسكرى عوقب بقتله

وامر فى صبيحة اليوم الثانى بشن الغارة رابعا على الاسوجيين فتأخر لوانهوب بعض فراسخ حتى وصل الى محل وجده مناسبا له بعد ان سد جملة من مدافعه واضرم النار فى عرباته

فبادر الموسقوبيون الى منع النار عن تلك الذخيرة فاخذوا منها ما يشوف على ستة آلاف عربة خلصوها من النار واراد القيصر تتميم هزيمة الاسوجيين فبعث اليهم جنرالا يقال له فلوغ ليشن الغارة عليهم خامسا فقال لهم هذا الجنرال هل لكم فى التسليم فابى ذلك لوانهوب واستعد خامس مرة للقتال وكثر فيه سفك الدماء كالحروب الاولى ففقد من تسعة الآلاف نصفهم تقريبا ولم يكن عند النصف الباقى قوة على الحرب فلما اقبل الليل جاوزه ومن بقى معه من العساكر وكانوا خمسة آلاف تقريبا نهر ساس بعد ان قاتل خمس مرات جيشا

مقداره ار بعون الفا واما القيصر فانه فقد من عساكره عشرة آلاف فى هذه الحروب الخمسة التى اكتسب فيها الفخار بكونه انتصر على الاسوجيين وافتخر بها الووانهوب ايضا حيث نازع القيصر فى طلب النصرة مدة ثلاثة ايام ثم رجع من غيران يأسره الاعداء فى المرة الاخيرة حتى وصل الى ملكه مفتخرا بانه دافع عن نفسه وعساكره بهذه المثابة غيرانه لم يكن معه آلات الحرب ولا مدد من العساكر

فعند ذلك نظر كرلوس فلم يجد معه زادا ولا ذخائر ورأى ان مخالطته مع مملكته بالمراسلات صارت متعذرة ووجد الاعداء محدقين به وهو فى بلدة ليس له بها منقذ الا الشجاعة .

وزيادة على تلك الحالة الصعبة جاء عليه الشتاء المشهور الذى حصل فى سنة ١٧٠٩ وكان برده فى تلك الاماكن التى هى حدود اوربا اشد منه فى فرانسا فاهلك جزأ من جيشه وذلك ان كرلوس اراد ان لا يكترث بالفصول كما كان لا يكترث باعدائه فسار بجيشه مسافات طويلة فى مدة هذا البرد المهلك فمات من عسكره فى اثناء سيره بسبب هذا البرد الفارجل وهو يراهم وصار الخيالة والمشاة غير متنعلين بل كادوا يعرون عن الملابس فالجأتهم الضرورة ان يتخذوا النعال من جلود البهائم الوحشية حسب الامكان بل كانوا فى الغالب لا يجدون ما يأكلونه واضطروا الى ان يلقوا اغلب مدافعهم فى الغدران والنهيرات لعدم الخيول التى تجرها وبالجملة فهذا الجيش الجرار الذى كان قبل ذلك بزهو بكثرته وثروته قل حتى صار اربعة وعشرين الفا قد افضى بهم الجوع الى الهلاك وانقطعت عنهم اخبار مملكة اسوج وتعذر عليهم ايصال اخبارهم اليها فتشكى بعض الضباط من هذه الحالة فقال له الملك متهكما هل ضاق صدرك لبعدك عن زوجتك فلو كنت عسكريا حقيقة لما تشكيت ولو وصلتك الى محل بعيد جدا بحيث لا تأتيك فيه اخبار من اسوج الا مرة فى كل ثلاث سنين مع المشقة

وقد اخبرنى الامير برنكاس الذى صار فيما بعد الجى بمملكة اسوج ان بعض

العسا كر تجاسر على ان يرى للملك مع اظهار الضجر والسأمة بحضور جميع
الجيش لقمة من زادهم سوداء بها عفونة وكانت من الشعير والخرطال وهو
نوع من الحبوب ولم يكن زادهم في ذلك الوقت الا ذلك من غير ان يكون فيه
كفاية لهم فاخذ الملك اللقمة واكلها من غير ان يعوفها وتشمئز نفسه منها
وقال للعسكري مع اللين والهدوء هذه اللقمة يمكن اكلها وان كانت غير جيدة
فكانت هذه النادرة مع كونها هينة سببا حاملا للجيش الاسوجي على تحمل
مشاق عظيمة لا يمكن تحملها مع جنرال آخر اذا صح ان ما ينشأ عنه الاحترام
والوثوق يسمى هينا
وبينما هم على تلك الحالة اذ جاءتهم اخبار من مدينة استخلم مضمونها ان اخت
الملك وهي دوقة هولستين قد ماتت بالجدري في شهر كانون الاول
سنة ١٧٠٨ وكان ذلك في السنة السابعة والعشرين من عمرها وكانت
مهذبة الاخلاق لينة الجانب دابها الشفقة والرحمة بقدر ما في اخيها من
الصعوبة والقساوة في مشروعاته ومقاصده ومن التصميم وعدم التساهل
في الانتقام واخذ الثار وكان عطوفا عليها فحصل له غم شديد على موتها
وازداد ذلك لكون هذا الخبر بلغه وهو على حالة محزنة بخلاف ما لو كان بلغه
وهو على حالته الاولى من كثرة النصرات فانه وان كان يحزن عليها ايضا الا انه
كان يتسلى عن ذلك بالنصرة مثلا
وبلغه ايضا ان جماعته جمعوا بمقتضى اوامره جيوشا ونقودا غير انه لا يمكنهم
الوصول اليه بشيء من ذلك لان بينه و بين استخلم خمسمائة فرسخ تقريبا
وفي طريقهم اعداء اكثر عددا منهم يلزم قتالهم
وكان قيصر الموسقو مثل كرلوس في النشاط وذلك انه بعد ان بعث ارطا جديدة
لاعانة معاهديه في مملكته الذين تعصبوا على استانسلاس وكان قائدها الجنرال
سنيا وسقي ذهب بنفسه الى اقليم اوقرينة ليحارب ملك اسوج وكان البرد
اذ ذاك شديدا جدا فلما وصل هناك اخذ يحارب الاسوجيين محاربات صغيرة
واستمر على ذلك قاصدا تدمير اعدائه شيأ فشيأ وذلك لانه كان يعتقد ان

الجيش الاسوجي يهلك عن آخره بطول المحاربة حيث لا يمكن اتيان مدد اليه ويدل على ان البرداذ ذلك كان شديدا جدا اتفاق الخصمين على ترك القتال فى مدته ولكن شرعوا فى القتال ثانيا فى غرة شهر اشباط وقت نزول الثلج والجليد

فبعد ان وقع بينهما عدة حروب صغيرة خسر فيها كرلوس عدة خسارات نظر فلم يجد من جيشه الا ثمانية عشر الفا وكان ذلك فى شهر نيسان ولم يكن هنالك من يقوم بمؤونة الاسوجيين وضروراتهم الامازيبة امير القوزاقيين فلولا اسعافه لهم لاهلكوا من الجوع والشقاء وفى اثناء هذه الحالة الصعبة طلب القيصر من مازيبة ان يرجع اليه ويدخل تحت حكمه فابى ذلك واستمر على امانته مع معاهده الجديد وامتناعه هذا اما لخوفه ان يفعل به كما فعل باصحابه من العقاب المسمى رو الذى سبق بيانه او لمجرد الانتقام واخذ ثار اصحابه

ومع ذلك فلم ييأس كرلوس ولم يتغير عزمه فى شان التغلب مع هؤلاء الثمانية عشر الفا على كرسى الموسقو فذهب فى آخر شهر ايار ليشن الغارة على مدينة بلطاوا وهى على نهر ورسقولا فى الطرف الشرقى من اقليم اوقرينة بالبعد عن نهر برسطين بثلاثة عشر فرسخا وهذه المسافة التى بينهما هى ارض طائفة الزابوراويين وهم من اغرب امم الارض وذلك لانهم متجمعون من قدماء المسقوبيين اللاهيين والتتار ودياناتهم لها نوع شبه بدين النصرانية ودابهم السلب والنهب كلصوص البحر واذا اختاروا لهم رئيسا فالغالب انهم يعزلونه فيما بعد او يذبحونه ولا يتنباكحون ولا يقبلون النساء عندهم اصلا وانما يذهبون بعيدا عن وطنهم بعشرين فرسخا او ثلاثين ويختطفون الاولاد ويربونهم على حسب اخلاقهم ويقيمون مدة الصيف بتمامها فى الخلاء ويتخذون فى الشتاء مخادع يجعلونها محل اقامتهم وهى واسعة جدا بحيث يسع المخدع منها اربعمائة نفس او خمسمائة ولا يخافون شيأ اصلا ويعيشون احرارا لا يحكمهم احد واذا رأوا غنيمة ولو قلت ارتكبوا لاجلها

الاخطار ولا يكترثون بالموت كما ان كرلوس يقتحم الاخطار لاجل تنصيب
الملوك فاعطاهم قيصر الموسقو من المعاملة النمساوية الف ريال طامعا
ان ينضموا اليه ويصيروا من حزبه فاخذوا امواله وانضموا الى كرلوس باعتناء
مازيبة فى هذا الشان الا ان منفعتهم كانت قليلة لانهم كانوا يحضرون من
القتال لغير السلب والنهب فكان من النادر عدم اضرارهم بالناس ولم يكن
فيهم من يتقن الخدمة الا القليل تقريبا واتفق ذات يوم انه اتى للملك بعشرة
من رؤسائهم سكارى فتعذر على الملك ارجاعهم عن الخمرة لما انه كان من عادتهم
ان يصطحبوا بها ولما وصل الجيش الى الخندق اظهر الزابوراويون مهارتهم
فى الرمى بقربيناتهم الطويلة وذلك انهم لما صعدوا على ظهر الخندق صاروا
يقتلون من الاعداء من يقصدونه وبينهم وبينه ستمائة قدم فضم كرلوس اليهم
بعض آلاف من طائفة الافلاقيين الذين باعهم له حاكم بلاد التتار الصغيرة
فعند ذلك حاصر مدينة بلطاوا مع تلك الارط المتجمعة من الزابوراويين
والقوزاقيين والافلاقيين وبانضمامهم الى الثمانية عشر الفا بلغ الجيش
ثلاثين الفا تقريبا الا انه لحقه التعب ونقص من عنده الزاد بل وكل شىء وكان
قيصر الموسقو قد اتخذ بلطاوا مخزنا للاموال والذخائر والآلات الحربية
فلو ان كرلوس عثر عليها لكان ذلك وسيلة لفتح بلاد الموسقو ولامكنه
ان ينتظر فى هذا الرخاء والثروة الامداد الذى كان يطمع فى مجيئه من ممالك
اسوج وليونيا وبوميرانيا وله ولما لم يكن له وسيلة فى فتح بلاد الموسقو الا اخذ
مدينة بلطاوا اشتد فى محاصرتها مع الحمية والقوة وكان مع مازيبة فى الباطن
جماعات من اهل هذه المدينة فاخبر الملك انه يمكن الاستيلاء عليها فى اقرب
وقت فتجدد الامل فى الجيش بعد اليأس والقنوط وصار العساكر يعتبرون
اخذ هذه المدينة غاية نكباتهم ومصائبهم

ورأى كرلوس فى ابتداء المحاصرة انه قد علم اعداءه فن الحرب وذلك ان الجنرال
منزيقوف ادخل فى المدينة امدادات واسعافات مع ان كرلوس كان محترسا
غاية الاحتراس فترتب على ذلك ان تقوى محافظوها وصارت عدتهم خمسة

آلاف

فكانوا يخرجون على المحاصرين ويهجمون عليهم وربما نجحوا نجاحا عظيما فصنع المحاصرون لغما لكن لما قرب منهم القيصر ومعه سبعون الفا من المقاتلين تعذر على المحاصرين اخذ المدينة فذهب كرلوس لقتالهم وكان ذلك فى اليوم السابع والعشرين من شهر ايار وهو اليوم الذى ولد فيه فهزم فرقة منهم وعاد الى معسكره الا انه فى اثناء رجوعه اصيب برمية قربانة خرقت نعله وكسرت عظم مؤخر رجله ومع ذلك فلم ير على وجهه تغير اصلا بحيث يتوهم انه مجروح وذلك لانه استمر على اعطاء الاوامر مع الهدء ومكث بعد ما اصيب ست ساعات وهو راكب فرسه فرأى بعض الخدم نعله مملوءة بالدماء فبادر بالبحث عن الجرايحية واشتد الالم على الملك جدا حتى انه لم يستطع النزول عن فرسه فانزلوه وحملوه حتى وصلوا به الى خيمته فكشف الجرايحية على الجرح فلم يروا له دواء الا قطع ساقه فصار الجيش فى حيرة عظيمة ودهشة كبيرة تقصر عنها العبارة وكان فى الجرايحية رجل يقال له نومان وكان اكثرهم مهارة وجسارة فاخبر انه اذا شق رجل الملك شقوقا غائرة سلم ساقه من القطع وبرئ الجرح فقال له الملك اشرع الآن فى العمل وشق مع الجسارة ولا تخش شيأ وامسك ساقه بيده وصار ينظر الى الشقوق ويتفرج عليها من غير ان يظهر تألما كانها فى غيره

ثم انه حين كانت العصابة توضع على جرحه امر بشن الغارة فى غد فاخبروه ان جيش العدو مقبل عليه فلزمه ان يترك هذا الامر الى غيره وكان مجروحا لا يستطيع ان يفعل شيأ اصلا وكان اذ ذاك معسكرا بين نهر برسطين والنهر الذى يشق مدينة بلطاوا فى بلدة خربة غير محصنة ونفدت ذخائره وكان جيش العدو امامه يمنعه الرجوع ويمنع عنه الامداد فلم يجمع لهذه الحالة الصعبة مشورة الحرب حسبما وجدته فى عدة مراسلات وانما احضر فى الليلة الثامنة من شهر تموز رنشيلد مرعسكره وامره من غير تروّ ولا انزعاج ان يهجم على قيصر الموسقو صبيحة تلك الليلة فامتثل ولم يناقضه فى شئ وخرج من

عنده

عنده فاذا هو بالوزير پيپير على باب خيمة الملك وكان بينهما عداوة منذ مدة طويلة كما هو الغالب بين الوزير وسرعسكر فسأله پيپير هل امر الملك بشئ فقال له رنشيلد لا وتركه وسار ليأمر العساكر بالاستعداد للاغارة ثم دخل الوزير عند الملك فقال له بمجرد دخوله هل اخبرك الجنرال رنشيلد بشئ فقال الوزير لا فقال له الملك اخبرك انا قد عزمنا على القتال بكرة تاريخه فجزع الوزير من هذا العزم الذى لا طائل تحته الا انه كان يعلم انه لا ينبغى للخادم ان يعارض سيده فى مقاصده فلم يسعه الا السكوت وترك كرلوس نائما الى الصباح

فحصلت واقعة پلطاوا التى انقطع بها النزاع فى شان هذه المدينة فى اليوم الثامن من شهر تموز سنة ١٧٠٩ بين هذين الملكين اللذين كانا اغرب ملوك الارض فى ذلك العصر وهما كرلوس الذى اشتهر بتسع سنوات انتصر فيها على اعدائه وبطرس ألكسيوويتى الذى اشتهر ايضا بتسع سنوات كابد فيها المشاق والتعب ليرتب جيوشا تضاهى الجيوش الاسوجية وكان فخر الاول فى انعامه بالممالك على غيره وفخر الثانى فى كونه مدن ممالكه وكان من داب كرلوس التولع باقتحام الاخطار وكان لا يحارب الا للشهرة والافتخار بخلاف بطرس فانه وان كان لا يهاب الموت ايضا الا انه كان يحارب لمصلحته ومنفعته وكان من طبع ملك اسوج السخاء والكرم واما قيصر الموسقو فكان لا ينعم بشئ الا وله فيه غرض وكان من خصال الملك الاسوجى القناعة والعفة التى لم يكن لها نظير وسهولة الاخلاق ولم يقع منه خشونة ورداءة اخلاق الامرة واحدة مدة حياته واما المسقوبى فانه استمر على ما نشأ عليه ولم يغير خشونة تربيته ولا قساوة طبيعة بلده وكان مهولا على رعيته بقدر ما كان الاجانب يتعجبون منه ويستحسنون افعاله وكان منهمكا على اللذات والشهوات حتى اودى به ذلك الى الهلاك وكان كرلوس موصوفا بانه لا تقهره اعداؤه وربما زال عنه هذا الوصف اذا هزم بخلاف بطرس فانه كان ملقبا عند الملل بالاعظم وكان لا يزول عنه هذا اللقب بالهزيمة لانه لم يلقب به لنصراته

ولاجل ان يتصور الانسان هذه الواقعة ومحلها تصورا كاملا فليعلم ان مدينة بلطاوا فى الشمال وان عرضى ملك اسوج كان فى الجنوب مائلا قليلا جهة الشرق وكانت ذخائره خلفه بنحو ميل وان نهر بلطاوا فى شمالها يجرى من الشرق الى الغرب

وقد اجتاز قيصر الموسقو هذا النهر حتى بعد عن المدينة بفرسخ جهة الغرب ونصب معسكره

ولما اصبح الصباح ظهر الاسوجيون من خنادقهم وليس معهم الا اربعة مدافع وتركوا الباقى فى العرضى مع ثلاثة آلاف رجل تقريبا ومكث عند الامتعة اربعة آلاف فكان الجيش الاسوجى الذى يريد الحرب مع العدو نحو احدو عشرين الفا منهم نحو ستة عشر الفا من الاسوجيين

والجنرالات وهم رنشيلدوروس ولوانهوب وسليبنهاق وهورن واسبار وهاملطون والامير ويرتمبورغ قريب الملك وبعض جنرالات أخر اغلبهم شاهد واقعة نروى صار وايذكرون من تحتهم من الضباط بهذه الواقعة التى غلب فيها ثمانية آلاف من الاسوجيين جيشا من الموسقويين يبلغ ثمانين الفا كانوا معسكرين فى محل محصن وصار الضباط يذكرون ذلك للعساكر فتشجعوا جميعا وساروا الى الاعداء

وكان قائدهم الملك محمولا على عربة فى اول جيش المشاة فامر بجماعة من الخيالة بالاغارة على خيالة الاعداء فكان ذلك مبدء القتال بين الفريقين وكان بعد مضى اربع ساعات ونصف من النهار وكان الخيالة الموسقويون فى الغرب على يمين عرضيهم فرتبهم الامير منزيقوف والقونتة غولوين وجعلاهم فرقا ووضعا بين كل فرقتين مدافع للتحصين فهجم عليهم الجنرال سليبنهاق فى اول الاسوجيين وكان جميع عساكر الجيش الاسوجى يعلمون ان من المستحيل ثبات عدوهم عند اول مصادمتهم لهم فانهزمت الخيالة الموسقوية ورجعت على اعقابها فبادر اليهم القيصر ليحرضهم على الثبات فانخرقت برنيطته برصاصة ومات تحت الامير منزيقوف ثلاثة من الخيل

فصاح الاسوجيون النصرة النصرة

فتحقق كرلوس الظفر بعدوه فارسل فى نصف الليل الجنرال غوروطز مع خمسة آلاف من الخيالة ليهجموا على الاعداء من جانبهم حين يهجم هو عليهم من جهة امامهم ولكن اقتضى سوء حظه ان يضل الجنرال المذكور عن الطريق ولا يعرف له محل واما القيصر فانه لما رأى نفسه قد اشرف على الهلاك حرض الخيالة على القتال واغار بهم على خيالة الاسوجيين وكانوا قد ضعفت قوتهم بانفصال جماعة غوروطز عنهم فانهزموا كما انهزم الخيالة الموسقوبيون عند هجوم الاسوجيين عليهم حتى ان الجنرال سليمنهاق اخذ اسيرا فى هذا القتال وفى ذلك الوقت كانت مدافع الموسقوبيين التى تضرب على الخيالة الاسوجية اثنين وسبعين مدفعا وخرج مشاة الموسقوبيين من صفوفهم ليغيروا على مشاة الاسوجيين

ثم ان القيصر فصل الامير منزيقوف بعساكره عن الجيش وامره ان يحجز بين الارط الاسوجية الماكثة عند الذخائر بقرب پلطاوا والاسوجيين المقاتلين فاجرى هذا الامير اوامر سيده مع المبادرة والمهارة ولم يكفه ان يمنع المخالطة والاعانة بينهما بل احدق بارطة اسوجية صادفها وكانت ثلاثة آلاف فهزمها هزيمة فاحشة فان كانت هذه الفعلة صادرة عن الامير منزيقوف من تلقاء نفسه كان له الفضل على بلاد الموسقو حيث كان سببا فى انقاذها من الهلاك وان كانت صادرة عنه بامر القيصر استحق بطرس ان يكون عديلا وخصما لكرلوس الثانى عشر ولما خرج مشاة الموسقوبيين من صفوفهم تقدموا مع الانتظام الى قتال اعدائهم فى سهل وكانت الخيالة الاسوجية تحرض بعضها على القتال بالبعد عن جيش العدو بربع فرسخ وامر كرلوس حينئذ ان يستعد والاغارة عامة وكان يعاونه فى ذلك الجنرال رنشيلد فجعل من كان معه من الارط صفين وجعل قلب الجيش من المشاة وجناحيه من الخيالة ورتب القيصر جيشه على هذا الوجه الا ان جيش الموسقوبيين كان اقوى بكثرة عدده واثنين وسبعين مدفعا بخلاف جيش

الاسوجيين فلم يكن فيه الا اربعة مدافع وزيادة على ذلك قل البارود من عندهم حتى اشرف على النفاد
وكان القيصر اذذاك فى وسط جيشه ولم يكن يلقب حينئذ الا بلقب ضابط موكل باجراء الحركات الحربية وكان يظهر من حاله انه منقاد لاوامر الجنرال اقزرمطوف غير انه كان يذهب بصفة القيصرية من صف الى آخر على فرس تركى اهداه له سلطان الترك ليحث ضباطه وعساكره على القتال ويعدهم بالمكافأة والانعام
وفى الساعة التاسعة من النهار (على حسب الساعة الافرنجية) شرع الفريقان فى الحرب واطلق الموسقوبيون مدافعهم فاصابت رمية منها فرسى عربة الملك فرفعتهما الى الجو فجيء مكانهما بفرسين آخرين فحصلت رمية ثانية كسرت العربة وفتتها ووقع الملك على الارض فبادر الى رفعه اربعة وعشرون من العساكر فقتل منهم واحد وعشرون فدهش الاسوجيون من ذلك وانزعجوا وتزحزحوا عن مكانهم واستمرت المدافع الموسقوبية على ضرب النار عليهم فرجع الصف الاول القهقرى حتى وصل الى الصف الذى خلفه وفر الصف الثانى وولى مدبرا وكان عدد من هزم الجيش الاسوجى فى هذه الواقعة الاخيرة عشرة آلاف من مشاة الموسقوبيين فانظر كيف انعكس الامر وتغيرت الاحوال
وقد ذكر جميع مورخى الاسوجيين انه لولا خطاهم فى الحركات الحربية لظفروا باعدائهم ولكن جميع الضباط الذين حضروا هذه الواقعة يزعمون ان القتال مع الموسقوبيين فى هذه المرة كان خطأ عظيما لان الاسوجيين لم يكن معهم جميع ما يلزم للحرب والقتال واعظم من هذا الخطا كثهم فى تلك البلاد القفرة البعيدة من غير ان يقبلوا نصيحة العقلاء المجربين حيث امروهم بالارتحال عنها فابوا واستمروا تجاه عدو حربى اقوى من كرلوس الثانى عشر بثلاث مرات لكثرة عساكره ووجود ما كان ينقص من الاسوجيين من لوازم القتال عنده فكان تذكرهم لواقعة مدينة نروى

هو السبب الاصلى فى سوء حظ كرلوس فى واقعة بلطاوا

وقد اسر فى هذه الواقعة الامير ورتمبيرغ والجنرال رنشيلد وغيرهما من اكابر الضباط وصار معسكرهم الذى كان امام بلطاوا غنيمة للموسقوبيين وتلاشى امرهم واختل نظامهم خللا فاحشا وخرج من هذا العرضى القونتة بيبر مع جماعة من الضباط حائرين لا يدرون ماذا يصنعون ولا يعلمون ملكهم على اى حالة هو فصاروا يذهبون فى السهل من جهة الى اخرى فاتاهم ضابط يقال له بير وعرض عليهم ان يوصلهم الى امتعتهم لكن لما كان مثار النقع والدخان قد سد الفضا بالظلمة وكانوا قد دهشوا اماد همهم من هذا الكرب الشديد اخطأوا الطريق وساروا نحو اسوار المدينة فقبض عليهم محافظوها

واما كرلوس فابت نفسه الهروب ولم يمكنه الذب عن نفسه وكان معه اذذاك الجنرال پونياتوسقى ميرالاى الوردبان الاسوجى الذى كان معد اخفر الملك استانسلاس ولم يكن لهذا الجنرال نظير فى الفضل والمعارف حتى ان محبته لكرلوس وشغفه به جبراه على ان يصحبه فى سفره الى اقليم اوقرينة من غير ان يكون له وظيفة فى الجيش ومن صفته انه كان صاحب تدبير واصابة رأى ونجاح فى الاخطار الشديدة التى ليس فيها لغيره الا مجرد القوة فاشار الى اثنين من العساكر فاخذ الملك من تحت ابطيه ووضعاه على الفرس مع ما كان عليه من الالام الشديدة بسبب جرحه

ولم يكن لهذا الرجل حكم فى جيش الاسوجيين الا ان الضرورة اقتضت ان يكون جنرالا لخمسمائة من الخيالة كانوا اقربيين من الملك على انقاذ سيدهم وكان بعضهم ايطرابانات اى من العساكر المعتقلين بالرماح الملازمين لاميرهم فى حركاته الحربية لحمايته والذب عنه وبعضهم ضباطا وبعضهم انفارا فلما تجمعوا وصاروا ارطة ونظروا ما عليه ملكهم من الحالة السيئة تقووا واقتحموا صفوف الموسقوبيين وكانت تزيد على عشر ارط ووصلوا كرلوس من اوسط الاعداء الى ذخائر الاسوجيين وامتعتهم وكان بينهم وبين ذلك المحل

مسافة فرسخ
فتبع الاعداء كرلوس وهو هارب وقتلوا فرسه فادركه قائم مقام يقال له
جيبطا وكان دمه يسيل من الجراحات واعطاه فرسه فانظر لهذا الفاتح كيف
اركبوه على الفرس مرتين مدة هروبه مع انه كان لا يستطيع ركوب الخيل مدة
الحرب والقتال
وهذا الهروب العجيب كان عظيما فى مثل هذه الحادثة العظيمة التى المت به
فلذا لزمه ان يهرب الى محل بعيد جدا وذلك ان الاسوجيين وجدوا
فى ذخائرهم عربة الوزير بيبير ولم يكن للملك عربة لانه من حين خروجه من
مدينة استخلم لم يركب عربة اصلا فوضعوه فى تلك العربة وحثوا السير
فى طريق نهر برسطين وكان منذ اركبوه الفرس حتى وصل الى الذخائر
والامتعة لم يتفوه بكلمة قط فسأل عن حال الوزير بيبير فقيل له قد اخذ اسيرا هو
وجماعته فقال وما حال الجنرال رنشيلد والامير ويرتمبورغ فقال له الجنرال
بونياتوسكى قد اسرا ايضا فتعجب وقال اسرهم الموسقوبيون وهو كذلك تنفيه
قائلا الاوفق بنا حينئذ ان نذهب عند الترك ومع ذلك لم ير على وجهه اثر
تغير اصلا حتى ان من رآه فى ذلك الوقت وكان يجهل حالته لا يخطر بباله انه
منهزم ومجروح
وفى اثناء هروبه استولى الموسقوبيون على المدافع التى كانت فى عرضى
الاسوجيين المعسكرين تجاه مدينة بلطاوا واخذوا الامتعة والصندوق
العسكرى المعد للصرف على الجيش فوجدوا فيه ستة ملايين من جميع انواع
النقود التى كان قد سلبها من اللاهيين والسكسونيين وقد قتل فى هذه الواقعة
نحو تسعة آلاف رجل ما بين اسوجى وقوزاقى واسر منهم نحو ستة آلاف
ولم يبق من الاسوجيين واللاهيين والقوزاقيين الا ستة عشر الفا تقريبا
ففروا جهة نهر برسطين وكان قائدهم الجنرال لوانهوب فسار هذا الجنرال
مع هذه العساكر الهاربة من جهة وسار الملك مع عدة من الخيالة من جهة
اخرى وفى اثناء سيره انكسرت به العربة فوضعوه على فرس ولاجل تمام

مصيبته

مصيبته ضل عن الطريق مدة الليل فى اجمة واسعة ولما لم يمكن لشجاعته
ان تقوم مقام قواه التى ضعفت وعظمت عليه آلام الجروح واشتدت عليه
بما لحقه من العناء والمشقة ووقع فرسه من التعب نام بعض ساعات بجانب ساق
شجرة مخاطرا بنفسه ان يقبض عليه اعدآؤه المنصورون الذين كانوا دآئما
يبحثون عنه فى جميع الجهات

وقصارى الامر ان الملك سار فى الليلة العاشرة من شهر تموز حتى وصل تجاه
نهر برسطين ثم جاء الجنرال لوانهوب مع باقى الجيش الاسوجى ففرح
الاسوجيون بملاقاة ملكهم بعدما ايسوا منه وان كانوا فى حزن شديد مما وقع
لهم وكان العدو مقبلا عليهم من غير ان يكون عندهم استعداد للفرار منه
فلم يكن معهم قناطر لاجتياز النهر ولا زمن يصنعون فيه ذلك ولا بارود
يدافعون به عن انفسهم ولا قوت يحفظون به حياتهم بل كان لهم يومان
لم يجدوا شيأ يتقوتون به غير ان هذه الشرذمة كانت بقية الاسوجيين وكان
ملكها المهزوم هو كرلوس الثانى عشر فمن ثم كان اغلب الضباط
يعتقدون ان فيهم ثباتا على مصادمة الموسقوبيين فصمموا على قتالهم وانهم
لا يتركونهم الا اذا قتلوا جميعا او ظفروا بهم على شاطئ هذا النهر ولولا
ان كرلوس كان فى غاية المشقة والتعب لعزم على ذلك وصمم عليه لكنه كان
محموما بسبب قيح جرحه ومن المعلوم ان اغلب الابطال يفقدون فى مثل هذه
الحمى المتولدة من القيح القوة الغريزية التى لا بدلها كغيرها من سائر الفضائل
من سلامة العقل وخلو البال وبالجملة فقد تغيرت حالة كرلوس حتى ان من رآه
لا يعرفه هذا ما وقفت عليه فى هذا الشان وهو الاوفق بالعقل ثم انهم حملوه
وهو فى غاية من المرض بحيث كان لا يعرف نفسه ولا يدرى ما يصنع به وكان
هناك عربة رديئة كانوا قد اتوا بها الى هذا المحل بالصدفة فانزلوها فى مركب
صغيرة ووضعوا الملك فى مركب اخرى مع الجنرال مازيبه وكان مع هذا الجنرال
عدة صناديق ممتلئة بالاموال غير انه لما رأى التيار شديدا جدا وهبت عليه
الرياح العواصف التى فى النهر ما ينوف على ثلاثة ارباعها كى يخفف حمل هذه

المركب ونزل مولورن حامل ختام الملك مع جماعة من الضباط فى مراكب
اخرى وبصحبتهم القونتة بونياتوسقى الذى كان لا يستقيم حال كرلوس الابه لما
كان بيديه من التدبير والوسائل عند الشدائد ثم ان ثلثمائة من الخيالة وطائفة
عظيمة من اللاهيين والقوزاقيين اتكلوا على جودة خيولهم وخاطروا
بانفسهم فى اجتياز النهر على متون صافناتهم فانضموا الى بعضهم وتلاصقوا
بحيث امكنهم مغالبة التيار وقطع الامواج وكان كل من تزحزح عن ملاصقة
رفقته يجذبه التيار ويلقيه الى قرار النهر وبالجملة فلم يصل احد من المشاة الذين
تجاسروا على اجتياز النهر الى الشاطئ الآخر بل غرقوا فيه عن آخرهم
وبينما كانت بقايا هذا الجيش فى تلك الحالة الصعبة اذ اقبل الامير منزيقوف
مع عشرة آلاف من الخيالة وخلف كل واحد منهم رجل من المشاة والذى دله
على هذا الطريق التى سلكها معظم الجيش الهارب هو ما رأه فيها من رمم
الاسوجيين الذين هلكوا بما حصل لهم من الجراحات والتعب والجوع
فارسل هذا الامير للجنرال الاسوجى وهو لوانهوب بصوت البوق يأمره
بالتسليم فعند ذلك بادر الجنرال المذكور بارسال اربعة من كبار الضباط
ليتلقوا اوامر هذا الامير المنصور فانظر ما آل اليه امر الاسوجيين الذين
كانوا قبل هذا اليوم يمكن لستة عشر الفا منهم ان يهجموا على جميع جيوش
المملكة الموسقوبية ويروا ان الموت اولى لهم من الانقياد لعدوهم ولكن
لا سبيل لذلك بعد هذه الغزوة التى عادت عليهم بالضرر وهربوا بسببها مدة
يومين ولم ينتظروا ملكهم الذى اضطر بنفسه الى الهروب وفقد العساكر
قوتهم ولم يوملوا شيأ يشجعهم ويقويهم بل غلبت فيهم محبة الحياة على
الشجاعة الامير الاى يقال له تروفيتر فانه لما نظر قرب الموسقوبيين منهم
اضطرب وتحرك مع ارطة اسوجية وحثها على الحمل عليهم موملا ان بقية
الجيش تتأسى به فى ذلك لكن الجنرال لوانهوب جبر على ابطال هذه الحركة
لعدم نفعها وسلموا فى الحال وصار الجيش بتمامه اسيرا تحت يد العدو الا بعض
عساكر استنكفوا ان يكونوا تحت ايدى الموسقوبيين فالقوا انفسهم

فى نهر برسطين وكذلك ضابطان من ارطة الشجاع تروفيتر قتلا انفسهما ودخل من عداهم تحت ذل الاسر فروا واحدا بعد واحد امام الامير منزيقوف ووضعوا اسلحتهم تحت اقدامه كما فعله ثلاثون الفا من الموسقوبيين قبل ذلك بتسع سنين امام ملك اسوج فى مدينة نروى الان كرلوس خلى سبيل من اسره فى هذه الواقعة لانه كان لا يخشى بأسهم بخلاف القيصر فانه حجز من اسره من الاسوجيين فى هذه الواقعة اى واقعة بلطاوا

وذلك انه فرق هؤلاء المساكين فى اقاليمه خصوصا فى سيبيريا وهو اقليم متسع من اقاليم التتار الكبيرة يمتد من جهة الشرق الى حدود مملكة الصين وكانت هذه البلاد فى غاية من التبربر والخشونة حتى كان لا يعرف بها عمل الخبز فاقتضت الضرورة ان يصير الاسوجيون فيها ارباب مهارة وبراعة فمارسوا فيها صنايع وفنونا كان لهم بها قبل ذلك بعض المام ومن المعلوم ان مثل تلك الحالة تزول فيها الامتيازات وتنحط عندها الدرجات وذلك ان الضابط من الاسوجيين الذى كان لا يمكنه ان يمارس صنعة ما من الصنايع غدر به الدهر والجأته ضرورة التعيش ان صار يكسر الحطب ويحمله للنفر من العساكر الذى صار خياطا او صانع جوخ او نجارا او بناء او صانع امثلا والبعض من الضباط صار نقاشا والبعض مهندسا ومنهم من كان يعلم اللغات والرياضيات حتى انهم رتبوا فى تلك البلاد مدارس عمومية اشتهرت فيما بعد وصار اهل مدينة الموسقو يرسلون اولادهم للتعلم فيها

وكان بيبير الذى هو اعظم وزراء ملك اسوج مسجونا مدة طويلة فى مدينة بترسبورغ وكان قيصر الموسقو يعتقد كغيره من اهالى اوربا ان هذا الوزير هو الذى باع ملكه للدوق ملبروغ كما سبق وانه هو الذى قوم الاسوجيين على بلاد الموسقو ولولا ذلك لما وقع الفشل فى اوربا ومن ثم شدد عليه فى الاسر وعامله اسوء المعاملة فمكث هذا الوزير على ذلك عدة سنوات ومات فى مملكة الموسقو وكانت عائلته فى مدينة استكلم ذات ثروة عظيمة ومع ذلك اهملته ولم تسأل

عنه وطالما كان كرلوس يرثى لحاله الا انه لم يرض بفدآئه خوفا من ان يرده القيصر ولا يقبل منه فدآء لانه لم يكن وقع بينهم ما مشارطة فى شأن فكاك الاسرى ومفاداتهم

واما القيصر فكان عنده من الفرح والسرور مالم يمكنه اخفاؤه وذلك انه جلس فى الميدان لتلقى الاسرى الذين كانوا يأتون اليه افواجا افواجا وكان يقول لكل طائفة منهم ابن اخى كرلوس

ثم انه شرف الجنرالات الاسوجية بعمل وليمة دعاهم اليها على سفرته فكان من جملة اسئلته لهم سؤاله لرنشلد صارى عسكر الاسوجيين عن مقدار جيوش سيده قبل الحرب فاجابه بقوله ان دفتر اسمائهم مع الملك ولم يطلع عليه احدا ولكن بحسب الظن يبلغون ثلاثين الفا منهم ثمانية عشر الفا من الاسوجيين والباقى من القوزاقيين فعند ذلك تعجب القيصر غاية العجب قائلا له من العجيب انكم تجيئون الى هذه البلاد البعيدة وتخاطرون بانفسكم وتحاصرون بلطاوا بعدد قليل من العساكر فاجابه هذا الامير لسنا بالمستشارين دآئما بل نحن خدم تحت طاعة اوامر سيدنا فلا نخالف ولى امرنا ابدا فلما سمع القيصر هذا الجواب الحسن التفت الى بعض من المتقربين اليه منهم بانه سابقا نغصب عليه فى جملة المتعصبين وقال هكذا تكون خدمة الملوك واخذ الكاس وقال نشرب على صحة معلمينا فن الحرب فالتفت اليه الامير الاسوجى المذكور وقال من هؤلاء الذين شرفتهم بهذا اللقب الفاخر فقال القيصر سعادتكم معشر الضباط الاسوجية فان عساكر الموسقو انما تعلموا الحرب من ممارستهم ومحاربتهم اياكم فقال هذا الامير للقيصر فاذن حضرتكم قليلة شكر النعم والمكافأة عليها حيث انكم اهنتم من له عليكم فضل التعليم فسكت القيصر فلما ارتفع الطعام امر برد سائر سيوف الضباط الكبار اليهم واحسن معاملتهم واغدق عليهم بالانعام والاكرام وسلك معهم مسالك الادب والاحترام غير انه امر بتقطيع اسرى القوزاقيين عن آخرهم

فكانت

فكانت عاقبة هذا الجيش الاسوجي الذي خرج من مملكته نكس منصورا على اعدائه ان تلاشي وانقرض عن آخره وذلك ان نصفه هلك من الفاقة والجوع والنصف الآخر قتل بعضه واسر بعضه فبذلك فقد كرلوس في يوم ثمرة شغله تسع سنوات وفائدة نحو مائة غزوة وكان اذ ذاك هاربا على عربة رديئة ومعه الجنرال هوردو وكان هذا الجنرال جريحا جرحا بليغا وكانت بقايا جيشه تتبعه رجالا وركبانا على الخيل والعربات في صحارى لا يرى بها اخصاص ولا خيم ولا اناس ولا حيوانات بل ولا يعرف لها طرق وبالجملة فكان لا يوجد بها شيء حتى المياه وكان ذلك كله في اوائل شهر تموز وتلك الصحارى موضوعة في الدرجة السابعة والاربعين فكانت حرارة رمالها تجعل حرارة الشمس لا تطاق فهلكت خيولهم من شدة الحر واشرف الناس على الهلاك من شدة الظمأ ثم عثروا ليلا على غدير قد تعكرت مياهه بالاوحال فلاوا منه سقاهم فكان هذا الغدير سببا في حياة هذا الجيش الصغير ثم بعد خمسة ايام صادفوا شاطئ نهر هيبانوس ويسميه المتوحشون الآن نهر بوغ وهم قوم غيروا كل شيء حتى اسماء تلك البلاد التي اشهرتها القبائل اليونانية في الاحقاب الخالية ونورتها بانوار المعارف والفنون وبالبعد عن هذا الشاطئ ببعض فراسخ يجتمع النهر المذكور بنهر برسطين ثم يصبان في البحر الاسود

وكان خلف هذا النهر من جهة الجنوب مدينة صغيرة يقال لها اوقزاقو وهي حد السلطنة العثمانية فلما نظر اهلها هذا الجيش مقبلا عليهم منكرين لباسه ولسانه منعوه من المرور بمدينتهم حتى يأذن حاكمها محمد باشا فبعث اليه الملك يلتمس منه الاذن بالمرور فامتنع هذا الحاكم من اعطاء الاذن حتى يخبر بذلك مدير الاقليم وكان مقيما في مدينة بندير وهي احدى مدن مملكة بوجاق وانما امتنع من ذلك لانه كان لا يعلم ما يرخص له فعله في تلك المدينة التي اقتراف ادنى هفوة بها يفضي الى هلاكه فبينما هم ينتظرون اذن المدير اذ جاوز الموسقو بيون نهر برسطين قاصدين اخذ الملك اسيرا وكانوا قد اسروا معظم جيشه كما تقدم قريبا وبعد هذا الانتظار ارسل الباشا المذكور يقول

للملك اعطيك مركبا صغيرة لنفسك ولاثنين اوثلاثة من اتباعك ففى هذه الحالة الصعبة هجم الاسوجيون على السفن واخذوا منها بالقهر والغلبة مالم يكن اخذه بالطوع والاختيار وذلك ان طائفة منهم ذهبت فى مركب صغيرة الى الشاطئ الآخر وقبضت على بعض مراكب وعادت بها الى الشاطئ الاول فكان هذا سببا فى نجاتهم فعند ذلك انتهز رؤسا المراكب التركية فرصة الاكتساب حيث جاؤا بالطوع والاختيار لحمل الاسوجيين وتعديتهم وبينما هم كذلك اذ وصل جواب المدير بالاذن ثم ان كرلوس تأثر جدا حين رأى اعداءه الموسقوبيين قبضوا على خمسمائة رجل من اتباعه واساؤوه بالسب والشتم اساءة فاحشة ثم سأله حاكم مدينة اوقزاقو على لسان ترجمان ان يصفح عنه فى اعاقته لهم عن المرور حيث كانت هى السبب فى القبض على الخمسمائة رجل وترجاه ان لايشكو للسلطان فوعده كرلوس بذلك الا انه وبخه توبيخا شديدا كانه من احاد رعيته

ثم ان مدير مدينة بندير الذى كان متقلدا بمنصب سرعسكر وبادارة الاقليم بادر بارسال اغاة من عساكره للتسليم على الملك وبعث معه صيوانا عظيما وزادا وامتعة وعربات وضباطا وعساكر وسائر ما يلزم فى توصيله الى مدينة بندير مع الرونق والابهة وهكذا كانت عادة الترك فلا يقتصرون على مجرد بذل المصاريف اللازمة للاجنبية حتى يصلوا الى محل اقامتهم بل يقومون بلوازم الملوك النازلين بحماهم ويبذلون لهم كل شئ مع الكثرة مدة اقامتهم عندهم

(المقالة الخامسة)

فى الكلام على حالة الدولة العلية واقامة كرلوس بقرب مدينة بندير واشغاله ودسائسه فى الدولة العلية ومقاصده وعود الملك اغسطوس الى كرسيه واغارة ملك دانيمرقة على مملكة اسوج والاغارة على ممالك كرلوس وموكب النصر الذى عقده قيصر الموسقو فى تخت مملكته وواقعة بروث وتاريخ المرأة

الفلاحة التى صارت ايمبراطورة

كان حاكم مملكة الترك فى ذالك الوقت السلطان احمد الثالث جالس على الكرسى سنة ١٧٠٣ عوضا عن اخيه السلطان مصطفى وكان السبب فى ولايته قيام الدولة على اخيه كما حصل نظيره فى بلاد الانكليز فاستولى عليها عوضا عن يا كيس الثانى صهره غاليوم ومنشأ ذلك القيام انه كان هنالك مفت تكرهه الترك كراهة شديدة وكان له نفوذ كلمة على السلطان مصطفى فقامت الدولة عليه وانضم اليها الجيش الذى اراد ان يستعين به على معاقبتها فقبض عليه وعزل فى محفل فخرج اخوه احمد من سرايته وتقلد السلطنة من غير ان يسفك فى هذا الشأن قطرة دم وحجز اخاه فى سراية اسلامبول فمكث بها عدة سنين حتى مات فتعجب الترك من ذلك حيث ان العادة ان يموت ملوكهم عقب عزلهم

ثم ان هذا السلطان الجديد كافى من تسبب فى استيلائه على المملكة من الوزرآء والجنرالات وضباط الانكشارية وجميع من كان له دخل فى القيام على اخيه بقتلهم عن آخرهم واحدا بعد واحد خشية ان يعودوا الى ذلك ثانيا فتلاشت جيوش الدولة وضعفت قوتها لكنه تمكن من السلطنة اتم تمكين ومكث على ذلك عدة سنين ثم بعد ان اباد هم صرف همته فى جمع الخزائن والاموال وهو اول من غير سكة النقود وزاد فى الفرد والغرامات لكنه جبر على ابطال هاتين المشروعتين خوفا من العصيان وذلك ان السلاطين كانت عادتهم ان لا يظلموا بالسلب والنهب الا ضباط المملكة ولو بلغوا ما بلغوا لكونهم مماليك الدولة واما باقى المسلمين فانهم كانوا فى غاية من الطمانينة والامن على انفسهم واموالهم وحريتهم

فهذه هى حالة هذا السلطان الذى التجأ اليه ملك اسوج وبمجرد ان وصل كرلوس الى تلك المملكة رقم الى السلطان كتابا تاريخه ١٣ شهر تموز سنة ١٧٠٩ وانتشرت منه عدة نسخ مختلفة مشهورة الآن بعدم الصحة الا ان النسخ التى عثرت عليها منه كلها مشحونة بما يدل على كبره وشجاعته

اكثر من دلالته على حالته التى كان عليها فلم يجب السلطان كتابه الا فى اواخر شهر ايلول فظهر لكرلوس من كبر الدولة العلية الفرق بين سلطان الترك وملك نصرانى هارب يحكم على جزء من مملكة سكندناوة وبالجملة فجميع المكاتبات التى يندر وقوعها بين الملوك ليست الا مجرد عوايد باطلة لا تدل على طباعهم واحوالهم ولا على مقاصدهم واغراضهم

وكرلوس وان كان فى الواقع اسيرا فى مملكة الترك الا انه كان معاملا معاملة طيبة ومع ذلك عزم على ان يحمل الدولة العلية على مقاتلة اعدائه مؤملا ان يعيد مملكته تحت ولايته ويذل الدولة الموسقوبية نعم وان كان له الجى فى اسلامبول الاان الذى كان ينفعه فى تنفيذ اغراضه انما هو القونتة بونيا توسقى حيث ذهب الى اسلامبول من غيران يأمره الملك بذلك وصار نافذ مقاله مقبولا عند الدولة العلية وكان الوزراء يخشون بأسه

وممن اعانه على تنفيذ اغراضه مع المهارة والتحيل الحكيم فونسقا وكان من يهود البرتوغال استوطن اسلامبول وكان عالما ماهرا فيه اهلية للمصالح المهمة بل ربما كان اعلم اهل ملته وكانت حرفته وهى الطب سببا فى مداخلته ومخالطته للدولة العلية ووثوق الوزراء به وائتمانهم اياه على اسرارهم وقد عرفته حق المعرفة فى باريس واخبرنى بالحكاية الآتية وكذلك اخبرنى بها القونتة بونيا توسقى بعد ان افادنى اياها بالكتابة وحاصلها ان هذا القونتة تحيل فى ايصال مكاتبات لام السلطان المتولى اذذاك وكان هذا السلطان يسيئها اسابقا ويؤذيها لكنها الآن صار لها نفوذ كلمة فى السراية وكان من جملة من يلوذ بها امرأة يهودية كانت دائما تخبرها بغزوات ملك اسوج وتشرح صدرها بقصصه واخباره فصارت تلك الاميرة من حزب كرلوس واشتهر ذلك عنها فى السراية وهذا ناشئ من شدة ميلها اليه على ماهو عادة النساء فى ميلهن لعظماء الرجال وبلغ منها ذلك حتى صارت تسميه سبعها فكانت فى بعض الاحيان تقول لابنها متى تعين سبعى على اغتيال قيصر الموسقو وخالفت قوانين السراية الصعبة حتى انها كتبت بنفسها للقونتة

بونيا توسقى

بونياتوسقي بعض مكاتبات موجودة معه الى الآن
ثم ان كرلوس سار في الصحراء في موكب عظيم حتى وصل الى مدينة بندير
وكانت هذه الصحراء تسمى سابقا خلوة الزهاد وبذل الترك همتهم في تزيين
موكبه مدة سيره واتت اليه طوايف كثيرة من اللاهيين والاسوجيين
والقوزاقيين الذين نجوا من ايدى الموسقو بين من جهات مختلفة ليزيدوا
المحفل كثرة فتكمل معه حين وصوله الى تلك المدينة الف وثمانمائة رجل
وكانت مصاريفهم جميعا ومصاريف خيولهم من اكل وسكنى وغير ذلك
على طرف الخزينة السلطانية
فاراد الملك ان يعسكر بقرب المدينة عوضا عن ان يسكن بها فضرب له يوسف
باشا صيوانا عظيما وكذلك جميع من كان معه من الامراء وبعد ذلك بقليل
امر ان يبنى له بيت في هذا المحل وتاسى به في ذلك من بصحبته من الضباط واما
العساكر فبنوا عششا واخصاصا حتى صار هذا المعسكر بالتدريج مدينة
صغيرة وكان الملك الى ذلك الوقت لم يبرأ من جرحه فاخرجوا من رجله عظمة
منتنة فبمجرد ما امكنه ركوب الخيل عاد الى ما كان متعودا عليه من الشقاء
والتعب وهو استيقاظه قبل طلوع الشمس وركوبه في كل يوم ثلاثة من الخيل
حتى تكل وتتعب وتعليم عساكره الحركات الحربية وبالجملة فكان لا يروح
نفسه الا بلعب الشطرنج في بعض الاحيان واذا صح ان الامور الهينة
يتفاءل بها ساغ لنا ان نذكر ان هذا الملك كان دائما ينقل في الشطرنج الشاه
فبذلك كان يفقد كثيرا من البيادق وغيرها وفي ذلك اشارة لحالته
وطبيعته
فمكث في هذا المحل وعنده كل شيء بكثرة وقل ان يقع مثل ذلك لملك منهزم
هارب فانه زيادة على مؤونته الكافية وعلى الخمسمائة ريال التي كانت
مرتبة له كل يوم من طرف الدولة العلية كان يجلب الاموال من مملكة فرانسا
ويقترض من تجار اسلامبول وكان يستعين بجزء من تلك الاموال على تنفيذ
اغراضه في السراية وعلى استمالة قلوب الوزراء اليه واهلاكيهم وينفق الجزء

الآخر مع الاسراف والتبذير على الضباط والانكشارية الذين كانوا آخر آه عنده مدينة بندير وكان الذى يتولى تفرقة عطاياه هونديه وخازن داره المسمى غروتسان وكان على خلاف العادة فيمن تولى مثل هذه الوظيفة لانه كان كسيده مولعا بالسخاء والكرم فقد جاء يوما الى كرلوس ومعه دفتر يتضمن صرف ستين الف ريال مكتوبة فى سطرين وقال له قد صرفت عشرة آلاف ريال للاسوجيين والانكشارية بموجب اوامر حضرتكم الكريمة وتصرفت فى الباقى فقال الملك هذا ما اريده من احبابى فى المحاسبة ان يسلكوا فيها مسلك الاختصار بخلاف مولين فانه يقرأ على صحيفات كاملة فى حساب عشرة آلاف فرنك فلا احب الاحساب غروتسان لاختصاره وتشكى اليه فى ذلك الوقت بعض قدماء الضباط وكان متهما بالبخل من كونه يفوض الى غروتسان امر امواله دونه فقال له الملك انا لا اعطى الاموال الالمن ينفقها وبالجملة فكان لكثرة كرمه وانعامه لا يجد فى بعض الاحيان ما ينعم به فكان الاوفق به والانفع ان يسلك فى السخاء مسلك الاقتصاد لولا ان عيبه كان فى مجاوزتها الحدود فى الخصال الحميدة

وكان يأتى اليه كثير من الغرباء من اسلامبول لمجرد مشاهدته وكذلك الترك والتتار المجاورون له كانوا يأتون اليه افواجا وكانوا جميعا يحترمونه ويتعجبون منه ويقدرونهم امتناعه من شرب الخمر وحضوره كل يوم مرتين فى صلاة الجماعة انه مسلم حقا فاثار ذلك بقلوبهم نيران الاخذ بناصره والسير معه للتغلب على بلاد الموسقو

وفى مدة بطالته التى اقامها عند مدينة بندير وكان يظن انها لا تطول بهذه المثابة رغب فى مطالعة الكتب لما ان البارون المسمى فبريس حسن له ذلك وحثه عليه وكان فبريس هذا الجيا من طرف دوق هولستين الشاب وكانت فيه طلاقة وبشاشة تميل اليها نفوس الملوك وكان قد بعثه الدوق المذكور الى الملك لتدبير مصالحه فنجح فى ذلك لظرفه وحسن خلقه وكان قد اطلع على جميع المؤلفات الفرنساوية فاقرأ الملك بعض دواوين شعرية

تتعلق بالالعاب الطراجيدية كديوان بطرس كورنيلية وديوان راسين وقصائد دسبريو فلم يعجب الملك ما في هذه القصائد من الهجو لانها في الواقع لا تعد من قصائده الادبية ولا من ملحه الشعرية وانما استحسن قصائده الاخرى ولما سمع ما في القصيدة الثامنة من هجو اسكندر وذمه بالجنون وشدة الحمية مزق الورقة

والذي اعجبه كثيرا في هذا المعنى القصيدة الطراجيدية المنظومة في شان الملك متريداته لان احوال هذا الملك في انهزامه واصراره على الانتقام كانت كحالة كرلوس وكان يشير باصبعه للبارون فبريس الى العبارات التي كان يستحسنها الا انه كان لا يميل اصلا الى تحريك لسانه بشيء من هذه القصائد بل ولا بكلمة من اللغة التي منها هذه القصائد حتى انه لشدة حرصه على اجتناب اللغة الفرنساوية لما نظر في مدينة بندير مسيو ديزالورس وكان الجيا فرنساويا مبعوثا الى الدولة العلية وكان رجلا فاضلا الا انه كان لا يعرف الانسان وطنه واخذ في مخاطبة كرلوس اجابه باللسان اللاطيني فاقسم هذا الالجي انه لا يعرف من هذا اللسان اربع كلمات فاحضر كرلوس ترجمانا بينهما ولم يرض ان يخاطبه باللغة الفرنساوية

فهذا ما كان يشتغل به كرلوس بمدينة بندير التي كان ينتظر فيها ان السلطان يبعث معه جيشا يستعين به على عدوه وكان رسوله يكتب عن لسانه عرضحالات ويقدمها للصدر الاعظم وكان الامير بونياتوسقي يعينه في تسليك ذلك لنفوذ كلمته عندهم وذلك لان التملق ينفع صاحبه حيث كان فانه كان يتزيا بزي الترك وكان لهم بذلك مزيد مداخلة معهم حتى ان السلطان انعم عليه بكيس يحتوي على الف ذهبة من نقود ذلك الوقت وقال له الوزير لا بد ان اخذ ملكك باحدى يدي وامسك السيف بالاخرى حتى اوصله الى الموسقو وانا قائد مائتي الف رجل وكان هذا الصدر الاعظم يسمى كرلولي علي باشا وكان من ابناء الفلاحين بقرية كرلو ولم يكن مثل هذا النسب عيبا عند الترك لانهم لا يعرفون ان منشاء الشرف انما هو النسب وان كانت

المناصب والالقاب فى البلاد الاخرى من خصوصيات ذوى النسب بل ذلك منوط عندهم بمن نصح فى خدمته وعاد منه النفع على وطنه كما هو عادة اغلب المشرقيين ولو كانت الالقاب والمناصب مقصورة عندهم على اولى الفضل لعد ذلك من العوايد الممدوحة بالطبع لكن جرت عادتهم بان الوزراء لا يكونون الا من شراق الطواشية او الاماء

ثم ان الصدر الاعظم تغيرت عزيمته حيث ان ملك اسوج لم يكن يمكنه والحالة هذه الا مجرد التملق والمداهنة بخلاف قيصر الموسقو فانه كان متمكنا من اعطاء الرشوة وبذل المال فاعطى هذا الوزير جملة من المال وكانت من اموال كرلوس التى وجدها القيصر فى صندوق عساكر الاسوجيين كما تقدمت الاشارة اليه فكان هذا الصندوق سببا فى تقوية قيصر الموسقو على ملك اسوج وهو على تلك الحالة فبذلك صار ذكر الحرب مع الموسقو بين فى زوايا الاهمال وعاد نسيا منسيا وصار لقيصر الموسقو كلمة نافذة فى الدولة العلية فقد انعمت على رسوله بتشريفات لم يحظ بها الجى موسقوبى قبله فرخصت له فى اتخاذ قصر فى حارة الافرنج باسلامبول وفى المراسلة والمخاطبة مع الوزراء الاجانب وقد بلغ الطمع بهذا القيصر ان تجاسر وطلب ان يسلموا له فى اخذ الجنرال مازيبة كما اخذ كرلوس بطقولى الذى غدر به الدهر الخؤون فلم يمكن لكرلولى على باشا ان لا يجيب سؤال امير يبذل ملايينا من الاموال فانظر الى هذا الوزير كيف وعد كرلوس اولا بالذهاب معه الى بلاد عدوه مع ماتى الف رجل ثم عرض عليه الآن ان يسلم فى الجنرال مازيبة لخصمه فحزن كرلوس لذلك حزنا شديدا وتأثر غاية التأثر ولولا موت مازيبة فى هذا الوقت لكبر سنه فانه كان قد بلغ من العمر سبعين سنة لما كان يعلم ماذا يصنعه هذا الوزير فى شانه ومما زاد كرلوس نكاية وكيدا ما اخبر به من ان طولطوى الذى صار الجى قيصر الموسقو الى الدولة العلية كان يخدمه الاسوجيون الذين اسروا فى مدينة بلطاوا بمعاينة الخاص والعام لذلك وان هؤلاء العساكر صاروا يباعون فى اسواق اسلامبول بل كان هذا الالجى

الموسقوبى" يقول على رؤس الاشهاد انما ذهبت عساكر المسلمين الى مدينة بندر لحجز كرلوس ومنعه لا لتشريفه ورفعه

ولما اهمل الصدر الاعظم كرلوس وظهر عليه قيصر الموسقو باموال فى تلك البلاد بعد ان هزمه باسلحته فى بلاد اوقرينة رأى ان الدولة العلية صارت تحتقره وتدلس عليه ووجد نفسه اسيرا بين التتار واخذ اتباعه فى اليأس والقنوط ولكنه لثباته لم يظهر عليه اثر غم ولا تحسر وظن ان السلطان يجهل دسائس الصدر الاعظم فعزم على ان يخبره بذلك وتعهد الامير بونياتوسقى باجراء هذا الغرض الخطر وكانت عادة السلطان انه يذهب كل يوم جمعة الى الجامع وحوله السلاقات وهم جماعة من الخفراء لهم عمائم مزينة بريش مستطيل جدا يستر السلطان عن ابصار الناس فاذا اراد احد ان يقدم اليه عرضحال اختلط بهؤلاء الخفراء ورفع يده به فتارة يتفضل السلطان باخذه بنفسه وتارة وهو الاغلب يأمر بعض الاغاوات باخذه حتى يخرج من الجامع فيطلع عليه ولا يخشون سآمته من تقديمهم له فى بعض الاحيان عروضا غير نافعة او مشتملة على امور تافهة لانها قليلة بحيث ان ما يكتب فى اسلامبول فى ظرف سنة اقل مما يكتب فى باريس فى يوم واحد وقل ان يتجاسر احد بتقديم عروض تتضمن شكوى فى احد من الوزراء لانه كانت عادة السلطان ان يبعث بها الى الوزراء من غير ان يطلع عليها فلم يجد بونياتوسقى غير هذه الطريقة فى ايصال شكاوى ملك اسوج فى الصدر الاعظم للسلطان فحرر عرضا يذكر فيه امورا ثقيلة والذى امر بترجمته الى التركية هو فربول الجى" فرانسا وهو الذى اخبرنى بذلك واعطى بونياتوسقى رجلا من اليونان شيأ من الدراهم ليقدم هذا العرض للسلطان فاختلط هذا اليونانى بخفراء السلطان ورفع الورقة الى اعلى بقدر طاقته مدة طويلة وصار يصرخ باعلى صوته حتى التفت اليه السلطان واخذها منه ثم انهم سلكوا هذه الطريقة عدة مرات فى شكاية الوزراء فقدم بعض الاسوجيين المسمى ليلوانغ بعد ذلك عرضا آخر للسلطان لما ان ملك اسوج

اضطران يسلك فى بلاد الترك مسلك المظلومين

وبعد ذلك بايام بعث السلطان لملك اسوج جبرالخاطره خمسة وعشرين من الخيول العربية وكان من جملتها فرس معد لركوب السلطان رخته مرصع بالجواهر الثمينة وركاباته من الذهب الاكسير وارسل مع هذه الهدية مكتوبا يستعطفه فيه الا انه يتضمن بعض الفاظ مجملة يشم منها ان الصدر الاعظم لم يفعل شيأ من غير رضاء السلطان ولكون كرلولى المذكور كان له اتقان فى المخادعة ارسل الى كرلوس خمسة خيول لانظيرلها فقال كرلوس مع الانفة للذى اتى بهذه الخيول الخمسة ارجع الى سيدك واخبره انى لا اقبل هدايا أعداءى اصلا

وبعد ان تجاسر الامير بونيا توسقى على تقديم العرض فى الصدر الاعظم عزم ان يتسبب فى عزله وذلك انه كان يعرف ان ام السلطان تبغض هذا الوزير وكذلك الاغاة رئيس الطواشية واغاة الانكشارية فحث الثلاثة على الوشى به الى السلطان ومن الغريب ان مثل هذا النصرانى اللاهى الذى هو وكيل ملك اسوجى هارب عند الترك ولا منصب له عنده يسعى بالفساد بين الدولة العلية والصدر الاعظم الذى كان نافعا للسلطان ومحبوبا لديه وبالجملة فلولا وجود سبب آخر فى عزل هذا الوزير اقوى مما سلكه بونيا توسقى لما عزل عن منصبه بل ربما كان مجرد خطور ذلك ببال بونيا توسقى يفضى الى هلاكه

وبيان هذا السبب انه كان هناك شاب من ندماء السلطان وخاصته تولى الوزارة فيما بعد وقتل ببلاد المجار سنة ١٧١٦ فى واقعة بتيروردين التى ظفر فيها الامير اوجين دوساوى على الترك وكان هذا الشاب يسمى كومورجى على باشا وكان نسبه كنسب كرلولى لانه كان ابن فحام حسبما يدل عليه اسمه فان كلمة كومور معناها بالتركية فحم والسبب فى ارتقائه الى هذا المنصب ان السلطان احمد الثانى عم السلطان احمد الثالث رأى كومورجى المذكور ذات يوم فى اجمة قريبة من مدينة ادرنه وكان صغير السن فاعجبه جماله فاخذه واتى به الى سرايته فاعجب السلطان مصطفى وهو الابن البكرى للسلطان محمد

وخليفته فجعله السلطان احمد الثاني من خاصته وقلده بمنصب سلحدار اغاه يعني حامل سيف السلطان ولحداثة سنه لم يكن يتطلب منصب الوزارة لنفسه وانما كان يحب ان يولي وزيرا آخر غير الصدر الاعظم لبغضه اياه ولم يمكن لاحد من اصحاب ملك اسوج ان يستميل قلبه لكرلوس بل كان لا يميل لاحد من ملوك النصارى ولا وزرائهم الا انه نفع كرلوس في هذه الفرصة من غير ان يقصد نفعه فتحزب مع ام السلطان واعيان الضباط على عزل كرلولي لانهم كانوا جميعا يبغضونه فصار هذا الوزير القديم الذي مكث زمنا طويلا صادقا في خدمته غرضا السهام اهواء شخص صغير ودسائس انسان اجنبي فجردوه عن الوزارة وسلبوا امواله ومنعوا عنه زوجته وكانت بنت السلطان مصطفى الاخير الذي هو اخو السلطان احمد المتولي اذ ذاك ونفي بمدينة قافا وكانت تسمى سابقا تيودوسيا وهي احدى مدن بلاد القرم التتارية واعطوا ختام الدولة لنعمان كوپروغلي حفيد كوپروغلي الاكبر الذي اخذ جزيرة جريد وكان لهذا الوزير الجديد خصال وسجايا حملت النصارى على اعتقاد انه غير تركي لعدم وقوفهم على الحقيقة وذلك انه لم يكن لين العريكة بل كان متمسكا بالشريعة بحيث لا يحيد عنها في ادنى شيء فكان دائما يصادم بالعدل والانصاف اغراض السلطان ومقاصده وكان لا يميل الى سماع التكلم في شأن الحرب مع الموسقو بيين لما انه كان يرى ذلك من باب الظلم والعدوان الذي لا يجدي نفعا ومع ان استمساكه بالقوانين الشرعية كان يمنعه من القدوم على نقض المعاهدة مع قيصر الموسقو كان ايضا يسوغ له القيام بحقوق الالتجاء والضيافة لملك اسوج فكان يقول للسلطان ان الشريعة تمنعك من التعدي على قيصر الموسقو حيث لم يقع منه ما يوجب ذلك ولكنها تأمرك بالرفق والاعانة لملك اسوج حيث غدر به دهره والجأه اليك وحمل السلطان على ان ينعم على كرلوس بثمانمائة كيسة (مقدار كل كيسة خمسمائة ريال) واشار عليه الوزير ان يعود الى بلاده مع الهدء والراحة اما من طريق بلاد المانيا او في السفن الفرنساوية التي كانت حينئذ بمينا اسلامبول اعدها فريول

الجى فرانسا عند الدولة العلية لسفر كرلوس الى مرسيليا ثم ان الامير بونياتوسقى دبر مع هذا الوزير تدبيرا عظيما اكسبه نفوذ كلمة وعلوشان لم يكتسبه الموسقوبيون بدنانيرهم عند مثل هذا الوزير الذى كان لا يقبل الرشوة فظنوا ان الاوفق بهم سم هذا الامير الخطر فاما لوا عقل واحد من خدمه واتفقوا معه على ان يضع له السم فى القهوة فافتضح ذلك قبل وقوعه وذلك ان السم رئى فى قارورة صغيرة بين يدى الخادم فوصلوها الى السلطان فحكم اهل الديوان على هذا الخادم باللومان لان الشريعة عندهم لا تعاقب بالموت على ذنب لم يقع
ولما كان كرلوس متحققا انه ينجح حالا او استقبالا فى ايقاع الحرب بين الدولة العلية والدولة الموسقوبية لم يرض بما عرض عليه فى شأن رجوعه الى بلاده ولا زال يقول للترك ان قيصر الموسقو الذى احتقرته مدة طويلة صار مهولا عليكم وكانت جواسيسه تقول لهم ان بطرس قد عزم على التغلب على البحر الاسود وانه بعد ان اذل القوزاقيين وادخلهم تحت حكمه يريد ان يأخذ منكم بلاد القرم التتارية فكان ذلك تارة يهيج الدولة على القيصر وتارة يخمد ناره وزراء الموسقوبيين
وبينما كان كرلوس معلقا تنفيذ اغراضه على اهواء الوزراء وارادتهم وقانعا بانعام مملكة اجنبية عليه راضيا باساءتها اياه ومشتغلا بتقديم عروض للسلطان الذى احيى نفسه بانعامه عليه فى الصحراء اذا غار على ممالكه جميع اعدائه المستيقظين
وذلك ان واقعة بلطاوا صارت طريقا القيام مملكته عليه حيث عاد اليها الملك اغسطوس وانكر انه تخلى عن كرسيها ولم يعترف بمشارطة الترنشتاد ولم يعبأ بكرلوس حيث قال على رؤس الاشهاد انه من البغاة الخشنين وسجن فنجستان وابنهوف وهما الرسولان اللذان كان ارسلهما اغسطوس ايضعا امضاءه على تخليه عن المملكة متعللا بانهما خالفا اوامره وعملا على خلاف مقتضاها خيانة منهما فى حقه واما الجيوش السكسونية التى كان كرلوس

قد عزله

قد عزله بسبب افانها وصلته الى مدينة ورشاو ومعه اغلب الامراء اللاهيين
الذين كانوا قد عاهدوه على عدم الخيانة واقسموا له على ذلك ثم انضموا
لاستانسلاس وعاهدوه ايضا بمثل ذلك ورجعوا الآن الى اغسطوس
ليعاهدوه ثانيا حتى ان الامير سينيا ويسقى انضم اليه وصار من حزبه وقنع
برتبة سرعسكر المملكة بعد ان كان متطلبا للاستيلاء عليها وان يكون ملكها
واما الوزير فليمنغة الذى كان قد اضطر الى الهجرة من سكس خشية ان يفعل به
كما فعل بطقول فانه اعان كثيرا بمهارته وتحيلاته على اعادة معظم اشراف
اللاهيين الى حزب اغسطوس والانتظام في سلك طائفته
وامر البابا رعية اغسطوس بنقض معاهدتهم لاستانسلاس وفسخ
مبايعته وهذه الفعلة التى صدرت من البابا وكانت ملايمة لمقتضى الحال
وتعضدت بعساكر اغسطوس كانت مهمة جدا وبها صلر لديوان رومة
نفوذ كلمة وعلو شان فى مملكة له حيث صار اهلها لا يعارضون فى ان البابا له حق
ومدخلية فى احكام الملوك وافعالهم وبالجملة فانقاد جميع اهل تلك المملكة
لاغسطوس ودخلوا تحت حكمه بالطوع والاختيار وصاروا يركنون
لما يقوله لهم وكيل البابا من ان ذمتهم بريئة من خطيئة نقض العهد والحنث
فى ايمانهم ويخبرهم بان ذلك واجب عليهم وان كان فى الحقيقة لا منفعة فيه
وكانت شوكة كرلوس وعظم مملكة اسوج قد بلغا قبل ذلك الدرجة القصوى
لما ان اكثر من عشرة ملوك كانوا يحسدون مملكة اسوج ويخشون ان حكمها
يتجاوز حده الاصلى ويمتد فيما وراء نهر بلطق من نهر دونه الى نهر البه فترتب
على غيبة كرلوس واضمحلال شوكته ان اضطرمت نيران حسد هؤلاء الملوك
وغيرتهم بعد ان كانت خامدة بالمشارطات وعجزهم عن نقضها
وكان اقوى الجميع قيصر الموسقو فانتهز الفرصة التى هى نتيجة نصرته واخذ
مدينة ويبورغ واقليم كاريلية بتمامه وشحن اقليم فينلندة بالعساكر وحاصر
مدينة ريغا وبعث اورطة من عساكره لاعانة اغسطوس على العود الى سرير
المملكة ثانيا وبالجملة فصار هذا القيصر رئيس بلاده والبلاد الشمالية كما كان

كرلوس قبل هزيمته وضعف شوكته الا انه كان لا يقدم على فعل شئ الا اذا
كان يعلم ان له فيه منفعة ومصلحة بخلاف كرلوس فانه كان لا يقصد بافعاله الا
مجرد الانتقام والفخر ومن خصاله ايضا انه كان يعين معاهديه وينتقم من
معاديه من غير ان يتطلع لادنى شئ فى مقابلة ذلك واما القيصر فكان يسلك غالبا
مسالك الملوك لا الشجعان فمن ثم لم يقدم على اعانة ملك له الابعد ان شرط عليه
ان يأخذ منه اقليم ليونيا ويصير منتظما فى سلك الاقاليم الموسقوبية على
الدوام وهذا الاقليم هو الذى كان سببا فى محاربة اغسطوس لملك اسوج
واما ملك دانيمرقة فانه نسى معاهدة تراوندال كما نسى اغسطوس معاهدة
التراننشاد فعزم على ان يسترد التزامات هولستين وابريمة واعاد دعوى
استحقاقه لها واما ملك البروسيا فكانت له حقوق متوارثة عن اسلافه فى اقليم
بوميرانيا الاسوجى فاراد الآن ان يعود فيها واما دوق ميكلانبورغ فكان
قبل ذلك يتأسف كثيرا على كون المملكة الاسوجية تعدت على ولايته
وتغلبت منها على مدينة ويسمار وكان هذا الدوق يريد التزوج ببنت اخت
قيصر الموسقو وكان القيصر يريد اتخاذ محل لاقامته بعض الاحيان ببلاد
المانيا كما فعله الاسوجيون فتعلل بهذا الزواج وتغلب على مدينة ويسمار
واما ملك هانورة المسمى جيورج فكان يبحث كثيرا عن ان يأخذ بنصيب
من ممالك كرلوس واما اسقف مونستير فانه لو وجد فى نفسه قوة لادعى كغيره
ان له حقا فى البلاد الاسوجية
ولم يكن هنالك من عساكر كرلوس الا اثنا عشر الفا او ثلاثة عشر الفا فهم
الذين كانوا مستعدين للمدافعة عن اقليم بوميرانيا وغيره من بلاد كرلوس التى
بمملكة المانيا فعزمت الفئة الباغية على القتال فى تلك المحال فاحزنت هذه
المصيبة ايمبراطور المانيا ومعاهديه لانه كان من قوانين الايمبراطورية
الالمانية ان كل من قصد التغلب على شئ من اقاليمها يعد من اعداء الطائفة
النمساوية فكان فى حيرة من ذلك
وكان هنالك حيرة اخرى اعظم من السابقة وهو ان ملوك تلك الفئة ماعدا

قيصر الموسقو كانوا مشتغلين بالتحزب على لويز الرابع عشر الذى مكثت
شوكته زمنا طويلا معمولة على ايمبراطور المانيا كشوكة كرلوس
فبذلك صارت المانيا من ابتداء القرن يكتنفها جيوش فرانسا وجيوش
اسوج من الجنوب والشمال فاجتازت الجيوش الفرنساوية نهر طونة
واجتازت الجيوش الاسوجية نهر اودير ولو التحقت تلك الجيوش ببعضها
لانعدمت الايمبراطورية لكن سوء الحظ الذى حصل للاسوجيين لحق
الفرنساوية ايضا غيران الاسوجيين كان لهم بعض وسايط بخلاف لويز
الرابع عشر فانه وان بذل الهمة فى تلك الغزوة الا انه لم ينجح فيها ولو وقع الحرب
فى اقليم بوميرانيا ودوقية ابرية لخيف على الايمبراطورية من ذلك لانها
لو اضمحلت من هذه الجهة لخشى عليها الضعف من الجهة الاخرى التى بها لويز
فلاجل ابعاد هذا الخطر اجتمع الايمبراطور وامراء المانيا وحانة ملكة
الانكليز ورؤساء الاقاليم المجتمعة وعقدوا فى مدينة لاهيا فى اواخر
سنة ١٧٠٩ معاهدة غريبة لم يعقد مثلها
وهى ان ارباب هذا المجلس شرطوا ان لا يعقد حرب مع الاسوجيين فى اقليم
بوميرانيا بل ولا فى غيره من اقاليم النمسا وان اعداء كرلوس لهم ان يغيروا
على عساكره فيما عدا الاماكن المذكورة فاقر هذه المشارطة قيصر الموسقو
وملك لاهيا وزادا فيها شرطا آخر غريبا وهو ان الاثنى عشر الف اسوجى
الذين باقليم بوميرانيا لا يمكنون من الخروج منه للمدافعة عن غيره
من اقاليمهم
ولاجل تنفيذ هذه الشروط واجرائها اتفقوا على جمع جيش يمنع الطائفة
المتعصبة على الاسوجيين من وقوع الحرب معهم فى اقليم بوميرانيا وجعلوا
محل هذا الجيش شاطئ نهر اودير ومن الغريب كونهم يجمعون عساكر
جديدة لا معرفة لها بالحركات العسكرية لمثل هذا الغرض وهو منع وقوع
الحرب واغرب من ذلك ان المشروط عليهم جمع هذا الجيش اغلبهم له منفعة
فى وقوع الحرب بذلك الاقليم وذلك انهم شرطوا ان هذا الجيش يكون متجمعا

من رعايا الايمبراطور وملك البروسيا وملك هانورة وحاكم اقليم هيسة واسقف مونيستير

فحصل ما كان ينتظر من مثل هذا المقصد حيث جاء الوقت الموعود ولم يحصل ماشرطوه من جمع الجيش وذلك ان الملوك الذين كان يلزمهم جمع ما يخصهم فى ذلك الجيش لم يجمع اغلبهم منه شيأ وانما اجتمع منه ارطتان فقط فبذلك كان ما شرطوه من عدم وقوع الحروب فى الاقليم السابق مانعى لم يعمل بمقتضاه وذلك ان جميع امراء البلاد الشمالية الذين كان لهم منفعة فى قتال الاسوجيين تجاسروا على التغلب على البلاد الاسوجية

وفى اثناء ذلك رجع قيصر الموسقو الى دار اقامته وترك عساكره معسكرة فى اقليم لثوانيا بعد ان امر بمحاصرة مدينة ريغا وكان الحامل له على الرجوع هو انه يجعل لنصرته على كرلوس احتفالا وموكبا عظيما لم يسبق نظيره عند الموسقوبيين كما انه احدث امورا غريبة فى ممالكه وكان هذا الاحتفال قريبا من احتفالات قدماء الرومانيين وكيفية ذلك ان القيصر دخل مدينة موسقو (فى اوائل شهر كانون الثانى سنة ١٧١٠) تحت سبع قوصرات كانت قد نصبت لنصرته فى حارات المدينة وكان عليها من انواع الزينة ما قدر الاهالى على بذله وما تولد من التجارات التى صار لها رونق فى مدة حكمه وكانت مقدمة الموكب ارطة من الخفر خلفها مدافع الاسوجيين التى سلبت منهم فى واقعتى لسنو وپلطاوا كل مدفع يجره ثمانية من الخيول عليها جوخ مرخاة الى الارض وبعدها عساكر حاملة للبيارق والطبول التى اغتنموها فى الواقعتين المذكورتين وكانوا هم الذين سلبوها من الاسوجيين ووراء ذلك اعظم عساكر القيصر وبعد مرورهم جاءت عربة كبيرة موضوع عليها عربة ملك اسوج التى وجدوها فى واقعة پلطاوا وقد تخلعت من رميتى مدفع وخلفها جميع الاسراء مرتبين مثنى مثنى وفيهم القونتة پيپير الذى كان اعظم وزراء الاسوجيين وسر عسكرهم رنشيلد الشهير والقونتة لووانهوب ومن الجنرالات ايسليپانباق وايستاقيلبرغ وهاميلطون وغيرهم من الضباط والعساكر الذين وزعهم

القيصر

القيصر فيما بعد فى بلاد الروسيا وعلى اثرهم القيصر راكبا فرسه التى كان عليها فى واقعة بلطاوا وخلفه بخطوات الجنرالات الموسقو بيون الذين كان لهم مدخلية فى النجاح والظفر فى تلك الواقعة ويعقبهم ارطة اخرى من الحفر وآخر الموكب عربات الاسوجيين التى كان عليها ذخائرهم فى الواقعة المذكورة

وفى حال مرور هذا الموكب كانت تضرب النواقيس والطبول والطرمبيطات وآلات الموسيقى ترجع الالحان مرة بعد اخرى وضربت المدافع عدة مرات وكانت مائة مدفع وصار الجم الغفير من الاهالى كلما وقف القيصر فى مروره يهللون ويصيحون باعلى اصواتهم ادام الله دولة ابينا القيصر وكانوا نحو خمسمائة الف رجل

وقد ترتب على هذا الموكب الفاخر ازديادا احترام الاهالى للقيصر لانهم وجدوا هذه النصرة اعلى واعظم مما جلبه اليهم من المصالح والمنافع قبلها ومع ذلك استمر على محاصرة مدينة ريغا وتغلب رؤساء عساكره على بقايا اقليم ليونيا وعلى جزء من اقليم فنلندة وفى ذلك الوقت ذهب ملك دانيرقة مع سفنه لشن الغارة على مملكة اسوج وادخل فيها سبعة عشر الفا من عساكره واقر عليهم القونتة روانلو

وكان القائم بادارة المملكة الاسوجية فى ذلك الوقت وكلاء اقامهم كرلوس قبل سفره من مدينة استخلم وكانت مشورة السنت تحقد على هؤلاء الوكلاء لاعتقادها ان لها الحق فى الحكومة وانها اولى بذلك منهم فتولد من ذلك الاضرار بالمملكة وعدم الراحة لها ثم لما شاع فى مدينة استخلم بعد واقعة بلطاوا ان كرلوس مقيم عند مدينة بندر تحت قبضة التتار والترك وان الدانيرقيين اغاروا على اقليم ايسقانيا وتغلبوا منه على مدينة هيلسانبورغ زال الحقد والبغضاء من بينهم وصاروا لا يشتغلون الا بما ينقذ المملكة من اعدائها غير انهم لم يكن عندهم اذ ذاك من العساكر الحربية الا القليل لان كرلوس وات كان يأخذ فى غزواته العظيمة جموعا قليلة الا ان الوقائع العديدة

التى صدرت منه فى ظرف تسع سنوات واضطراره الى جمع العساكر وتكثير المحافظين والارط التى لزمه ان يتركها فى اقاليم فنلندة وانغريا وليونيا وبوميرانيا وابريمة ووردان لمحافظتها كل ذلك ترتب عليه أن ذهب من عساكر المملكة مائتا الف وخمسون الفا فى تلك الوقائع بحيث لم يبق فيها من قدماء العساكر الا ثمانية آلاف والعساكر المستجدون

وكانت الامة الاسوجية مجبولة على الشجاعة مطبوعة على حب القتال خصوصا وكل امة تقفوا اثر ملكها فكان لا يسمع فى مملكتهم من اولها الى آخرها الا التحدث بوقائع كرلوس والجنرالات الاسوجية والارط القديمة التى كانت تحت قيادتهم فى وقائع مدينة نروى ودونا واقليسو وبولطوسق وهلوسين وكان اذا سمع احد من الاسوجيين تلك القصص والاخبار اكسبه ذلك حماسا وفخرا ولو كان من ضعفائهم وكان يزيدهم قوة وشجاعة رأفتهم بملكهم وشفقتهم عليه وبغضهم الدائم للدانيرقيين حتى ان ارباب الفلاحة منهم كانوا معتبرين كانهم عضو من اعضاء الدولة فكانوا منتظمين فى سلك الاهالى وربما كانوا يقدمون على مشروعات لا تتيسر لغيرهم فمن ثم كانت العساكر المجتمعة منهم ومن غيرهم تصير فى اسرع وقت اقوى عساكر البلاد الشمالية بخلاف غيرهم من فلاحى الممالك الاخرى فانهم كانوا ارقاء او معاملين معاملتهم

فجمع الجنرال ايستانبوق بامر مشورة الوكلاء ثمانية الالاف التى هى بقايا العساكر القديمة وضم اليهم نحو اثنى عشر الفا من العساكر المستجدين وسار بهم لطرد الدانيرقيين الذين كانوا يحربون ساحل هيلسنبورغ ويضعون على اهله غرامات جديدة فى شأن الاراضى

ولم يكن فى الزمن فسحة ولا واسطة بحيث يكسون العساكر الجديدة طقوم الجهاد فذهب اغلب هؤلاء الفلاحين متزيين بزيهم الاصلى وهو المحازم واضعين فى احزمتهم الطبنجات مربوطة بالحبال فمازال ايستانبوق سائرا بهذا الجيش الغريب حتى وصل الى الدانيرقيين وعسكر تجاههم بالبعد عن اقليم هيلسنبورغ بثلاثة فراسخ وكان ذلك فى ١٠ من شهر ادار سنة ١٧١٠

فاراد ان يمهل عساكره بعض ايام ليستريحوا من مشقة السفر ويتحصن من العدو ويمرن هؤلاء الفلاحين على قتال الاعداء فابى ذلك جميع الفلاحين وطلبوا القتال في يوم وصولهم

وسمعت من بعض الضباط الذين شهدوا هذه الواقعة ان الفلاحين ازبدت افواههم من شدة الغيظ فما كان اشد غضب الاسوجيين على الدانيمرقيين فانتهز ايستانبوق فرصة ميلهم الى القتال الذي ينوب عن الضبط والربط العسكريين في اى واقعة كانت وحمل على الدانيمرقيين فشوهد في هذه الواقعة ان العساكر الغشيمة ساوت في اول مرة من قتالها شجاعة قدماء العساكر وتمرنهم على تعب الحرب وذلك ان ارطتين من الفلاحين بادروا الى حمل السلاح وقصدوا ارطة الوزدبان التي هي فخر ملك دانيمرقة وفتكوا بها فتكاشنيعا بحيث لم يبق منها الا عشرة رجال

فولى الدانيمرقيون الادبار ومدافع هيلسنبورغ تضرب عليهم ولما كانت المسافة بين مملكة اسوج وجزيرة زيلند قصيرة جدا وصل الخبر الى ملك الدانيمرقيين في يوم الهزيمة وهو في كوبنهاغ دار اقامته ان جيشه قد هزمه الاسوجيون فبعث سفنه لنقل بقية عساكره فبعد خمسة ايام من الواقعة لم يبق للدانيمرقيين اثر في مملكة اسوج غير انهم لما لم يمكنهم اخذ خيولهم معهم ولا تركها لاعدائهم قتلوها حول هيلسنبورغ واضرموا النار فيما كان معهم من الذخائر والحبوب والامتعة وتركوا في هيلسنبورغ اربعة آلاف جريح مات معظمهم من الروايح الكريهة المتولدة من رمم الخيول ومن عدم ما يتقوتون به حيث ان اصحابهم اتلفوا ما كان معهم لئلا يتمتع به الاسوجيون

وفي نفس هذا الزمن بلغ الفلاحين المقيمين بغابات اقليم داليكارليا ان ملكهم اسير عند الترك فبعثوا الى الوكلاء بمدينة استخلم يستأذنونهم في ذهاب عشرين الفا منهم لتخليص سيدهم وانقاذه من ايدى اعدائه وتكون مصاريفهم على انفسهم فدل ذلك على مزيد شجاعتهم ومحبتهم لكرلوس

وان لم يعمل بمقتضى ذلك وانما ارسل الوكلاء الى كرلوس جميع الاخبار المتعلقة بواقعة هيلسنبورغ تفصيلا وكان ذلك من جملتها فوصلت هذه الاخبار المفرحة الى كرلوس فى معسكره عند مدينة بندير فى شهر تموز (سنة ١٧١٠) وبعد ذلك بقليل حصلت حادثه اخرى قوت آماله واكدت رجاه

وهى عزل الصدر الاعظم المسمى كوپروغلي الذى كان يعارضه فى اغراضه ويعطل اجراء مقاصده وكان عزله بعد توليه الوزارة بشهرين فاشاع وكلاؤه الذين بمدينة استخلم واصحابه الذين كانوا بمملكته انه يولى وزراء الدولة العلية ويعزلهم على مقتضى ارادته واختياره وان كلمته نافذة فيها وان كان منعزلا عنها فى مدينة بندير مع انه فى الواقع لم يكن له دخل فى نكبة هذا الوزير وانما سبب ذلك على ما يقال هو كثرة صلاحه وذلك ان الوزير الذى كان قبله لم يكن يدفع للانكشارية ماهياتهم من الخزينة السلطانية بل كان يصرفها لهم من الاموال التى كان يسلبها من الناس ظلما بخلاف كوپروغلى فانه كان يصرفها لهم من الخزينة فلامه على ذلك السلطان احمد حيث انه يوثر فى هذا الشان مصلحة الرعية على مصلحة الدولة وقال له ان الوزير الذى كان قبلك وهو كورلولى كان يعرف واسطة اخرى فى صرف ماهيات العساكر فاجابه هذا الوزير بقوله اذا كان من قبلى له معرفة فى تمولك وثروتك من السلب والنهب فانا افتخر بجهلى لذلك

وكان من قوانينهم ان مثل هذا الكلام لا يتجاوز السرايه ولا يصل اذن احد من العامة لكن هذه المحاورة التى حصلت بينهما شاعت عند الخاص والعام بسبب عزل الوزير كوپروغلى ولم يقتل على ما وقع منه من الجسارة فى التكلم مع السلطان لان الخصال الجيدة وحسن السلوك يمانعان عن صاحبهما ويوجبان احترامه وان لم يكونا على اغراض الناس وانما انى فى جزيرة نغرپيون وقد نقلت ذلك من المكاتبات التى ارسلها الى بعض اقاربى المسمى برو وكان اعظم ترجمان فى الدولة العلية وانما نظمتها فى سلك التأليف لابين كيفية حكومة تلك الدولة وعوايدها

ثم بعث السلطان الى مدينة حلب يطلب محمدا بلطجى باشا عامله على الشام ليقلده منصب الوزارة وكان وزيراله قبل كورلولى وقيل له بلطجى لانه كان من جملة بلطجية السراية وهم جماعة امراء يقطعون الاخشاب للسلاطين وزوجاتهم فبقى هذا اللقب على عادة الترك من انهم يتلقبون باول صنايعهم او باسماء آبائهم او باسم مسقط رأسهم من غير ان يكون فى ذلك عار عندهم

وحين كان هذا الوزير خادما فى السراية كان قائما بخدمة السلطان احمد الذى كان اذ ذاك محكوما عليه بالحبس فى مدة حكم اخيه السلطان مصطفى ومن عوايد الترك انهم يعدون نساء عاقرات لايصلحن لخدمة امرائهم وحظوظهم (وهذا السن اى سن عدم الحمل يلحق نساء الترك فى غير اوانه المعتاد بسبب طبيعة قطرهم) ومع ذلك لا يتغير حسنهن بالكلية بل يبقى فيهن نوع جمال بحيث لاتأباهن النفوس فلما تولى السلطان احمد على المملكة زوج هذا الوزير بواحدة من النساء اللاتى كن يخدمنه وكان السلطان يحبها كثيرا فبدسائس هذه المرأة تولى زوجها وزيرا ثم عزل لسبب اخر اقتضى عزله ثم عاد اليها ثانيا للحادثة التى اسلفناها

فلما وصل محمد باشا المذكور الى السراية ليأخذ ختام السلطان وجدها قد تحكم فيها حزب كرلوس وذلك انه رأى ام السلطان ونديمه عليا كومورجى واغاة الطواشية واغاة الانكشارية كلهم يميلون الى الحرب مع قيصر الموسقو ووجد السلطان ايضا قد صمم على ذلك فكان اول ما امره به السلطان ان يذهب لقتال القيصر مع مائتى الف من العساكر وهو وان لم يسبق له قتال قبل ذلك الا انه لم يكن غبيا كما زعمه الاسوجيون لغيظهم منه فقال وقد اعطاه السلطان سيفا مكللا بالجواهر لايخفى دولتكم انى نشأت فى قطع الاخشاب بالبلطة لا فى رياسة الجيوش وقيادتها بمثل هذا السيف ولكنى ابذل غاية جهدى فى القيام بخدمتك فان لم انجح فى هذه المشروعة فليكن فى شريف علمك انى قد ابديت لك عذرى فلا تنسب ذلك لى وتعده قصورا منى

فاظهرله السلطان علامة المحبة والقبول ثم اخذ فى التجهز والاستعداد لامتثال اوامر سيده

وكان اول ما فعلته الدولة العلية فى فتح باب الحرب بينها وبين القيصر هو انها سجنت الجى الموسقو بيين فى القصر المسمى بقصر سبعة الابراج جريا على عادتهم من انهم اذا ارادوا افتتاح الحرب مع احد من الملوك ابتدؤا ذلك بالقبض على وزرائه فهم وان كانوا يقومون بواجبات الضيافة الا انهم لايراعونها فى مثل هذا الامر بل يهتكون حرمتها ولا يعتبرون حقوق الملل بين بعضها و يرتكبون هذا الظلم متعللين انه من باب العدل والانصاف اعتقادا منهم او اظهارا للناس انهم لايشرعون فى غزوة من الغزوات ظلما وبغيا لان قاضيهم قد اقر ذلك ورضى به فهم فى مثل ذلك يعتقدون انهم يحاربون ناقضى العهد مع انهم فى الواقع هم الذين ينقضونه باساءة من عندهم من الجية اعدائهم من الملوك حتى كان لهم دخلا فى نقض العهد الصادر من ملوكهم

ويزاد على ذلك احتقارهم واستهزاؤهم بملوك النصرانية ورسلهم بحيث لايعتبرونهم الا كالقناصل المعدين لتسليك التجارات

وبعث السلطان ايضا لحاكم التتار الملقب خان يأمره ان يتجهز بار بعين الفا من التتار وكان تحت ولاية هذا الامير اقليم نوغاى وبود زياق وجزؤ من بلاد الجركس وجميع بلاد القرم التى كانت مشهورة عند القدماء باسم كرسونيزة التوريكية وهى التى تغلب عليها الرومانيون ورتبوا فيها التجارة وانشأوا فيها مدنا عظيمة ذات شوكة واتى اليها اهل جنوية وصار لهم فيها اخذ وعطاء حين كانت لهم الرياسة فى تجارات اوربا وبرى فى تلك البلاد الى الآن آثار تلك المدائن الرومانية ورسوم مما احدثه فيها اهل جنوية من العمارات قد زالت بهجتها واضمحل رونقها وتخربت بالكلية

و كانت رعية هذا الخان تلقبه بالسلطان وهذا اللقب وان كان اعظم الالقاب لا يخرج هذا الامير عن كونه من اتباع السلطان وخدمه وانما كان

السلطان يحترم هذه العايلة ويخشى باسها لانها من نسل آل عثمان وكان لها الحق في السلطنة عند انقراض ذرية الفرع المتولي فكان هذا هو المانع الحقيقي للسلطان عن ابادة تلك العايلة وتدميرها وكان اذا ولي احدا منها ولاية لا يبقيه عليها مدة طويلة بل يخلعه عنها قبل تقادم المدة لان عمالة المجاورين لهم يخبرونه بحقيقة سلوكهم والانكشارية مقيمون حول ممالكهم يلاحظون افعالهم واحكامهم وكلما ارادوا اجراء غرض عطله الوزراء لانهم داًيما متهمون في اغراضهم واذا اشتكى التتار من الخان المولى عليهم حكمت الدولة بعزله لمجرد هذا السبب واذا احبوه وافرطوا في الثناء عليه كان ذلك عند السلطان ذنبا عظيما يوجب عقوبته بالنفي فعلى هذا جميع حكام هذه العايلة ينتقلون من منصب الحكم الى النفي في جزيرة رودس حتى يموتوا فهذه الجزيرة هي عادة كانت محل سجنهم ومقر رمسهم

ورعية هولاء الحكام هم التتار وهم الصرامة على وجه الارض ومن الغريب انهم مع ذلك يحسنون القرى ويكرمون الضيف اكثر من غيرهم فتراهم يذهبون بالبعد عن اوطانهم بمسافة خمسين فرسخا السلب ما في القوافل وتخريب القرى ومع ذلك اذا مر بهم غريب ايا كان رحبوا به واحسنوا قراه واعدوا له محلا مدة اقامته ويبذلون له ما يحتاجه واذا مر في اي موضع من اماكنهم تنازع عليه اهلها كل يريد ضيافته فاذا ذهب مع احدهم قام بخدمته صاحب البيت وزوجته وبناته على ما ينبغي وهذا الامر قد توارثوه عن اسلافهم وحافظوا عليه لرخص الاقوات والبضايع عندهم وندور مرور الغرباء بهم

ومن عاداتهم انهم اذا ذهبوا مع السلطان في غزوة يكون قوتهم على طرف الخزينة السلطانية واما ماهياتهم فهي ما يغتنمونه من سلب الاعداء فمن ثم كانت لياقتهم للسلب والنهب اكثر منها للحروب وانتظام القتال

ثم ان كرلوس استمال هذا الخان بدسايسه وهداياه فالتمس الخان المذكور من السلطان ان يكون مجمع العساكر عند مدينة بندر ابراهيم ا ملك اسوج فيعلم لك

ذلك لاجله لالغرض آخر ولكن لما كان الوزير الجديد لا يريد التملق لهذا الملك الاجنبي لم يرض بذلك وجعل مجمع الجيوش مدينة ادرنة كما هو عادة الترك من انهم اذا ارادوا قتال النصارى يجعلون مجمع عساكرهم السهول الواسعة الخصبة التى ببلاد ادرنة ومن اتى من الجيوش من جهة آسيا وافريقة يمكث بها بعض اسابيع للراحة من تعب السفر وكذا غيران الوزير لم يمهل العساكر الا ثلاثة ايام خوفا من استعداد القيصر للاقاته وسار بهم حتى وصل الى نهر طونة ومنه الى اقليم بيسربى الذى سبق بيانه

ولم تكن عساكر الترك فى ذلك الوقت شديدة البأس والبطش كما كانت اولا حين فتحت كثيرا من ممالك آسيا وافريقة واوربا فكانوا المزيد قوتهم وفرط شجاعتهم وكثرة عددهم يظفرون على اعدائهم لضعفهم وعدم انتظامهم بخلافهم فيما بعد فان النصارى دائما كانوا يهزمونهم ولو كانوا اقل منهم عددا لجودة معرفتهم بالفنون الحربية والحركات العسكرية واما فتحهم بعد ذلك لبعض بلاد جمهورية البنادقة فانما هو لكون هذه الجمهورية كانت تميل الى الصلح اكثر من الحرب خصوصا وكان من يدافع عنها اجنبيا منها وكانت اعانة ملوك النصرانية لها واهية لما كان بينهم اذ ذاك من الفشل والشقاق

واما الانكشارية وكذلك الاسباهية وهم الدولاتية فلم يكن عندهم انتظام فى اغاراتهم لعدم سماعهم امر رئيسهم وتحريضه لهم عند القتال وكان مقتضى جودة خيولهم ان يكونوا اعظم فرسان الخيالة مع انه لا يمكنهم مصادمة خيالة النيمسا وبقبل ومشاتهم لا يعرفون الى الآن القتال بالسنجة وهى فى طرف البندقة وزيادة على ذلك لم يكن عندهم سر عسكر ماهر فى الفنون الحربية بعد كوبروغلى الذى فتح جزيرة جريد فانى لهذا المملوك الاسير الذى نشأ فى السراية لا يعرف الا البطالة والرخاوة ولم يتول الوزارة الا بمحض الانعام وجبر على رياسة العساكر ان يسير بمثل هذا الجيش الذى جمع بالسرعة من غيران يتمرن على مكابدة الحروب ولا معرفة له بالضبط

والربط العسكريين الى قتال العساكر الموسقوبية التى تعودت على الحرب منذ اثنتى عشرة سنة حتى صار لها فيه باع طويل وتفتخر بظهورها على الاسوجيين وهزمها اياهم

ويظهر من ذلك ان النصرة تكون للقيصر عليهم غير انه سلك معهم ما سلكه معه كرلوس حيث نظر اليهم بعين الاحتقار ولم يكترث بجموعهم فاهمل فى الاحتراس منهم وذلك انه لما بلغه ان الترك تجهز والقتاله هاجر من مدينة الموسقو ورفع القتال عن مدينة ريغا وغيره الى نصب حصارها ومنع دخول امدادات فيها وجمع فى ثغور مملكته ثمانين الفا من عساكره وسار بهم الى بلاد بغدان والافلاق التى كانت تسمى سابقا بالبلاد الداسية وكانت اذ ذاك معمورة بنصارى يونانيين يدفعون الجزية للسلطان

وكان حاكم بغدان فى ذلك الوقت يقال له خان تيمر واصله من اليونان وكان له معرفة بآداب اليونان وفنونهم الحربية ويقال انه من نسل تيمور الشهير المعروف باسم تيمورلنك وهذا الاصل اعظم من الاصل اليونانى الذى نسبه اليه بعضهم وقد استدل من نسبه الى تيمورلنك الشهير بالفتوحات بما بينهما من المشابهة فى الاسماء فقال ان كلمة تيمور قريبة من كلمة تيمر واما كلمة خان فكان تيمور ملقبا بها قبل ان يفتح آسيا فثبت بهذا ان خان تيمر من ذرية تيمورلنك ومثل هذا الدليل تثبت به الانساب غالبا

واياما كان هذا النسب ولو بلغ ما بلغ فى العظم فاصل عظم هذا الخان وعلو شانه انما هو الدولة العلية غير انه لما جعله السلطان عاملا على تلك البلاد خان ولى نعمته بانضمامه الى قيصر الموسقو لانه كان يأمل انه يرفع درجته ويعلى منزلته زيادة عما هو فيه معتقدا ان من ظفر بكرلوس يسهل عليه الظفر بمثل هذا الوزير الضعيف الذى لا معرفة له بفنون الحرب لاسيما وقد جعل معاونه فى ادارة العساكر رئيس الجمارك والعوايد ببلاد الترك وظانا ان اهل ولايته يكونون معه حيث ان البطارقة اليونانيين هم الذين حملوه على العصيان وشدوا عضده فتعاهد معه القيصر سرا وادخله فى زمرة جيشه

ثم مازال يسير فى تلك البلاد حتى وصل فى شهر حيزران سنة ١٧١١ الى الشاطئ الشمالى من نهر هيراز المسمى الآن نهر بروث قريبا من مدينة ياش وهى قاعدة مملكة بغدان

ولما بلغ الصدر الاعظم أن القيصر سائر اليه من تلك الجهة امر بالمسير فورا فصنع قنطرة من السفن ومد عليها الواحا واسعة واجتاز بها هو وعساكره نهر طونة على حسب جريان التيار وكان عمل تلك القنطرة بقرب قرية تسمى سكسيا فى المحل الذى صنع فيه سابقا دارا ملك العجم القنطرة التى كانت تسمى باسمه وجدوا فى المسير حتى وصلوا امام الموسقوبيين بحيث لم يكن حاجز بين الفريقين الا نهر بروث

ولما كان القيصر واثقا بالخان تيمر امير بغدان لم يخطر بباله ان أهل هذه الولاية لا يرضون بالانضمام اليه وانتظامهم فى سلك جماعته ولكن مصالح الملوك والرعايا متباينة غالبا وذلك ان البغدانيين كانوا يحبون حكومة الترك التى لا يقع منها اضرار الا على الاكابر والاعيان وترفق برعاياها الذين يدفعون لها الجزية وتلين جانبها لهم وكانوا يخافون من النصارى لاسيما الموسقوبيين حيث كانوا يعاملونهم اسوء المعاملة حين كانوا تحت حكمهم فمن ثم جلبوا الزاد والذخائر للجيش العثمانى وباع تجارهم للصدر الاعظم البضائع التى كانوا قد اتفقوا مع القيصر أن يبيعوها له وكذلك الافلاقيون المجاورون لهم سلكوا مع الترك مثل هذه المسالك واظهروا لهم مزيد المحبة والتودد فانظر الى خشونة الموسقوبيين القديمة كيف بقيت شدة تاثيرها فى العقول الى الآن

فخاب امل القيصر فيهم حيث اخذ بنظره احوالهم ونظر الى جيشه فوجده خاليا من الاقوات والعلوفات وصارت العساكر تهرب افواجا افواجا حتى نقص عدد هذا الجيش وآل الى اقل من ثلاثين الفا قد اشرفوا على الهلاك من الجوع فبذلك حصل للقيصر على نهر بروث من وثوقه بالخان تيمر نظير ما حصل لكرلوس فى بلطاوا من وثوقه بمازيبة فعند ذلك جاوز جيش الترك

النهر

النهر المذكور وحاصر الموسقو بين ونصب معسكره امامهم وتحصن منهم ومن العجيب ان القيصر لم يمنعهم من اجتياز النهر مع انه كان الواجب عليه ان لم يمنعهم من ذلك ان يحمل عليهم عقب اجتيازهم ليجبر هذا الخلل ولا يصبر عليهم حتى يموت جيشه جوعا والظاهر انه لحقته في هذه الواقعة جميع الاسباب المفضية الى الهلاك وذلك انه نفد منه الزاد وكان خلفه نهر بروث وامامه مائة وخمسون الفا من الترك وار بعون الفا من التتار يغيرون عليه من سائر الجهات دائما فقال في اثناء هذه الحالة الصعبة على رؤس الاشهاد انى هاهنا على حالة رديئة كما كان اخي كرلوس في مدينة بلطاوا

وكان وكيل ملك اسوج وهو القونتة بونياتوسقي الذي كان لا يكل من كثرة ممارسته للامور الشاقة حاضرا اذذاك في جيش الترك مع جماعة من اللاهيين والاسوجيين فاعتقدوا جميعا انه لا محيص عن هلاك القيصر ولما رأى بونياتوسقي انه لابد من تلاقي الجمعين ارسل يخبر كرلوس بذلك فبادر كرلوس بالمسير من مدينة بندير ومعه اربعون ضابطا مسرورا بقتاله للقيصر ثم ان القيصر بعد ان حصل له مشاق فادحة وخسارات كبيرة زحزحوه جهة نهر بروث ولم يكن معه ما يتحصن به الا الشك فلك والعربات لحمل جماعة من الانكشارية والدولاتية على جيشه ردئ التحصين من غير ترتيب ولا انتظام فضادمهم الموسقو بيون وذبوا عن انفسهم وتجدد فيهم حماس وحمية شديدة تولدت لهم من حضور ملكهم ومن اليأس القائم بهم

فتزحزح الترك عن مكانهم مرتين فاشار بونياتوسقي على الصدر الاعظم ان يترك الجيش الموسقوبي جائعا من غير قتال لما انه اذ ارأى تلك الكيفية وقد نفد منه الزاد اضطر بعد يوم الى تسليم نفسه وملكه بالطوع والاختيار

وقد اعترف القيصر فيما بعد عدة مرات انه لم يقع في شدة وحيرة مدة حياته

مثل ماوقع له فى هذه الليلة وذلك انه بات يفكر فيما صنعه منذ سنين عديدة
فى تحصيل السعادة لرعيته ونخارهم على غيرهم من الامور العظيمة التى
كانت تخللها الحروب وصار يتأسف على ضياعها قبل كمالها حيث تحقق
هلاك نفسه فى تلك الواقعة والجأته الضرورة الى احد امرين اما ان يموت جوعا
او يحمل على جيش مقداره مائة الف وثمانون الفا تقريبا بعسكر ضعيفة
نقص نصفها ما بين خيالة هلكت اغلب خيولهم ومشاة اشرفوا على الهلاك
من الجوع والنصب

ودعا فى اول الليل بالجنرال قزرمتوف وامره من غير استشارة ولا تدبر
ان يستعد للعمل على الترك عند الصباح بالسنج وهى فى اطراف البنادق
وامر ايضا بحرق ما معهم من الذخائر والامتعة بحيث لا يبقى لكل ضابط
الاعربة واحدة حتى اذا ظفر بهم العدو لا يجد ما يأخذه من الغنيمة

وبعد ان رتب كيفية القتال مع الجنرال المذكور ذهب الى خيمته متألما
مما اعتراه من التواء اعصابه الذى كان يأتيه فى اغلب احواله ويشتد عليه حين
كان يقع فى شدة ومنع ان يدخل عليه احد مدة الليل لاى حاجة كانت
لئلا يبدى له بعض ملحوظات فى شان هذه العزيمة الضرورية وان كان انما قدم
عليها بعد ياسه وقنوطه ولئلا يطلع على ما هو قائم به من التألم والتاسف

فعملوا بمقتضى امره وحرقوا جزأ عظيما من امتعته فتاسى به فى ذلك جميع
عساكره الا ان بعضهم دفن ما كان معه من الاشياء النفيسة الثمينة ثم امر كل
ضابط جماعته بالمسير وصاروا يحرضونهم على الثبات عند المصادمة
وان كانوا يقولون ما لا يفعلون فسارت العساكر وهم آيسون من النصرة
لانهم كانوا قد اشرفوا على الهلاك مما لحقهم من الجوع والتعب وكانت
نساؤهم اللاتى كان الجيش مشحونا بهن يصحن صياحا يطفى حرارة الشجعان
ويبرد همة الفرسان وكانوا جميعا منتظرين فى الصباح القتل او الاسر
وليس ذلك من قبيل المبالغات بل هو امر واقعى نقله بالحرف الواحد من كان
فى هذا الجيش من الضباط الموثوق بخبرهم

وكان

وكان فى الجيش الموسقوبى امرأة عجيبة كاقيصر كانت تسمى فى ذلك الوقت كاترينة وكانت امها فلاحة مسكينة يقال لها ايرب مغدان من قرية رنجان باقليم ايسطونيا وهو اقليم اهله ارقا مستعبدون وكان اذذاك تحت الحكومة الاسوجية وكان ابوها مجهولا وحين تعميدها سموها باسم مارثة وكفلها قسيس الكنيسة احسانا منه حتى بلغت اربع عشرة سنة ثم خدمت فى مدينة مريانبورغ عند شخص يقال له غلوق كان قسيسا بروتستانيا لتلك المدينة

ثم لما بلغت ثمانى عشرة سنة تزوجت بعسكرى من عساكر اسوج (سنة ١٧٠٢) وفى صبيحة عرسها هزم الموسقوبيون فرقة من عساكر الاسوجيين كان زوجها من جملتهم فلم يظهر له خبر ولم يوقف له على اثر فتحيرت هل هو اسير او قتيل

وبعد مدة يسيرة اسرها الجنرال بوير فخدمت عنده ثم انتقلت لخدمة مرعسكر المسمى قزرمتوف ثم اعطاها للاميرمنزيقوف وكان من المجربين الذين مارسوا تقلبات الدهر وغوائله وذلك انه كان فى صغره يصنع الفطاير ويبيعه ثم ارتقى الى رتبة الامارة فصار جنرالا ثم عزل من منصبه وسلبت امواله ونفى باقليم سيبريا حتى مات به من الفاقة واليأس

فاتفق ان القيصر رآها ذات يوم وكان عند الاميرمنزيقوف يأكلان معا على المائدة فعشقها وتمكن حبها من قلبه فتزوجها خفية (سنة ١٧٠٧) ولم تكن استمالته اليها بالتحيل والخداع وانما وجد عندها ثباتا وكمال نفس وصلاحية لاعانته على اغراضه العظيمة بل ربما كان فيها مقدرة على تتميمها بعد موته وكان منذ مدة طويلة قد طلق اول امرأة تزوج بها وهى المسماة اودوقسة بنت بعض الامراء لانه اتهمها بانها كانت تعارضه فيما يروم اجراءه بممالكه من التحسينات والتغييرات وكان ذلك اعظم الذنوب عنده لانه كان لا يقبل فى عشيرته وعائلته الا من كان يوافقه على رأيه فاعتقد ان هذه الاسيرة تكون على وفق مراده ووجدها قابلة للخصال الملكية وان لم تكن متصفة بصفات

النساء العظيمة فلم يكترث بالاوهام التي تمنع الانسان من الاقدام على مثل هذه المرأة بل تزوجها والبسها تاج الامبراطورية والسبب الذي حمل القيصر على نكاحها كان سببا ايضا في توليها على المملكة بعده فتعجب اهل اوروبا من هذه المرأة حيث انها كانت امية لا تقرأ ولا تكتب ومع ذلك جبرت خلل التربية بالشجاعة والحزم حيث قامت مقام هذا المشرع العظيم ووفت بحقوق القيصرية مع الفخر التام

ولما تزوجها القيصر رفضت الديانة البروتستانتية التي نشأت عليها وتمسكت بدين الموسقو بين فعمدوها ثانيا على مقتضى دينهم وغيروا اسمها الاول وهو مارثة الى كاترينة وهذا الاسم هو الذي اشتهرت به فيما بعد بين الدول وشهدت هذه القيصرة واقعة بروث وكانت في الجيش الموسقوبي كما اسلفناه فعقدت مشورة مع الجنرالات ووكيل المهردار وكان يسمى شافيروف حين كان القيصر في خيمته

وانعقد رأيهم على طلب الصلح من الترك وجبر القيصر على ذلك فحرر الامير شافيروف مكتوبا الى الصدر الاعظم على لسان القيصر فاخذته كاترينة ودخلت به على القيصر في خيمته ولم تعبأ بمنعه من الدخول فثلت بين يديه واكثرت من التضرع والبكاء حتى رضي بما انعقد عليه رأيهم ووضع امضاءه على المكتوب فعند ذلك بادرت بجمع ما معها من الاموال والجواهر الثمينة واقترضت من الجنرالات جملة اموال وجمعت الكل وجعلته هدية وبعثت بها الى عثمان اغاه وكيل الصدر الاعظم مع المكتوب الذي وضع القيصر عليه امضاءه فلما اطلع الصدر الاعظم على المكتوب حمله كبر الوزارة والفئة المنتصرة على ان يجيبهم بقوله يلزم ان القيصر يبعث الي اعظم وزرائه وبعد ذلك اتروى وانظر ما ينبغي فعله معهم ثم حضر اليه الامير شافيروف ومعه هدايا قدمها بين يديه على رؤس الاشهاد ليظهر خاتمهم اليه وان ذلك ليس من قبيل الرشوة

فكان اول ما طلبه الصدر الاعظم هو ان القيصر يسلم في نفسه وجيشه

بالطوع والاختيار فاجابه هذا الامير بقوله ان الاوفق بسيدى حينئذ ان يحمل
عليكم وثم لك عساكره عن آخرها حتى لايلتقم العار بمثل هذه المشارطة
ثم ابدى عثمان اغا رأيه معضد المقالة شافيروف

فعند ذلك امر الصدر الاعظم بالكف عن القتال مدة ست ساعات حتى
يتفقوا على مشارطة مناسبة وذلك لانه كان لامعرفة له بالامور الحربية
خصوصا وقد رأى الانكشارية قد انهزموا بالامس واشار عليه عثمان اغاه
بانه لايترك العاجل المحقق بالآجل المتوهم حيث انه متمكن حينئذ من
المشارطة على وفق مراده واذا امتنع منها وشن الغارة عليهم لايعلم هل يظفر
بهم ام لا

وفى مدة تشاورهم فى هذا الشان حصلت حادثة حققت عندنا ما كان يظن
بالترك من التصميم على مايقولونه وعدم الرجوع عنه وذلك ان اثنين من
اعيان الطليانيين كان من اقارب الامير يليوكا ثم مقام بارطة العساكر
الذين يرمون بالقنبرة فى خدمة القيصر قد تركا معسكرهما وذهبا ليجتنيا عن
علف الخيل فقبض عليهما التتار واتوا بهما الى معسكرهم وارادوا بيعهما
لضابط من الانكشارية فحصل له غيظ شديد من ذلك حيث كان فيه نقض
للمهادنة التى امر بها الصدر الاعظم وامر بالقبض على التتار واتى بهم
وبالاسيرين عند الصدر الاعظم

فخلى سبيلهما وارسلهما الى القيصر وامر بضرب رقاب التتار الذين كان لهم
زيادة همة خلية فى القبض عليهما

ولم يكن ذلك على مرام حاكم التتار عارض فى المشارطة ولم يرض بها حيث
انها سبب فى حرمان التتار من السلب والنهب وحرضه على ذلك الفونتة
بونياتوسقى وصلريذ كرله ان المصلحة فى القتال الان ورأى عثمان اغاه ظهور
على طيش هذا الحاكم وتحريض بونياتوسقى وغلب على ارائهما

واعتقد الصدر الاعظم انه جلب لسيده مصلحة عظيمة بصلحه مع القيصر فعقد
الصلح معه على ان يتخلى عن مدينة ازوف ويحرق سفنه التى بها ويهدم القلاع

العظيمة التى احدثها على بحر بنطش وان مافيها من الذخائر والمدافع يكون
للسلطان وان يخرج عساكره من مملكته وان لا يسيء معاملة القوزاقيين
القلائل الذين تحت حماية اللاهيين ولا من كان منهم تحت حماية الترك وان يدفع
للتتار فى كل سنة اربعين الف بندقى وكانت هذه الجزية مضروبة على
الموسقو بيين منذ زمان طويل حتى ظهر القيصر وانقذهم منها
وبالجملة فقد تمموا شروط الصلح وقاربوا ان يضعوا عليها علامات الرضى
ولم يذكروا فى شأن كرلوس شيأ الا ان بونيانوسقى بذل غاية جهده حتى حمل
الصدر الاعظم على ان يذكر فى ورقة المشارطة ان الموسقو بيين لا يتعرضون
لكرلوس باساءة حال رجوعه واغرب من ذلك انهم ذكروا فى هذا البند انه
يسوغ لكرلوس والقيصر ان يصطلحا اذا احبا ذلك وامكن توافقهما
فبتلك الشروط ثبتت الحرية للقيصر وتمكن من السير بجيشه وذخائره
ومدافعه وطوبجيته واعلامه وامتعته واعطاه الترك جميع ما يحتاجه
من القوت حتى كثر كل شئ عنده بعد عقد المشارطة بساعتين وكان مبدء
تلك المشارطة فى ٢١ من شهر تموز (سنة ١٧١١) وتمت فى غرة شهر آب
فبينما كان القيصر سائرا والطبول تقرع والاعلام منشورة فرحا بنجاته
من الخطب الجسيم الذى لحقه اذ قدم كرلوس متشوفا لقتال عدوه ورؤيته
اسيرا بين يديه وكان قد ركض جواده حتى قطع مسافة تزيد على خمسين فرسخا
من مدينة بندير الى مدينة ياش وكان قدومه وقت شروع الموسقو بيين
فى السير مع الهدء والراحة وكان لا يصل الى الترك الا باجتياز نهر بروث على
القنطرة التى كانت بالبعد عنهم بثلاثة فراسخ فلم يفعل ذلك لما انه كان دائما
لا يوافق الناس فى افعالهم بل اجتاز النهر سباحة مخاطرا بنفسه ان يغرق
ثم عبره رضى الموسقو مخاطرا ايضا ان يقبضوا عليه ويأخذوه اسيرا حتى وصل
الى جيش الترك ونزل فى خيمة القونتة بونيانوسقى الذى اخبرنى بهذه الواقعة
وكتب بها الى فتلقاه وهو حزين واخبره بما كان سببا فى ضياع هذه
الفرصة التى يتعذر وقوع مثلها له

فغضب

فغضب كرلوس لذلك غضبا شديدا وذهب الى الصدر الاعظم ولام عليه ملامة شديدة حتى كان وجهه حينئذ يضطرم نارا وعنفه على هذه المشارطة التي عقدها مع الموسقوبيين فقال له الصدر الاعظم مع الهدء ان الحرب او الصلح امر يخصني ومنوط بي فقال له كرلوس هلا كان الموسقوبيون تحت قبضتك فاجابه الوزير بالعنف والشدة قائلا ان شريعتنا معاشر المسلمين توجب علينا المصالحة اذا طلبها العدو وتضرع الينا في الصفح عنه فقال له كرلوس وقد اشتد غضبه هل امرتك الشريعة ان تعقد مشارطات رديئة مع تمكنك من عقد ما تريده من المشارطات وهلا كان في وسعك ان تأخذ القيصر اسيرا وتذهب به الى اسلامبول

فاشتد غضب الوزير فاجابه بالصعوبة قائلا من يدبر مملكته اذا نحن اسرناه ولا ينبغي للملوك ان يكونوا خارج ممالكهم فما كان جواب كرلوس الا ان تبسم غضبا والقى نفسه على صفة كانت هناك ونظر الى الصدر الاعظم بعين الغضب والاحتقار ومد رجله بجهته وشبك مهماز نعله بثوب الوزير وجذبه فتمزق ونهض حالا وركب جواده وصار الى مدينة بندر آيسا

واما بونياتوسقي فانه بقي مع الوزير وسار يحثه مع اللين وزخرف القول على ان يعقد مع القيصر مشارطة اصعب من تلك وبينما هو كذلك اذ جاء وقت الصلاة فذهب الصدر الاعظم كي يتوضأ ويصلي ولم يتفوه بكلمة واحدة

(المقالة السادسة)

في الكلام على الدسائس التي حصلت في الدولة العلية وعلى حمل خان التتار وحاكم بندر ملك اسوج على السفر وجبرهما اياه على ذلك وعلى مدافعته عن نفسه مع اربعين خادما جيشا كاملا حتى اخذ اسيرا وعومل معاملة الاسرى

قد غدر الدهر بكرلوس بعد السلم فتراكمت عليه غوائله حتى صار يجرعه غصصه في اقل الاشياء واهونها وذلك انه لما رجع الى معسكره الصغير

ومسكنه بمدينة بندر بروجد مياه نهر نيستير قد طفت عليهما حتى اغرقتهما
فانتقل الى محل بقرب قرية تسمى ورنيتزة بالبعد عنهما ببعض اميال وكانه
الهم بما سيحصل له فى المستقبل فبنى فى هذا المحل قصرا من الحجارة متسعا يصلح
وقت الضرورة لمنع الغارة بعض ساعات وجعل فيه اثاثا وفراشا ظريفا على
خلاف عادته ليكون محترما عند الترك وينظروه بعين الاعتبار
وبنى بيتين آخرين اعد احدهما لحامل ختامه وجماعته والثانى لنديمه
غروطزان او غروتسان الذى كان منوطا ببعض موائده وبينما كان كرلوس
مشتغلا بالتشييد والعمارة كانه اتخذ بلاد الترك موطنا له مدة حياته اذ بعث
الصدر الاعظم الى وكلاء ايمبراطور المانيا بمدينة ويانة الجيه الذى كان
باسلامبول يلتمس منه الاذن لكرلوس بالمرور فى اراضى العائلة النمساوية
الورانية خشية ان يشكو فيه كرلوس الى الدولة ويسعى به اليها فبعد مضى
ثلاثة اسابيع حضر الالجى المذكور ومعه اذن من وكلاء الايمبراطور بمرور
كرلوس وانهم يتعلقون بما يليق به من انواع التشريفات ويوصلونه مع الامن
والطمانينة الى اقليم بوميرانيا
وانما خاطب الصدر الاعظم الوكلاء فى هذا الشأن لان الايمبراطور كرلوس
الذى تولى الايمبراطورية بعد يوسف الاول كان اذ ذاك فى اسبانيا بصدد
المعارضة والمنازعة مع فيليبش الخامس ليتغلب على هذه المملكة وحين كان
هذا الالجى الالمانى بمدينة ويانة لاجراء ما هو مبعوث بصدده ارسل الصدر
الاعظم ثلاث باشات لكرلوس يأمرونه بالمهاجرة من الاراضى
التركية
ولما كان كرلوس يعلم ما هم اتون بصدده قال لهم قبل ان يتكلموا معه فى هذا
الشأن انه اذا وقع منكم ادنى منقصة توجب عدم احترامى امرت بتعليقكم
جميعا على المشنقة فورا فلما سمع ذلك باشا سلانيك وكان هو المتكلم فيهم غطى
صعوبة رسالته بلين الكلام واظهار التوقير والاحترام فانهى ذلك كرلوس
بالقيام من غير ان يعبأ بهم ويجيبهم بكلمة وبقى معهم حامل ختامه مولورن

وتكلم معهم قليلا وافادهم ان سيده ممتنع حسبما فهمه من سكوته
ولم يسأم الصدر الاعظم من ذلك ولم يحل تلك القضية بل امر اسماعيل باشا
وكان قريب عهد بالولاية على مدينة بندربان يخوف كرلوس ويهدده بغضب
السلطان اذا هو لم يبادر بالارتحال وكان الباشا المذكور لين العريكة حسن
الاخلاق يميل بطبعه الى الاصلاح وعدم وقوع الفشل والشقاق فبذلك
كان له عند كرلوس وسائر الاسوجيين منزلة عظيمة ومحبة اكيدة فتحادثا
في هذا الشأن وقال كرلوس لا ابرح عن هذا المكان حتى ينعم على السلطان
احمد بشيئين عقاب وزيره وتجهيز مائة الف رجل ارجع بهم الى مملكته
وكان الصدر الاعظم يعلم ان مكث كرلوس في بلاد الترك يفضي الى هلاكه
فاعتنى بالاحتراس من موجبات ذلك حيث وضع خفراء على جميع طرق
بندر الموصلة الى اسلامبول ليقبضوا على مكاتبات كرلوس وزيادة على ذلك
قطع عنه المعاش الذي كانت الدولة العلية ترتبه لمن التجأ اليها من الملوك وكان
معاش كرلوس جسيما جدا لانه كان له في كل يوم خمسمائة ريال زيادة على
ما كانت تسديه اليه من سائر اللوازم التي تقيم الدواوين وتكسبها البهجة
والرونق

فبمجرد ما بلغ كرلوس ان الصدر الاعظم قطع معاشه التفت الى مامور تنظيم
الطعام الملوكي وقال له انت الى الآن لم تنظم الا سفرتين وقد امرتك الآن
انك من غد تنظم اربعا

وكان الضباط الاسوجيون متعودين على انهم لا يرون فيما يأمر به كرلوس
شيأ متعذرا ولم يكن معهم حينئذ دراهم ولا قوت فاضطروا على ان يقترضوا
من ضباط الترك وخدمتهم والانكشارية الذين تمولوا من تبذير كرلوس
واسرافه ويدفعوا على المائة عشرين او ثلاثين او اربعين فعند ذلك بذل فبريس
الجي الامير هولستين ويغروس وزير الانكليز وكاتب السر عندهما واصحابهما
جميع ما كان معهم من الاموال للاسوجيين فن كبر كرلوس وانفته اخذ هذه
الاموال وصار يتقوت بها هو واصحابه مدة يسيرة من غير ان يفكر ماذا يصنع

بعد نقادها فلزمه ان يرسل سرا فى غفلة الخفرا الى اسلامبول يقترض من تجار الافرنج دراهم لحاجته فامتنعوا جميعا من تسليفه حيث يظهر من حاله انه لا يرد ما يقترضه لاربابه الا تاجرا انكليزيا يقال له كولك فانه خاطر بتسليفه اربعين الف ريال تقريبا راضيا بضياعها عليه اذا مات ملك اسوج فاتى بتلك النقود فى معسكر كرلوس حين اخذ كل شئ عندهم فى النقصان وانقطعت طماعيتهم فى سائر الاشياء

وفى ذلك الوقت كتب القونتة بونياتوسقى وهو فى عرضى الصدر الاعظم كتابا يتعلق بواقعة بروث واتهم فيه الصدر الاعظم بالخيانة والجبن شيخ حرم من الانكشارية وتكفل بتقديمه للسلطان لما لحقه من الغضب والغيظ من ضعف الصدر الاعظم وجبنه ولما اسداه اليه بونياتوسقى من الهدايا وطلب الاذن وقدمه للسلطان

وبعد ذلك بايام سافر بونياتوسقى من العرضى وذهب الى الدولة العلية ليسعى بالصدر الاعظم على عادته

وكانت مقتضيات الاحوال مساعدة له وذلك ان قيصر الموسقو لما تمكن من الحرية لم يف بما وعد حيث لم يسلم فى مدينة ازوف ولما كان الصدر الاعظم كفيلا بذلك خشى من غضب السلطان عليه ولم يمكنه المثول بين يديه

وكانت السراية اذ ذاك مشحونة بالدسائس والفتن ومثل هذه الفتن التى توجد فى جميع الدواوين تنتهى عادة فى الدواين الافرنجية اما بفقد منصب الوزارة او بنفى هين بخلافها فى اسلامبول فانها تؤدى الى ضرب الرقاب وموت اكثر من واحد وذلك انه ترتب عليها هلاك الصدر الاعظم القديم وهو كرلولى وعثمان اغا معاون محمد البلطجى الذى هو السبب الاصلى فى صلح واقعة بروث وبها اكتسب فى الدولة العلية منصبا عظيما ووجدوا فى خزائنه خاتم القيصرة كاترينة وعشرين الف ذهبة منها ما عليه طرة سكس ومنها ما عليه طرة الموسقو فكان ذلك دليلا على ان الاموال هى التى

انقذت القيصر من المهلكة وجلبت المصائب الى كرلوس فحكم على الصدر الاعظم بالنفي الى جزيرة لمنوس فمكث فيها ثلاث سنوات ومات ولم يأخذ السلطان امواله عند نفيه ولا عند موته لانه لم يكن غنيا واستدل بعدم ثروته على برآته وحسن سيرته

وتولى الوزارة بعده وزير آخر يسمى يوسف وكان كغيره ممن تقدمه من الوزراء في مساعدة الدهر له وذلك انه ولد في ثغور بلاد الموسقو فلما كمل له من العمر ست سنين اسره التركو وآقار به فاشتراه رجل من الانكشارية ومكث مدة طويلة يخدم في السراية حتى صار ثاني انسان بعد السلطان في الدولة التي كان بها مملوكا اسيرا غيرانه لم يكن له من الوزارة الا مجرد الاسم وانما قلده بهذه الوظيفة التي لا ثبات لها الشاب علي كومورجي السلحدار منتظرا عودها اليه عند الفرصة وذلك ان يوسف المذكور لم يكن له شغل الاوضع الختم السلطاني على حسب اغراض هذا الشاب فظهر تغير سياسة الديوان العثماني من مبدء هذه الوزارة وذلك ان الجيبة قيصر الموسقو الذين كانوا مقيمين باسلامبول بصفة وزرآء ورهائن صاروا يعاملون احسن المعاملة اكثر مما كانوا عليه قبل ذلك وحقق لهم الصدر الاعظم صلح بروث وجعله على وجه متين ومما ازاد كرلوس غيظا واسفا هو ما بلغه ان منشأ اتحاد القيصر مع الدولة العلية سرا هو توسط الجيبة الانكليز والفلمنك في ذلك

وصارت اسلامبول منذ اقامة كرلوس بمدينة بندير كرومة غالبا في انها مركز لتدبيرات النصارى وسياستهم وذلك ان القونتة دبزالورس الجي فرانسا كان يساعد على تنفيذ اغراض كرلوس واستانسلاس وتنجيز مقاصدهما وكان ايضا يعين ... فكانت احزاب كرلوس والقيصر يعارض بعضهم بعضا في الديوان العثماني كما شوهد نظير ذلك سابقا بين احزاب الفرنساوية والاسبانيولية في ديوان رومة

وظهر ان الانكليز والفلمنك لهم دخل في هذه القضية بعد ان كان يظهر من حالهم انه لا دخل لهم فيها ولم يسوا مع احد من الفريقين وذلك ان التجارة

الجديدة التى احدثها القيصر فى قاعدة مملكته وهى مدينة بترسبورغ استمالت اليه هاتين الملتين لرغبتهما فى التجارة وتعلقهما بها
فكان كل من الطائفتين من حزب الملك الذى يروج تجارتهم و يقبلها منهم وكان كل من انضم الى القيصر ينال خيرا عظيما فلا عجب حينئذ من كون وزرآء الفلمنك والانكليز يعينونه سرا ويسعون فى مصلحته عند الدولة العلية وكان من جملة شروط هذه الصداقة الجديدة بينهم وبينه المبادرة باخراج كرلوس من اراضى الترك وذلك اما لكون القيصر يطمع فى القبض عليه حال مروره اولانه كان يظن ان كرلوس اذا وصل الى بلاده لا يخشى بأسه كما هو فى بلاد الترك حيث كان دائما مستعدا لتسليح العساكر العثمانية على الدولة الموسقوبية
وكان ملك اسوج يتضرع دائما الى الدولة العلية ان ترده الى ممالكه مع جيش عظيم يمر به من مملكة له الا ان ارباب الديوان عزموا على رده الى بلاده مع خفراء تبلغ عدتهم سبعة او ثمانية آلاف كانه نزيل عندهم يريدون اجلاءه عن ارضهم لا ملك يريدون اعانته ونصره على عدوه وكتب له السلطان احمد فى هذا الشأن كتابا مضمونه
الى حضرة ذى الشوكة القويه * على جميع ملوك النصرانيه * الآخذ بناصر المظلومين * قامع الفجرة المتمردين * محامى العدل فى المينا الشمالية والجنوبيه * ومقيم الانصاف فى الممالك الافرنجيه * صاحب القدر الشامخ * والمقام الباذخ * حليف الشرف والفخار * ذى العز والهيبة والوقار * محبنا كرلوس ملك الاسوجيين * توج الله مشروعاته بالعز والتمكين
نخبر سعادتكم انه بمجرد تشرف حامل كتابنا هذا الشهير احمد الذى كان سابقا جاويش باشا بتقديمه لدولتكم هذا المسطر المزين بختمنا السلطانى تكونون على يقين مما تضمنه من مقاصدنا وهى اننا كنا قد عزمنا على ارسال جيوشنا المنصورة لقتال قيصر الموسقو لكنه سارع الى مرضاتنا وتجنب غضبنا الذى نشأ عن تأخره فى العمل بمقتضى شروط صلح بروث بكونه جدد المشارطة ثانيا

وردلنا مدينة ازوف مع قلعتها وبذل جهده في البحث عن مصالحتنا مصالحة مستمرة لاتنقطع بتوسله الينا باعزاحبابنا قديما وهم الجية الانكليز والفلمنك فانعمنا بذلك عليه واعطيناه علامة القبول واقرارلاجيته الذين هم عندنا كالرهائن بعدان اخذنا منهم حجة تشتمل على امضاء قيصرهم والتزامه بالعمل بمقتضى المصالحة التي طلبها

ونخبركم ايضا انه قد صدرت اوامرنا المبرمة ذات المصلحة للبطل المحترم دلوبت غوري حاكم بود جياق و بلاد القرم ونغاوى و بلاد الجركس والحاكم بندير احدارباب ديواننا وهو صاحب الكرم والجود اسماعيل باشا (لازال امر تقيين الى مراتب العزو السيادة واعطاهما المولى حسن التدبير وزيادة) في شأن عودك الى وطنك بمملكته كما هو مرامك الذي اخبرتنابه عدة مرات فبناء على ذلك ينبغي لك ان تستعد للسفر الى بلادك مفوضا امرك الى مولاك وقد عينا السفر معك في الشتاء الآتي خفرا عظيما ويلزم ان تمر بمملكة له مع الهدء من غيران تمد اليها يد العداوة والافساد

وقد صدرت الاوامر الى ديواننا باعطائك جميع لوازم السفر من دراهم ورجال وخيول وعربات ونوصيك ان تأمر اصحابك من الاسوجيين وغيرهم ان لايرتكبوا ادنى خلل ولايفعلوا شيأ يؤدي الى نقض الصلح والمحبة سواء ادى اليه بنفسه اوبغيره

وبهذا تعلم ما بيني وبينك من المودة ومراعاة الخاطر التي تظهر لك امارتها كلما وجدت لذلك فرصة وان شاء الله تعالى عند الارتحال تصدر الاوامر على وفق مرامنا للعساكر المعينين للسفر بمعيتك جرر في ديواننا في ١٤ ربيع الاول سنة ١١٢٤ (المقابل لتاسعة عشر من شهر نيسان سنة ١٧١٢)

ولم يقتطع امل كرلوس بهذا الكتاب بل كتب للسلطان كتابا يثني عليه فيه ويقول له اني معترف لدولتكم مدة حياتي بما اسديتموه لي من النعم الجزيلة غير اني معتقد اعتقادا جازما بانك وافر العقل كامل القريحة فلاترضى

ان يكون معي في هذا السفر مثل هذا الخفر القليل وامر به في بلدة مشحونة بعساكر القيصر وما قاله كرلوس صحيح وذلك ان القيصر وان التزم في البند الاول من مشارطة بروث انه يخرج عساكره من مملكته لم يعمل بذلك بل ادخل فيها عساكر آخرين من بلاده ومن الغريب كون السلطان يجهل ذلك

وذلك ان من وداعة سياسة الدولة العلية انها تمكن الجنية النصرانية من المكث باسلامبول معتقدة ان في ذلك فخر الها ولا تعين من طرفها وكيلا في الدواوين النصرانية فمن ذلك يطلع النصارى على مقاصدها السرية من غير ان تعرف شيئا مما يقع في دواوينهم ولو حصل على رؤس الاشهاد

وايضا لما كان السلطان دائما عند نسائه وسراريه وحواشيته كان لا يعرف ما يقع في مملكته الا باخبار الوزير وحيث ان الوزير كان ايضا كسيده في العزلة وكان مشتغلا دائما بتسكين ما يقع في الديوان من الفتن والدسائس ولم يكن له مراسلات اجنبية يعرف بها احوال العالم كان في العادة مغشوشا لا يطلع على الحقيقة بل ربما غش السلطان الذي من عادته انه ان علم له ادنى هفوة عزله او شنقه وينتخب وزيرا آخر فيقفو اثر سلفه في الجهل واللبس او الخيانة والالباس ويؤول امره الى احد الامرين المذكورين

ويظهر من حالة ديوان الترك وعدم اعتناء اربابه بالامور السياسة وفتور همتهم عن البحث عنها انه لو تحزب عليهم ملوك النصرانية واتفقت كلمتهم لوصلت سفنهم الى بوغاز الدردانيل وعساكرهم البرية الى ابواب مدينة ادرنة من غير ان يشعروا بذلك ويستعد والذب عن انفسهم ولكن اختلاف مصالح ملوك النصارى الذي هو سبب مستمر في وقوع الفشل بينهم هو المنقذ للترك من هذا الخطب الذي يظهر انه سيلحقهم عن قريب لعدم معرفتهم بالسياسة وفنون الحرب والملاحة

ولما كان السلطان احد لا خبرة له بجميع ما يقع في مملكته لم يرسل اليها من طرفه ضابطا من الاغوات ليحقق ما اخبر به من ان العساكر الموسقوبية فيها

الى

الى الآن واصحبه بكاتبين سرمن الاسوجيين كان لهما معرفة بلسان الترك ليشهدا عليه اذا هو لم يخبر بالحقيقة

فذهب الضابط المذكور اليها ورأى الحقيقة بعينى رأسه وجاء الى السلطان واخبره بها فكبر ذلك عليه واغتاظ من وزيره فلولا نديمه على كومورجى الذى كان دائما يذب عن الوزير ويحامى عنه ظنا منه انه محتاج اليه وطلبه من السلطان العفو عنه وابقاءه على الوزارة لانتقم منه وامر بشنقه

وكان هذا الوزير يدافع عن الموسقويين على رؤس الاشهاد وعلى كومورجى يدافع عنهم خفية بعد ان كان لا يميل اليهم ومع ذلك اشتد غضب السلطان عليهم لما وقع منهم من عدم العمل ببعض شروط الصلح وطلب الانكشارية قتالهم وكان الوزراء والندماء بل والسلاطين يخشون بأسهم ويخافون سطوتهم فلم يمكن لاحد من الديوان مراجعتهم فى مطلوبهم

وعما قليل سجن السلطان الاجلية الموسقوية فى قصر سبعة الابراج وكانوا قد تمرنوا على السجن وتعودوا عليه كتعوّدهم على مقابلة السلطان وانعقد الحرب مع القيصر ثانيا وانتشرت الاطواخ وصدرت الاوامر لجميع الباشات ان يجمعوا جيشا يبلغ مأتى الف مجاهد وترك السلطان مدينة اسلامبول وذهب بديوانه الى مدينة ادرنة ليكون قريبا من المعركة

وفى اثناء هذا الزمن وصل الى السلطان من طريق ادرنة رسل محتفلون احتفالا عظيما من طرف اغسطوس وجمهورية بولونيا يقدمهم حاكم مازوى وعدتهم ثلثمائة رجل

فامر السلطان بالقبض عليهم وسجنهم فى احدى ضواحى المدينة ولم يفرح الاسوجيون الا فى هذه الفرصة واملوا فيها حصول مرغوبهم الا انهم لم تجد نفعا بل ضاع فيها عشمهم وخاب املهم

وقد بلغنى ممن يوثق به لكمال عقله وتبصره فى عواقب الامور وهو احد الوزراء الذى كان اذ ذاك باسلامبول ان الشاب عليا كومورجى كان مضمرا فى نفسه خلاف ما قصده السلطان من نزع الصحارى القفرة عن القيصر فى تلك

الواقعة التى لم يتحقق نصرته فيها فكان عازما على ان يأخذ من البنادقة مورة ويستولى على بلاد المجار ولم يكن ذلك متوقفا على شئ سوى ان يتقلد بالوزارة التى لولا حداثة سنه لتقلدها منذ زمن فمن ثم لزمه ان يكون مع القيصر لا عليه وكانت مصلحته بل وبغيته اخراج كرلوس من ممالك الترك لا ان تجند لاجله جنود بل كان يأمل اعظم من ذلك حيث كان يقول على رؤس الاشهاد ينبغى من الآن فصاعدا ان لا يقبل احد من وزرآء النصرانية فى اسلامبول لما ان جميع الايلجية بها ليسوا الا جواسيس محترمين يفسدون الوزراء بالرشوة او يخونونهم ويوقظون الفتن فى الدولة واما الافرنج المقيمون بضاحية بيك اوغلى والاسكلات المشرقية فهم تجار لا يحتاجون للايلجية وانما يحتاجون الى قنصل وكان له الفضل على الصدر الاعظم فى حفظ نفسه وتقليده بالوزارة فمن ثم كان دائما يبادر بتنفيذ اغراض هذا النديم ويخشى بأسه خصوصا والموسقوبيون قد استمالوه اليهم بما بذلوه له من الرشوة وكان يريد الانتقام من ملك اسوج حيث قصد عزله وايقاعه فى المهالك وكان المفتى ايضا اسير مقاصد هذا النديم لما انه كان من اشراقه وذلك انه افتى بقتال الموسقوبيين حين عزم عليه كومورجى المذكور ولما ترك هذه العزيمة افتى بتحريمه وانه من باب الظلم والعدوان فبمجرد جمع العساكر وتجنيد الجنود للحرب مع الموسقوبيين اخذوا فى المذاكرة فى شأن الصلح معهم فالتزم كل من وكيل مهردار القيصر المسمى شافيروف والشاب كزرمطوف وكانا الجيين ورهينين عند الدولة العلية من طرف القيصر ان يخرج القيصر عساكره من مملكة له فوضع الصدر الاعظم امضاه على ذلك وان كان يعلم ان القيصر فى الواقع لا يفعل ذلك ولا يجريه واستمر السلطان بمدينة ادرنة مسرورا بكونه وضع على الموسقوبين قوانين فى الظاهر فانظر كيف حصل الصلح مع الموسقوبيين ثم العزم على قتالهم ثم الصلح معهم ثانيا فى اقل من ستة اشهر

وكان اول بند من هذه المشارطة يتعلق بسفر ملك اسوج من بلاد الترك الا ان

السلطان

السلطان خشى من القدح فى عرضه والتكلم فى الدولة العثمانية بكونه يعرض كرلوس لاعدائه بحيث يتمكنون من القبض عليه فى الطريق فاشترط فى سفره ان الجى الموسقو والجى مملكة له يتكفلان بحفظه وعدم التعرض له فى الطريق وانهما رهينان على ذلك حلفا عن لسان ملكيهما انه لا ينكد عليه فى سفره لا من طرف القيصر ولا من طرف اغسطوس ولكن يلزم ان كرلوس لا يفعل خللا فى مملكة له ولما رتب الديوان ما يتعلق بكرلوس ذهب اليه اسماعيل باشا حاكم مدينة بندير فى قرية وورنيطزه التى كان كرلوس معسكرا بها واخبره بما انحط عليه رأى الديوان وزخرف له القول وحسن العبارة وافاده انه لابد من السفر

فلم يجبه كرلوس بشئ سوى ان قال له ان السلطان وعدنى ان يجهز للسفر معى جيشا كبيرا لا ارطة صغيرة ومواعيد السلاطين لابد من الوفاء بها

وفى ذلك الوقت كان بين الجنرال فليمنغة وزير الملك اغسطوس ونديمه وبين خان التتار وحاكم مدينة بندير مراسلات سرية فقد سافر مسيو لمار غير مرة من مدينة بندير الى مدينة درسدة التى كان بها فليمنغة وكان لمار هذا من اعيان الفرنساوية وميرالاى فى خدمة مملكة سكس فاوجب تردده الى هاتين المدينتين الشك وسوء الظن

وفى ذلك الزمن ايضا قبض ملك اسوج فى حدود مملكة الافلاق على ساع كان قد ارسله الجنرال فليمنغة الى خان التتار واخذ منه المكاتيب وقرأها فاذا فيها اتفاق ظاهر بين التتار وديوان درسدة ولكنها كانت مشتملة على الفاظ مبهمة فلم يعلم منها هل غرض اغسطوس مجرد ارتحال كرلوس من بلاد الترك او ان خان التتار يسلم فيه لجماعته السكسونيين حين عوده لمملكته

ولكن يبعد ان ملكا كريم النفس ذا مروءة كاغسطوس يقبض على كرلوس ويعرض للهلاك الجيته ونحو ثلثمائة من اعيان اللاهيين الذين كانوا محجوزين فى مدينة ادرنة مرهونين على حفظ كرلوس وامنه

ولكن يمكن وقوع ذلك اذا نظر الى حيثية اخرى وهى ان فليمنغة كان مطلق

التصرف وكان مشهورا بالمكر والخديعة وعدم الاكتراث بالحقوق والقوانين لا سيما وما وقع من كرلوس من الاساءة فى حق اغسطوس يكون عذرا فى الانتقام منه باى عقاب كان ومما يجوزه العقل انه اذا امكن لديوان درسدة ان يشترى كرلوس من خان التتار فلا يصعب عليه ان يشترى من الدولة العلية حربة اللاهيين المرهونين

وجميع هذه الدلائل وقعت فى شأنها المذاكرة بين كرلوس ومولورن حامل ختامه وغروطزان نديمه وكرروا قراءة المكاتيب المذكورة فاورثتهم الحالة الرديئة التى كانوا عليها ان اعتقدوا انهم عازمون على الغدر بهم

وبعد ذلك بايام تحقق ما اعتقده كرلوس بسفر القونتة سايبها على حين غفلة بعد ان كان ملتجئا اليه الى مملكة له ليتضرع الى اغسطوس ويستسمحه فيما وقع منه فى حقه فاعتقد كرلوس ان سفره من عنده والحالة هذه محض خيانة بخلاف ما لو سافر فى وقت آخر فانه ربما كان يحمل ذلك على انه حصل له اغاظة من طرفه ومما زاد فى تحقق اعتقاده الالحاح عليه بالسفر من طرف الدولة العلية فبواسطة ما جبل عليه من العناد وانضمام ذلك الى ما ظهر له من القرائن المثبتة لاعتقاده ثبت عنده ثبوتا جليا انهم يريدون الغدر به وتسليمه لاعدائه مع ان ذلك لا حقيقة له ولم يدل عليه دليل بل الواقع انه اخطأ فى فهمه ان اغسطوس اشتراه من التتار واكبر من هذا الخطا اعتماده على الدولة العلية وانتظاره الاعانة منها ولكنه كان يأمل ذلك منها ويعتقد انه لابد منه على تداول الازمان

ثم لما اخبره حاكم بندير بما تقدم قال له لا اسافر حتى اقضى ديونى لانه وان كانت الدولة قد اعادت لى معاشى ومصروفى الان سخاء وكرما احوجنى الى الاقتراض فقال له اسماعيل باشا المذكور وما تريد فقال من غير روية الف كيسة وهى تساوى من نقود الفرنساوية الف الف وخمسمائة الف من الفرنكات فكتب الباشا بذلك الى السلطان فانعم عليه السلطان بما طلبه وزيادة مائتى كيسة وكتب للباشا هذا المكتوب

الغرض

الغرض من تحرير هذا المنشور السلطاني هو اخباركم بان سخاء السلطنة اقتضى ان تنعم على ملك اسوج بالف كيسة على موجب ما اخبر تمونا به انتم والخان الغوري الشريف احد حكام مما لككما وقد صدرت اوامرنا بان هذا المبلغ يرسل الى مدينة بندير صحبة الشهير محمد باشا الذي كان سابقا جاويش باشا ويسلمه اليكم ليكون تحت رعايتكم حتى يسافر ملك اسوج نسال الله تعالى ان يوصله الى بلاده بخير وسلامة فيعطى له هذا المبلغ عند السفر مع مائتي كيسة سمح بها استضافا زيادة عن مطلوبه

واما من خصوص طريق مملكته التي عزم على المرور بها فامركم ان تهتم انت والخان حيث تعينتما للسفر معه وتحترسا كل الاحتراس حتى لا يصدر عن احد من عساكركما ومن الاسوجيين ضرر ولا خلل يخل بالصلح بين الدولة العلية ومملكته وجمهوريتها بحيث يمر بها ملك اسوج تحت عنايتنا كانه محب مسالم

فاذا فعل ما اوصوه به من ذلك حصل له ما يسره من التشريفات اللائقة بحضرته من طرف اللاهيين حسبما التزم به الجيسة الملك اغسطوس والجمهورية في المشارطة حيث رهنوا انفسهم مع جماعة من اعيان اللاهيين على عدم اساءة ملك اسوج واطمئنانه حال مروره

واذا اتى الوقت الذي تجدانه لائقا للسفر فلتكونا في صدر ابطال عساكركما من التتار وغيرهم حتى توصلا ملك اسوج واصحابه الى بلادهم مع الامن والطمانينة

واسال الله الذي لا اله الا هو ان يرشدكم ومن بصحبتكم من الاسوجيين الى طريق الخير والسلامة وقد امرنا باشا مدينة اولوس ان يمكث في مدينة بندير ليحفظها مدة غيبتك مع فرقة من الدولاتية وفرقة من الانكشارية واذا عملتما بما امرنا كما به في جميع الاحوال ولم تهملا في شيء منه كنتما مستحقين لاستمرار انعامنا عليكما وكذلك كل من عمل به استحق الثناء والمكافاة

حرر ذلك في اسلامبول ٢ شوال (سنة ١١٢٤) من الهجرة المحمدية

وبينما كانوا ينتظرون هذا الكتاب من السلطان اذ كتب كرلوس للدولة العلية يشتكى من خيانة التتار التى اتهمهم بها وكانت الطرق حينئذ مخفورة وزيادة على ذلك كان الصدر الاعظم عليه لا معه فكانت مكاتيبه لا تصل الى السلطان بل منع الالجى دير الورس ان يأتى مدينة ادرنة التى كان بها الديوان مخافة ان هذا الوزير يبطل ما عزم عليه ارباب الديوان من اخراج كرلوس من بلادهم لانه كان من حزبه

فلما رأى كرلوس ان مرامهم اجلاؤه عن مملكتهم اغتاظ من ذلك وصمم على عدم السفر بالكلية

نعم كان يمكنه ان لا يسافر من طريق مملكته لما انها فى ظنه خطرة عليه بل يذهب من طريق المانيا او يركب البحر الاسود ليصل الى مرسيليا من البحر الابيض الا انه آثر ان لا يطلب شيأ من ذلك وان ينتظر حوادث الدهر

ولما وصل المبلغ المذكور الى اسماعيل باشا بمدينة بندر ذهب اليه غروطزان خازن دار كرلوس وكان قد تعلم التركية فى هذه المدة وكلمه مشافهة من غير ترجمان قاصدا ان يأخذ منه الدراهم وبعد ذلك يبدى فى الدولة العلية دسائس جديدة مؤملا ان الحزب الاسوجى يقوم الدولة العلية على قيصر الموسقو

فقال للباشا انه لا يمكن لسيدى ان يتجهز للسفر من غير دراهم فقال له الباشا ان مصاريف سفركم علينا وسيدك لا يصرف شيأ ما دام تحت حماية سيدى

فاجابه غروطزان بقوله فرق بين الاثقال الافرنجية والاثقال التركية فانه يلزم ان نحصل مواد سفرنا من صناع الاسوجيين واللاهيين وتجارهم بقرية ورنيطزة

ثم اخبره ان سيده مستعد للسفر وان هذه الدراهم تسهل عليه السفر وتقرب وقته فلما كان هذا الباشا من طبعه سرعة التصديق وعدم اتهام الناس فى اخبارهم اعطاه المبلغ المذكور ثم بعد ايام ذهب الى الملك يسأله فى شان

السفر على وجه التطوع والاحترام منتظر امره فيه

فما اشد حيرته حين قال له كرلوس لست مستعد السفر بل انا محتاج الى الف كيسة ايضا فوقع هذا الكلام الحسرة في قلبه ومكث برهة لا يقدر على التكلم ثم ذهب جهة شباك فنظره ودمعه يتحدر ثم قال للملك سافقد الحياة في نظير ما صنعته مع حضرتك من المعروف حيث دفعت لك المال مع ان سيدي امرني صراحة ان لا اسلمه اليك الا عند السفر وخرج من عنده والاحزان مقرا كمقر عليه

فاوقفه كرلوس وقال له ساعتذر عنك لسيدك فقال له الباشا وهو سائر ان سيدي لا يقبل عذرا بل يعاقب كل مذنب

ثم ذهب الى خان التتار واخبره الخبر فخاف ايضا من غضب السلطان لما انه كان مأمورا مثل الباشا انه لا يعطي المال لكرلوس قبل سفره وقد اقر الباشا على دفعه اليه فكتبا للديوان ليخلصا انفسهما من هذه الورطة واقسما انهما لم يسلما في الدراهم الا بعد وعد وزيرملك بالسفر على الفور وتضرعا للحضرة العلية ان لا تنسب اليهما امتناعه من السفر

ولما كان كرلوس مصمما على اعتقاده ان الخان والباشا المذكورين يريدان تسليمه لاعدائه بعث جوابا الى رسوله الى الدولة العلية المسمى فونق يأمره فيه ان يعرض فيهما للسلطان وان يطلب منه الف كيسة اخرى ولفرط كرمه وعدم اعتنائه بشأن الاموال بحيث لم يكن لها عنده وقع ولا اعتبار لم يدر ان في طلبه هذا دناءة ومنقصة وانما طلب ثانيا ليتمنع السلطان من اجابته فيتعلل في عدم الصدقة بالاحتياج ومن اضطر الى مثل هذا الاحتيال كان في الناس على اسوء حال ثم ان ترجمانه المسمى دوارى اخذ الجواب وقصد مدينة ادرنة وكان ماهرا جسورا فسار في تلك الجهة مع ما كان على الطريق من الخطر الذي رتبه الصدر الاعظم

فجبر فونق على ان يطلب من السلطان ما امره به سيده وان كان ذلك يعرضه للخطر فما كان جوابهم له الا حبسه وغضب السلطان لذلك غضبا شديدا

وعقد مجلسا غريبا تكلم فيه بنفسه مع ان هذا نادر جدا وها هو كلامه على حسب ترجمته فى ذلك الوقت

انى لم اعرف ملك اسوج الامن حين هزيمته فى واقعة بلطاوا تقريبا وتوجيه منى ان اتم عليه بملجأ فى سلطنتى واظن انى لست محتاجا اليه وليس هنالك مقتض لمحبته او الخوف منه فقبلته واعتنه مع وزرائه وضباطه وعساكره واغدقت عليهم بما لا يحصى من النعم والهدايا مدة ثلاث سنين ونصف من غير ان يكون لذلك داع الاقيامى بحقوق الضيافة الواجبة على المسلم وكرمى الذى يعم نداه دائما الاعيان والرعاع والرعية والاجانب

وبعد ذلك انعمت عليه بخفر عظيم ليوصله الى بلاده وطلب منى الف كيسة ليصرفها فى لوازمه مع انى قائم بمصاريفه كلها فانعمت عليه بالف ومائتين فتحيل على حاكم بندير واخذها منه ثم طلب الفا اخرى ولم يرد الارتحال متعللا بان الخفر صغير مع انه كبير جدا بالنسبة للمرور ببلادة مسالمة لنا

وها انا اسالكم هل فى طرد هذا الملك اخلال بحقوق الضيافة وهتك لحرمتها وهل تتهمنى الممالك الاجنبية بالظلم وعدم المروءة اذا انا اضطررت الى جبره على الخروج من بلادنا فاجاب ارباب الديوان جميعا ان حضرة السلطان اذا فعل ذلك فقد انصف ولا ملام عليه

وقال المفتى ان الضيافة لم توجبها الشريعة لكافر على مسلم لاسيما اذا جحد النعمة واعطى بذلك فتوى حسبما هو عادتهم من مقارنة اوامر السلطان المهمة بها لتعضيد التلك الاوامر لما ان الفتاوى عندهم امرها جسيم ومقامها عظيم حتى انهم يحترمونها كانها وحى من الله عز وجل وان كان اربابها من مماليك السلطان كغيرهم

فاخذ الميراخور الاكبر (ناظر الاصطبلات) وجاويش باشا اكبر رسل المحكمة امر السلطان والفتوى وذهبا بهما الى مدينة بندير فتلقاهما الباشا حاكم بندير عند خان التتار واخذ الامر والفتوى وذهب الى قرية ورنيطزة وسال كرلوس هل تريدان تسافر مع بقاء المحبة بيننا او تحوجنا الى اجراء

اوامر

اوامر السلطان

فلما سمع كرلوس منه هذا التهديد لم يتمالك نفسه من شدة الغيظ الذي قام به وقال له اطع سيدك فيما امرك به ان امكنك ذلك واخرج من عندي فاغتاظ الباشا وخرج من عنده مسرعا يركض فرسه على خلاف عادة الترك فصادف في طريقه فيريس فصاح وهو سائر ان الملك لم يرض بسماع الحق وستنظر اشياء غريبة ثم انه في هذا اليوم قطع مرتب كرلوس واخذ من عنده الانكشارية الذين كانوا يخفرونه وارسل للاهيين والقوزاقيين الذين بقرية ورنيطزة انهم ان كانوا يريدون المعاش فليتركوا كرلوس ويأتوا الى مدينة بندير تحت حماية الدولة العلية فلما بلغهم ذلك ذهبوا جميعا وتركوا الملك اسوج مع ضباطه وثلثمائة من عساكر الاسوجيين لقتال عشرين الفا من التتار وستة آلاف من الترك

فلم يجد الاسوجيون قوتا لانفسهم ولا لخيولهم فامر كرلوس جماعته ان يأخذوا عشرين فرسا من الخيول العربية التي كان اهداها له السلطان ويخرجوها بعيدا عن العرضي ويقتلوها بالرصاص قائلا اني لا اريد منهم قوتا ولا خيلا فكان ذلك اجود طعام عند عساكر التتار لان من المعلوم انهم يستلذون لحوم الخيل ثم احدقت عساكر التتار والترك بعرضي كرلوس من جميع الجهات

فامر كرلوس من غير دهشة ولا تحير في هذا الامر الثلثمائة اسوجي ان يعملوا خنادق متينة للتحصين واشتغل فيها بنفسه وكذلك المهردار والخازندار وكتاب السر والفراشون وسائر الخدمة كلهم صاروا يشتغلون ايضا فكان بعضهم يسد الشبابيك وبعضهم يضع خلف الابواب شواحي على شكل الاعمدة

ثم لما تمموا هذا التحصين الواهي وطاف به الملك للفرجة عليه اخذ يلعب الشطرنج مع نديمه غروطزان بالهدء التام حتى كانه في غاية من الطمانينة والامن على نفسه وجميع ما معه من العساكر والاموال ولسعادة بخت

فبريس رسول دوق هولستين لم يكن حينئذ فى قرية ورنيطزة بل كان فى قرية صغيرة بين ورنيطزة وبندير وكان بها ايضا فبريس الجى الانكليزالى ملك اسوج ولما رأى كل من هذين الوزيرين ان هذه المصيبة قدحان وقتها وهبت ريحها تكفلا ان يكونا واسطة بين الترك وملك اسوج فى الصلح وارجاعه عما نواه فقدما فى ذلك لحاكم التتار وباشا مدينة بندير فقبلا منهما ماعرضاه عليهما من غير توقف لانهما كانا لا يريدان ظلم كرلوس فى شئ وتذاكروا جميعا فى هذا الشأن مرتين بحضور الميراخور الاكبر وجاويش باشا اللذين كان قدأتيا بامر السلطان والفتوى

فقال لهم فبريس ان ملك اسوج وجد قرآئن اثبتت عنده انكم تريدون تسليمه لاعدآئه فى مملكته فاقسم الخان والباشا وسائر الحاضرين واشهدوا الله عزوجل ان هذه الخيانة لم تخطر ببالهم فضلا عن كونها مرامهم وانهم يؤثرون القتل دون ان يفعل مع ملك اسوج ادنى شئ يوجب عدم احترامه وينقص بمقامه فى مملكته وقالوا ان الجيية الموسقو بيين واللاهبين تحت قبضتنا نقتلهم اذا لحق ملك اسوج ادنى منقصة ثم تشكوا من اساءته الظن بجماعة رحبوا به ووفوا بواجباته ومع ان الحلف فى الغالب ليس الاخباء للخيانة وثق فبريس بايمانهم لما ظهر له عليها من علامات الصدق التى لا يشم منها للكذب رآئحة بخلاف العلامات التى يتزيا بها الكذب فانه يرى من خلالها انهم وان كان يعلم ان بين خان التتار واغسطوس مراسلات سرية الا انه تحقق انه ليس الغرض منها الا مجرد اخراج ملك اسوج من اراضى السلطان وعلى كل حال سواء كان مغشوشا فيما ابدوه له ام لا التزم لهم ان يكلم كرلوس فى شأن اساءة ظنه بهم وان ذلك غير مناسب ثم سألهم هل تريدوب جبره على السفر فاجابه الباشا نعم نجبره امتثالا لامر السلطان فقال ارجو منكم ان تراجعوا امر السلطان لتنظروا هل يتضمن سفك دم هذا الملك فقال الخان مغضبا نعم اذا هو عصى امر السلطان فى بلاده

وكانوا اذذاك قد استعدوا بالكلية للاغارة على كرلوس حتى صارمونه

مما لا مفر عنه ولم يكن امر السلطان صريحا في قتله اذا امتنع من السفر فالزم الباشا الخان ان يهمل هذا الامر حتى يبعث رسولا الى مدينة ادرنة التي كان بها السلطان ليقفا على قصده ويعلما آخر امره

فانتهز كل من يغريس وفبريس فرصة هذه المهلة القليلة وذهبا بالسرعة الى كرلوس يخبرانه بتلك المهلة كأن معهما خبرا يسره فتلقاهما من غير ان يهتم بشأنهما واذاهما بتسميته لهما ساعاة الصلح المتطوعين ثم انبت لهما ان امر السلطان والفتوى انما هما من عنديات الباشا والخان وافتراتهما حيث بعثا يطلبان اوامر اخرى من الديوان

فعند ذلك خرج الوزير الانكليزي عازما ان لا يتعرض اصلا الى مصلحة مثل هذا الملك الذي لا يقبل النصيحة واما فبريس فاستمر عنده لما ان كرلوس كان يحبه وكان هو قد تعود على طبيعة الملك واخلاقه اكثر من الوزير الانكليزي وصار يتضرع اليه ان لا يخاطر بنفسه فيما لا طائل تحته فما كان جواب الملك له الا اطلاعه على الخنادق ولم يسأله في شيء الا انه يتوسط في جلب القوت اليه فظفر بذلك فبريس حيث اجابه الترك واذنوا في ادخال القوت الى الاسوجيين حتى يرجع الرسول من مدينة ادرنة بل منع الخان التتار الذين كانوا متشوقين بالكلية الى السلب والنهب ان لا يضروا بالاسوجيين في شيء حتى ياتي امر جديد حتى ان كرلوس كان يخرج من معسكره احيانا ومعه اربعون فارسا من الخيالة فيعدو بهم في وسط العساكر التتارية فيتنحون له مسلكا مع الاحترام والتوقير وربما كان يقصد المرور وهم مصطفون فيتنحون له ويدعونه يمر في خلال الصفوف عوضا عن معارضته ومنعه

ثم اتى امر السلطان بقتل جميع من يعارض ادنى معارضة من الاسوجيين ولو كرلوس فمن مكارم اخلاق الباشا اطلاع فبريس على هذا الامر ليجتهد في نصح كرلوس وارجاعه عما هو عازم عليه فذهب فبريس واخبره بهذا الامر المحزن فقال له الملك هل اطلعت على هذا الامر الذي تتكلم عليه قال نعم

فقال اذهب اليهم وقل لهم عن لساني ان هذا الامر الثاني من اختلاقكم ايضا ولا سبيل الى السفر فوقع فبريس على قدمي الملك وغضب ولامه على عناده فلم يجد ذلك شيأ بل تبسم الملك وقال له ارجع الى انزاكك فان لي قدرة على مصادمتهم والذب عن نفسي اذا هم هجموا علي

فجثا القسيسون على ركبهم امامه وتضرعوا اليه ان لا يعرض للقتل المحقق بقايا المساكين الذين خاربوا معه في واقعة بلطاوا ولا سيما نفسه الزكية وذكروا له ان مقاومته للترك من باب الظلم والعدوان وانه يهتك حرمة الضيافة اذا هو عاند وصمم على المكث رغما عن انف هؤلاء الاجانب الذين اعانوه واكرموه مدة طويلة فغضب من كلامهم ولم يكن غضب من فبريس اولا وقال لهم انما اتخذتكم للعبادة لا للتقول وابراء أيكم

ثم ان الجنرال هورد والجنرال دردوف اللذين كان رأيهما ان لا يحصل قتال بالكلية مع الترك لعلمهما ان عاقبته سيئة كشفا للملك عن صدورهما البراه ما بهما من الجراحات التي اصابتهما في خدمته وقالا له انا مستعدان للموت لاجلك غير اننا نترجاك ان يكون ذلك في فرصة نافعة فقال لهما كرلوس اني اعلم بما بي وبكما من الجراحات انا جميعا قاتلنا الاعداء قتالا شديدا وانكما قمتما بالواجب عليكما الى الآن فاستمرا حينئذ على ما كنتما عليه فلم يجدا بدا من الطاعة وصار كل انسان يستحي ان لا يبحث معه عن الموت فلما استعد للقتال صار يتمدح سرا بالفخر والشرف في مقاومته مع ثلثمائة اسوجي جيشا كاملا واناط كل انسان بوظيفته فجعل مولرن المهردار وامبروس كاتب السر والقسيسين في بيت مولرن وامرهم بحمايته واعطى وظيفة للبارون فيف رئيس ضباط الكلار فعين له ولجماعته محلا يمانعون عنه ووضع السياس والطباخين في موضع آخر لحفظه وذلك لان خدمه كانوا جميعا عساكر وكان هو يعدو على فرسه من الخنادق الى البيت ويعد كل انسان منهم بالمكافئة والترقية في الرتبة ونصب بعض افراد قلدهم بالرتب في ذلك الوقت والتزم ان كل من اجتهد في هذه الواقعة واظهر القوة والشجاعة ولو كان من ادنى خدمه

ينظمه في سلك الضباط ويجعله اغاه

فبينما هم كذلك اذ اقبل جيش الترك عليهم لشن الغارة ومعهم عشرة مدافع وهونان فكانت الاطواخ تتهادى وتضطرب في الهواء والابواق تصوت وصار يسمع من جميع الجهات كلمة الله الله ولم يسمع من صياحهم مسبة في حق كرلوس كما تحققه منهم البارون غورطزان وانما سمع منهم في حقه كلمة داميرباش ومعناها رأس حديد فعند ذلك خرج اليهم البارون المذكور وحده من الخنادق من غير اسلحة وتقدم الى صفوف الانكشارية وكان قد سبق له انعام على اغلبهم وقال لهم ما معناه يا احبابي هل تريدون ذبح ثلثمائة من الاسوجيين * ليس لهم في هذه البلاد امداد ولا تحصين * وقد عفوتم ايها الانكشارية الشجعان * عن مائة الف موسقوبي حين طلبوا منكم الامان * فهل نسيتم ما اسديناه لكم من الانعام * حتى اردتم قتل ملك يحبونه وقد اتحفكم بالاكرام * وهو الآن لا يطلب منكم الامهلة ثلاثة ايام * فان امر السلطان لم يبلغ من التشديد ما اوهمه لكم رؤساؤكم الاعلام فاثر كلامه فيهم تأثيرا عجيبا لم يخطر ببال غورطزان وذلك ان الانكشارية حلفوا بلحاهم انهم لا يحملون الساعة على كرلوس وانهم قد امهلوه ثلاثة ايام كما طلب فلم يعملوا حينئذ بامر رؤسائهم بالقتال بل عوضا عن طاعتهم هددوهم بالهجوم عليهم اذا هم لم يمهلوه ثلاثة الايام فذهبوا الى خيمة الباشا وهم يصيحون ان اوامر السلطان مختلقة فلما رأى الباشا هذه الفتنة التي لم تكن على باله لم يسعه الا الصبر

واظهر انه مسرور بما عزم عليه الانكشارية من هذا المقصد الحسن وامرهم بالمسير الى مدينة بندر واما خان التتار فانه كان رجلا ذا حمية شديدة فعزم على الاغارة بجيوشه على كرلوس فحسن له الباشا ان ينظروه لليوم الثاني خفية ان يستبد التتار بالفخار في القبض على ملك اسوج وان يعاتبه السلطان على عصيان الانكشارية

ولما رجع الباشا الى مدينة بندر جمع ضباط الانكشارية وشيوخ العساكر

وقرأ عليهم امر السلطان والفتوى واراهم ذلك باعينهم فعرض عليه ستون رجلا من شيوخهم الشيب المحترمين وكان قد انعم عليهم كرلوس سابقا بنعم جسيمة ان يذهبوا بانفسهم لملك اسوج ويترجوه ان يأتمنهم على نفسه ويكونوا خفراء عنده

فاذن لهم الباشا فى ذلك لانه كان لايدع واسطة تحقن دم كرلوس الا ارتكبها فذهب هؤلاء الشيوخ الستون فى صبيحة اليوم الثانى الى قرية ورنيطزة ولم يكن معهم الاعكاكيز بيضاء على عادة الانكشارية فى وقت السلم وذلك لان من الخشونة عندهم ما اعتاده النصارى من حمل الاسلحة زمن الصلح ودخولهم بها على احبابهم وفى كنائسهم

فتكلموا مع البارون غورطزان والمهردار مولورن وقالوا لهما انا اتينا ها هنا لنكون خفراء امناء عند الملك واذا اراد الذهاب الى مدينة ادرنة ليكلم السلطان بنفسه وصلناه وكان كرلوس اذ ذاك مشغولا بقراءة مكاتيب جاءته من اسلامبول بعثها اليه فبريس سرامع رجل من الانكشارية لتعذر حضوره اليه وكانت من طرف القونتة بونيانوسقى وكانت الدولة العلية قد حجزته باسلامبول حين طلب كرلوس ثمانيا الالف كيسة فصار لا يمكنه السعى فى مصالح الملك لا فى مدينة بندير ولا فى مدينة ادرنة

وكان مضمون هذه المكاتيب اخباره ان امر السلطان بالقبض عليه او قتله اذا لم يمتثل صحيح وانه ليس مختلقا كما يظن وان الذى حمل السلطان على ذلك هو فى الواقع تدليس الوزراء عليه وانه ينبغى للانسان * ان يمتثل امر السلطان * اذا عرف ان الغير اغراه * وعلى ذلك حمله ودعاه * ويجب عليه ان يسلم للدهر فى شدته وبؤسه * ويضحك له عند تقطيبه وعبوسه * وقد الجأتنى النصيحة الى الجراءة عليك * وخطاب حضرتك بهذه الكلمات الآتية اليك * ينبغى لك ان تسلك مع الوزراء مسلك السياسه * وتقفو منهج الحزم والتدبير والكياسه * فان من دبر وساس * مالت اليه قلوب الناس * ولا يليق منك العناد * فيما يلزم فيه اللين والانقياد * وترقب من السياسة وتداول الازمان * ما يكون

دواء

دواء الما تزيده القسوة والعنفوان *

فلم يكن لكلام هؤلاء الشيوخ ولا مكاتيب بونيا توسقي تأثير عنده ولم يمكن ان تلين قلبه ولا ان تذلل صعبه لما وجده في ذلك من تدنيس عرضه فكان يرى قتل الترك له اولى من اسرهم اياه فلم يقابل الانكشارية بل طردهم وقال ان لم يذهبوا امرت بحلق لحاهم وهذه الفعلة اعظم منقصة ببلاد المشرق فامتزج الانكشارية بالغضب وخرجوا يصيحون آه من رأس الحديد ويتعجبون من شدة عناده حيث يصمم على ما يفضي الى حتفه وذهبوا يخبرون الباشا واصحابهم بما وقع لهم معه من الاساءة وعدم ملاقاتهم ثم اقسموا جميعا ان يطيعوا الباشا في كل ما يأمرهم به من غير توقف ولا مهلة وتشوقوا للهجوم عليه بقدر ما كانوا بالامس لا يميلون الى ذلك فامرهم الباشا بشن الغارة فساروا نحو الخنادق وكان التتار ينتظرونهم فاخذوا في طلق المدافع واحاط الانكشارية والتتار بعسكر الاسوجيين فانتضى عشرون اسوجيا سيوفهم فعند ذلك حمل الترك عليهم فاسروا الثلثمائة اسوجي عن آخرهم من غير كبير مشقة ولا مكابدة وكان كرلوس اذ ذاك على فرسه بين المعسكر والبيت ومعه من الجنرالات هورد ودردوف وايسبارة فلما رأى عساكره قد قبض عليهم قال لمن معه وهو يتبسم من غير ان تلحقه دهشة ولا ان يغيب عقله هلموا بنا نحمي البيت

ثم ركض فرسه وذهب بهم الى البيت وكان قد جعل فيه اربعين خادما خفراء وحصنه على قدر الامكان

وهؤلاء الجنرالات وان كانوا متعودين على طبيعة ملكهم وجرآته الا انهم تعجبوا هذه المرة من حالته حيث اورد هذا الكلام مورد المزاح في مقام الجد وعزم على حماية نفسه من جيش كبير فيه عشرة مدافع ولكن لم يسعهم الا ان تبعوه مع بعض خفراء وخدم كانوا جميعا يبلغون عشرين نفسا فلما وصلوا الى البيت وجدوه محاطا بالانكشارية بل رأوا فيه نحو مائتي رجل ما بين انكشاري وتتاري تسوروا عليه من الشباك واستولوا على

جميع الاماكن ماعدا اوضة كبيرة التجأ اليها خدم الملك ولسعادة حظه كانت
هذه الاوضة قريبة من الباب فترجل الملك عن فرسه واراد الدخول بمن معه
فى البيت وجرد سيفه وامسك الطبنجه بيده وتأسى به فى ذلك اصحابه
فعند ذلك احدقت به الانكشارية من جميع الجهات وكان قد وعدهم الباشا
بان من مس ثوب كرلوس عند القدرة على القبض عليه يعطى ثمانية دنانير وكان
الملك يخرج كل من دنا منه اويقتله فدنا منه انكشارى فجرحه فرماه
الانكشارى بقربانته قاصدا وجهه فلولا اهتزاز ذراعه من كثرة ازدحام
الناس الذين كانوا لايطمون كالامواج فى ذلك الوقت لقتل الملك ولكن
الرصاصة تدحرجت من فوق انفه واصابت اذنه فاخذت منها قطعة وكسرت
ذراع الجنرال هورد الذى قضت عليه الحكمة الالهية بانه دائما يجرح
بقرب سيده
ثم ان كرلوس طعن الانكشارى فى بطنه بالسيف فقتله ثم فتح الباب خدمه
الذين كانوا محاصرين فى الاوضة فبمجرد ما فتحوه انقض اليه الملك هو ومن
معه كانه سهم مرق من الرمية واغلقوا الباب وجعلوا جميع ما وجدوه
متاريس وضعوها خلفه فها هو كرلوس وجماعته قد احصروا فى هذا المحل
وكانوا يبلغون ستين نفسا ما بين ضباط وخفراء وفراشين وغيرهم من
الخدمة
واما الانكشارية والتتار فانهم ازدحموا بالبيت وشحنوه كثرة ونهبوا
مافيه ماعدا الاوضة المذكورة فقال الملك لنطرد هؤلاء المتبربرين ووقف
امام اصحابه وفتح الباب الذى كان يذهب منه الى محل نومه ودخل فيه واطلق
فى الاعداء طبنجته
فلما رأى الترك قد ظهر فيهم على حين غفلة وكان معهم من السلب ما اثقلهم
وكانوا يحترمونه فيما بينهم اعظموا ذلك الامر وخافوا من الملك فالقوا اسلحتهم
وما كان معهم وولوا مدبرين فمنهم من نط من الشبابيك ومنهم من ذهب الى
مطاميرالنبيذ فاغتنم الملك فرصة هذا الخلل وتتوى بذلك اصحابه وتتبعوا الترك

من

من اوضة الى اوضة واوقعوا بهم فقتل منهم من قتل وجرح من جرح ولم يسلم الامن هرب فما كان الاربع ساعة حتى اخرجوهم من البيت عن آخرهم ووجد كرلوس وقت الالتحام رجلين من الانكشارية تحت فراشه فقتل احدهما بالسيف واما الآخر فطلب منه العفو وصاح الامان الامان فعفا عنه كرلوس على شرط ان يخبر الباشا بجميع مارأه ولا يترك منه شيأ فالتزم الانكشاري بذلك وتركوه حتى نزل من الشباك

فلما استولى الاسوجيون على البيت قفلوا الشبابيك وحصنوها وكان عندهم من الاسلحة مايكفيهم وذلك انه كان في اسفل هذا البيت اوضة مشحونة بالبندق والبارود لم يعثر عليها الانكشارية مع كثرة بحثهم وتفتيشهم فصاروا يأخذون منها عند الاحتياج ويرمون الترك بالبارود من الشبابيك فقتلوا منهم في نحو درجة ونصف مائتي نفس

واما الترك فكانوا يطلقون المدافع على البيت ولا تؤثر فيه الا اثرا صغيرة لعدم صمول احجاره ويبسها

فعند ذلك خجل خان التتار والباشا اللذان كانا يريدان القبض على الملك حيا من فقد كثير من عساكرهما ومن التصدي بجيش كامل الى ستين رجلا من الاسوجيين واقتضى رأيهما ان يحرقوا البيت ليضطر كرلوس الى التسليم فالقوا على السطح والابواب والشبابيك سهاما ملفوفة بفتائل موقودة فاشتعلت النار في البيت في اسرع وقت ولما اشرف السطح على السقوط عليهم من شدة الالتهاب امر كرلوس مع الهدء باطفاء النار وعثر على برميل صغير علوه شرابا فحمله بنفسه واعانه عليه اثنان من اصحابه ورموه في المحل الذي قويت فيه النار فاذا فيه خمر غيران العجلة التي هي من لوازم الدهشة منعتهم من التفكر في ذلك فازدادت النار تسعرا واحرقت اوضة الملك وامتلأت الاوضة الكبيرة التي كان بها الاسوجيون دخانا مختلطا باللهب كان يدخل من ابواب الاوض المجاورة لها وسقط نصف السطح في داخل البيت والنصف الآخر خارجه

فجاسر عند ذلك رجل من الخفر آ يقال له ولبيرغ وصاح قائلا يلزمنا حينئذ التسليم فقال الملك متعجبا انظروا الى هذا الرجل العجيب كيف آثر الاسر على الاحتراق ثم اشار عليهم رجل آخر من الخفر آ يسمى روزان ان يذهبوا الى بيت المهردار وكان بينه وبينهم خمسون قدما قائلا هلموا بنا نخرج على الاعداء ونذهب الى هذا البيت ونلتجئ اليه لان سطحه من الحجارة فلا تؤثر فيه النار شيأ فاستصوب الملك رأيه وصاح هذا هو الاسوجي حقا وعانقه وانعم عليه برتبة ميرآلاى ثم قال لاصحابه خذوا معكم ما امكنكم حمله من الرصاص والبارود واقصدوا بيت المهردار منتضين سيوفكم

هذا ما كان من امر هؤلاء واما ما كان من امر الترك فانهم كانوا محيطين بالبيت خائفين متعجبين من عدم خروج الاسوجيين وازداد تعجبهم لما رأوهم قد خرجوا وحملوا عليهم حملة من ايس من النجاة وكان كرلوس امامهم والى جانبه الضباط الكبار ومعهم جميع الطبنجات والسيوف فبمجرد ما فتحوا الباب اطلق كل طبنجته مرتين وفى اقرب من لمح البصر القوا طبنجاتهم على الارض وانتضوا سيوفهم وحملوا على الترك فزحزحوهم عن مكانهم مسافة خمسين قدما غير ان كرلوس لما كانت عادته ان يلبس الجزمة دائما عثرت رجله بالمهماز فوقع على الارض فكر الاتراك عليهم واحاطوا بهم وانقض على الملك احد وعشرون رجلا من الانكشارية فرمى سيفه فى الهوآء لئلا يتأثر من اخذهم اياه من يده ثم حملوه الى الباشا بعضهم حمله من ساقيه وبعضهم من ذراعيه كانه مريض يخشون تألمه

وحين القبض عليه زال عنه ما كان قائما به وقت الحرب من الحمية والحرارة وعوض عنها الهدو والسكون فلم يتعرض لهم بسبة اصلا ولم ينظر اليهم بعين السخط والغضب بل صار يتبسم وهم يصيحون الله الله مع الغضب والاحترام واسر الترك والتتار من كان معه واخذوا اسلبهم وكانت هذه الواقعة التى نشأ عنها فيما بعد امور غريبة فى اليوم الثانى عشر من شباط سنة ١٧١٣

(المقالة السابعة)

في نقل الترك لكرلوس الى مدينة دميرطاش وقبضهم على استانسلاس في ذلك الوقت والفعلة التي تجاسر عليها اوليلونغ وما حصل من الهرج والفشل في السراية السلطانية والواقعة التي حصلت في اقليم پوميرانيا وحرق الاسوجيين مدينة الطناو رجوع كرلوس الى بلاده وكيفية سيره الغريبة ووصوله الى مدينة استرالسند وما لحقه من النكبات والمصائب ونجاح بطرس قيصر الموسقو وما صنعه في مدينة بترسبورغ من احتفال النصرة

لما قبض الترك على كرلوس وساروا به الى الباشا حاكم بندير وكان في انتظاره والى جانبه ترجمانه مركوقابله مع التبجيل والاحترام وترجاه ان يجلس على صفة هناك فلم يفعل كرلوس لعدم اكتراثه بالرسوم العثمانية وبقي قائما في الخيمة فقال له الباشا قد حمدنا الله تعالى على بقائك حيا الى الآن وقد حصل عندي غم شديد حيث احوجتني الى سلوك هذه المسالك عملا باوامر السلطان ولما كان كرلوس غير متأثر الا من قبض الترك على اصحابه الثلثمائة في خنادقهم لم يكن جوابه للباشا الا ان قال متاوها لو دافع الاسوجيون عن انفسهم كما ينبغي لما امكن للترك الظهور عليهم في عشرة ايام فقال له الباشا ان هذه الشجاعة خارجة عن الحد ثم اخذه الباشا وسار به الى مدينة بندير واركبه فرسا عليها رخت مكلل ومزخرف واما اصحابه الاسوجيون فكانوا حينئذ ما بين قتيل واسير وكانت ذخائره واوراقه وجميع الادوات الضرورية ما بين مسلوب ومحروق فكان يرى في الطرق الضباط الاسوجيون مجردين عن ملابسهم ومغلولين بالسلاسل في اعناقهم اثنين اثنين يمشون على اقدامهم خلف التتار والانكشارية وكان فيهم المهردار والجنرالات فكانوا على تلك الحالة ايضا مأسورين تحت يد العساكر الذين وقعوا في سهمهم

فلما وصل الباشا الى المدينة جعل كرلوس في محل نومه وامر اتباعه ان يخدموه

خدمة الملوك الا انه وضع على الاوضة التى بها كرلوس خفراء من الانكشارية فاعدواله فراشا لائقا فاعرض عنه والقى نفسه منتعلا على صفة كانت هنالك واستغرق فى النوم على تلك الهيئة وكان الى جانبه رجل من ضباط الترك واقف على قدميه فوجد رأس الملك مكشوفا فوضع عليه قلنسوة فاحس بها فالقاها من رأسه فتعجب هذا الرجل من حالة ملك ينام منتعلا مكشوف الرأس وفى صبيحة اليوم الثانى اذن الباشا بدخول فبريس عند كرلوس فوجده ممزق الثياب ورأى نعله ويديه وسائر جسده ملونة بالدم والبارود وحاجبيه محترقة ومع ذلك لم ير على وجهه اثر تغير فجثا على ركبتيه امامه ولم يمكنه ان يتفوه بكلمة واحدة فلما اطمأن بملاطفة الملك له فى الحديث معه انس وتحدثا معا فى شأن واقعة مدينة بندير فقال فبريس يزعمون انك قتلت بيدك عشرين انكشاريا فقال كرلوس ما احسن ذلك ان صح ولكن جرت عادة الناس بالافراط فى الشئ وزيادتهم عليه نصفه وبينما هم كذلك اذا جاء الباشا الى الاوضة وادخل عليهما فورطزان نديم الملك وريبنس ميرالاى وكان قد فداهما بماله ممن وقعا فى سهمه والتزم فبريس بفداء بقية الاسرى واعانه على هذا الفداء فيغريس رسول الانكليز وكان فى مدينة بندير رجل فرنساوى اتى اليها بصدد الاطلاع على هذه الوقائع فجمع منها ما تيسر له فبذل فى فداء الاسرى ما كان معه من الاموال وبانضمام ذلك الى اعانة الباشا لهم افتدوا جميع الضباط الاسوجيين حتى ملابسهم من ايدى الترك والتتار

ثم انهم فى صبيحة اليوم الثانى ليوم الفداء اساروا بكرلوس الى مدينة ادرنة وجعلوه فى عربة واسدلوا عليها ستارة من القرمز وكان معه فيها نديمه فورطزان وكان خلفه فى عربة اخرى مهرداره مولرن وبعض من الضباط وكان الباقى على الخيل وكانوا كلما وقع بصرهم على عربة الملك لم يمكنهم ان يمنعوا انفسهم من البكاء وكان الباشا فى مقدمة الخفر فترجاه فبريس ان يعطى للملك سيفا لما ان من العار ان يسير بلا سلاح فقال معاذ الله اتريد

حلق

حلق لحيتي وبينما كانوا يسيرون بهذا الملك اسيرا مجردا عن سلاحه وكان قبل ذلك قد رتب قوانين في كثير من الممالك وكان حكما في بلاد الشمال وافزع اوربا بتمامها اذ وجدوا امرا آخر يدل على غدر الدهر بالانسان وسرعة نزوله به الى الحضيض بعد ان كان في اوج المعالي

وهو انه قبض على الملك استانسلاس في بلاد الترك واتى به اسيرا الى بندير في الوقت الذي كانوا سائرين فيه بكرلوس الى مدينة ادرنة

وذلك ان استانسلاس لما ضعفت شوكته بعد من ولاه عنه ونفدت امواله تركه اصحابه اللاهيون وانفضوا عنه فذهب الى اقليم بوميرانيا العجزه عن حفظ مملكته وصار يمانع عن ممالك من له الفضل عليه حتى انه لفرط صداقته ذهب بنفسه الى مملكة اسوج ليأتي منها بما احتيج اليه من المدد في الذب عن اقليمي بوميرانيا وليونيا وبالجملة فقد وفى بجميع ما كان يؤمل من صديق كرلوس وكان في ذلك الوقت اعظم ملوك البروسيا وكان مشهورا بالحزم ووفور العقل قد ضاق صدره من مجاورة الموسقوبيين له فعزم على ان يتحزب مع اغسطوس وجمهورية مملكة له على طرد الموسقوبيين الى بلادهم واراد ان يدخل في تلك العصبة كرلوس ولو وقع ذلك لترتب عليه ثلاث فوائد هدء بلاد الشمال ورجوع كرلوس الى ممالكه وحدوث حاجز يمنع الموسقوبيين الذين اشتدت سطوتهم على اوربا بتمامها من مجاوزة ممالكهم والتعدي على من عداهم وكان اول شئ اتفقت العصبة عليه في حصول الراحة العامة لاوربا هو ان يتخلى استانسلاس عن كرسي مملكة له فرضي هذا الملك بالتخلي وزاد عليه أن التزم ان يكون واسطة في ايقاع الصلح بين كرلوس واغسطوس وان كان ذلك يفضي الى عزله قطعا وكان الحامل له على ذلك الضرورة وجلب الراحة لعموم الناس والافتخار ومصلحة كرلوس الذي كان له الفضل عليه في سائر اموره وكتب في هذا الشان كتابا وبعثه الى كرلوس في مدينة بندير يعلمه فيه بحالة المصالح وبالمصائب الحاصلة وبما وقع الاتفاق عليه مما يجبر خللها ويقطع عرقها وترجاه ان لا يمتنع من تخليه عن الكرسي

حيث اقتضته الضرورة وليس فيه عيب ولا عار حسبما تلبى به ذلك اسبابه
والح عليه ان لا يضيع مصالح مملكة اسوج مراعاة لمصلحة صديق مسكين آثر
راحة العامة على مصلحة نفسه عن رضى وخلوص نية فلما وصل الكتاب
الى كرلوس وكان فى قرية ورنيطزة غضب وقال للساعى بحضور من كان
فى مجلسه اذا كان صديقى لا يريد ان يكون ملكا فانا اولى غيره
ولم يزل استانسلاس مصمما على خلع نفسه وان لم يرض به كرلوس لما ان ذلك
الوقت كان يقتضى التحلى بالمروة والافعال الممدوحة فذهب بنفسه الى
كرلوس ليستميله الى اجراء ما عزم عليه وخاطر بنفسه لاجل التخلى عن ملكه
مخاطرة لم يرتكبها فى التحلى به والاستيلاء عليه وذلك انه اختفى ذات
ليلة فى الساعة العاشرة منها عن الجيش الاسوجى الذى كان تحت قيادته
فى الممانعة عن اقليم بوميرانيا وسافر وصحبه بارون اسبار الذى صار فيما بعد
الجيا فى بلاد الانكليز وفرانسا ومعهما ميرآلاى آخر وسمى استانسلاس
نفسه هاران وهو اسم رجل فرنساوى كان ضابطا فى العساكر الاسوجية
ومات بعد ذلك وكان حاكما على مدينة دنزيق وجعل يسير بحذاء عساكر
الاعداء فقبضوا عليه عدة مرات وخلوا سبيله حين نظروا معه تذكرة
الطريق المكتوبة باسم هاران ومازال يقتحم الاخطار حتى وصل الى ثغور
بلاد الترك
ولما وصل الى بلاد بغدان امر بارون اسبار بالعود الى الجيش ودخل هو
مدينة ياش وهى قاعدة تلك البلاد ظانا انه بمحل الامن على نفسه حيث
يعلم ان هذه الحالة آوت كرلوس واحترمته غاية الاحترام ولم يكن يخطر بباله
ما وقع فى هذا الوقت من تغير الاحوال
فقال له بعض اهل المدينة من انت فقال انا رتيس ارطة من عساكر
كرلوس الثانى عشر فقبضوا عليه بمجرد تفوهه بهذه العبارة وذهبوا به الى
حاكم بغدان وكان هذا الحاكم يعلم بواسطة الكازيطات والوقائع
ان استانسلاس اختفى عن قومه وكان قد بلغه وصفه وصورته فعند حضوره

بين يديه وسماع قوله اني رئيس اردطة من عساكر كرلوس عرف ان ذلك كذب حيث وجده على طبق ما بلغه من الصورة الوسيمة والهيئة العظيمة التي قل ان توجد في غيره

فسأله الحاكم عدة اسئلة على طريق المخادعة ثم سأله عن وظيفته في الجيش الاسوجي وكانا يتكلمان باللسان اللاطيني فقال انا رئيس اردطة منه فقال الحاكم لا بل انت اعظم من ذلك ثم امر له بكرسي واجلسه عليه وصار يعامله معاملة الملوك الاسرى حيث وضعه في دير يوناني وجعل عليه خفرا من جميع جهات الدير الى ان يأتي امر السلطان فيه بشئ فمكث فيه استانسلاس مدة حتى جاءت الاوامر بنقله الى مدينة بندير وكانوا قبل ذلك بيسير قد نقلوا منها كرلوس

وقد بلغ الخبر اسماعيل باشا حاكم بندير حين كان بجانب عربة كرلوس حال سيرهما الى مدينة ادرنة كما سبق فاخبر بذلك فبريس فدنا فبريس من عربة كرلوس وقال له انك لست اسيرا وحدك فان الملك استانسلاس قبض عليه ايضا والعساكر تخفره من سائر الجهات وليس بينك وبينه الا بعض اميال فقال له كرلوس من غير ان تلحقه دهشة من هذه الحادثة اذهب اليه واخبره عن لساني انه لا يصطلح مع اغسطوس ابدا وانه عما قليل تتغير الاحوال ونعود كما كنا فانظر الى هذا الملك كيف استمر على نيته ووثق بالدهر بعد ان اودى به ومازال يأمل من الدولة العلية ان تعينه بمائة الف من العساكر مع ما هو عليه من ترك الناس له وتخليهم عنه في مملكته والاغارة على ممالكه واسره في بلاد الترك وكونه لا يدري الى اين يذهبون به فامتثل فبريس امره وذهب الى استانسلاس ومعه رجل من الانكشارية اذن له الباشا في الذهاب معه فلما قطع بعض اميال وجد العساكر سائرين باستانسلاس فتقدم الى خيال منهم لابس على هيئة الفرنساوية لم يحسن الركوب وسأله باللغة النمساوية اين الملك فاذا هو استانسلاس وكان فبريس قد انكره لتزييه بغير زيه فقال له استانسلاس انسيتني ولم اخطر لك ببال فعند ذلك اخبره فبريس

بما عليه ملك اسوج من الحال السيئة ومن التصميم على نيته وان ذلك غير مجد نفعا

ولما دنا استانسلاس من مدينة بندير عاد الباشا اليها بعد ان سار مع كرلوس مسافة وارسل الى استانسلاس فرساعريا مسمر جابسرج نفيس

وعند دخوله المدينة المذكورة ضربت له المدافع واحسنوا معاملته بحيث لم يتشك منهم فى شئ سوى اسرهم له فى مبدء الامر وفى ذلك الوقت كانوا سائرين بكرلوس فى طريق مدينة ادرنة وقد شاع فيها امره وذاع على السنة الترك ما وقع منه فى قتال بندير فكانوا يلومونه على هذه الفعال و يتعجبون من جرآته وكان ارباب الديوان مغيظين منه فاصروا على نفيه الى جزيرة من جزائر الارخبيل

وقد اخبرنى استانسلاس وهو الذى تفضل على بمعظم اخبار هذه الحوادث ان ارباب الديوان عزموا على نفيه هو ايضا الى جزيرة من جزائر اليونان لكن بعد مضى عدة اشهر رضى عنه السلطان وخلى سبيله

وكان يمكن للايلجى ديزالور اوديزالورس والقونتسة بونيا توسقى الذى كان يخشى من جودة قريحته فى التحيل والخداع ان يمنعا هذه المعرة عن ملوك النصرانية لولا حجزهما باسلامبول وايضا اغلب الاسوجيين وان كانوا بمدينة ادرنة الا انهم كانوا مسجونين فبذلك تعذر وصول شكوى ملك اسوج الى الاعتاب السلطانية

وكان اذذاك بمدينة ادرنة رجل فرنساوى يقال له مركى دوفيبرويل بعثته الفرنساوية سرا الى ملك اسوج فى مدينة بندير فهم ان يقوم بمصلحة هذا الملك الذى تخلى عنه جميع الناس وظلموه واعانه على هذا الغرض شاب من اعيان الفرنساوية يقال له وليلونغ وكان من اقدم عائلات اقليم شمبانيا وكان جسورا شجاعا اتى الى بلاد الترك بصدد خدمة كرلوس لانه لم يكن عنده من الاموال ما يعادل شجاعته خصوصا وقد بلغه ما انشرح به صدره من شهرة هذا الملك الاسوجى

فكتب فيرو يل باعانه هذا الشاب عرضحال عن لسان كرلوس يذكر فيه انه يطلب من السلطان ان ينتقم له في نظير ما لحقه من اساءة حاكم بندير وخان التتار وعزمهما على خيانته وتسليمه لاعدآئه حيث ان ما وقع منهما مخل بمقام الملوك ومؤد لاحتقارهم

وفيه ايضا انه يتهم الصدر الاعظم وغيره من الوزراء بانهم قبلوا الرشوة من الموسقوبيين فحادوا عن طريق الحق وحسنوا للسلطان ما عزموا عليه من الاغراض ولم يطلعوه على حقيقة الحال وانهم منعوا عرضحالات كرلوس ان تصل الى السلطان وما كفاهم ذلك حتى حملوه على امر فيه هتك لحرمة الضيافة الاسلامية ولحقوق الملل بعضها على بعض على وجه لا يليق صدوره من عظماء السلاطين حيث هجم عشرون الفا من حزبهم على ملك لم يكن عنده من يمانع عنه الا خدمه وماذاك الا لوثوقه بكلام السلطان حيث وعده بانه يعطيه ماءتى الف من العساكر يستعين بها على اعدآئه

ولما تما تسويد هذا العرض لزمهما ان يبحثا عمن يترجمه الى التركية ويكتبه بخط مناسب في ورق معد لكتابة ما يقدم للسلطان من العروض

فتكلما في شأن ذلك مع جماعة من مترجمي الفرنساوية كانوا بمدينة ادرنة فامتنعوا من ترجمة هذا العرض لما يعتقدونه من خيبة المسعى في مصالح كرلوس ويأسهم منها ولان الصدر الاعظم كان مظهرا مضادته وعداوته فما زالا يبحثان عمن يترجمه حتى عثرا بعد مدة على رجل غريب لا تعرف خطه الدولة العلية فترجمه الى التركية وكتبه في ورق مناسب وكافآه على ذلك وتعاهدا معه على كتمانه وان لا يخبر بامره احدا وكان هنالك ضابط اسوجي يقال له البارون اروبدسون كتب امضاء كرلوس في هذا العرض على صورة خطه وكان مع فيرو يل ختم الملك فختمه به وطواه وبرشمه وطبع البرشام بطرة مملكة اسوج والنرم وليلونغ ان يقدمه للسلطان حين يذهب الى الجامع على حسب عادته وسبق انهم فعلوا مثل ذلك في تقديم

عرضحالات من طرف ملك اسوج تتضمن شكواه فى الوزراء غيران التقديم بهذه المثابة لا ينجح غالبا بل ربما كان فيه خطر عظيم

ولما كان الصدر الاعظم يعلم ان الاسوجيين لا بد من شكواهم للسلطان وطلبهم منه الانصاف وكان عارفا كما ينبغى بما وقع لسلفه من الوزراء من المصائب بسببهم منع صراحة ان لا يتركوا احدا يدنو من السلطان بل وامر بالقبض على كل من اتى نحو الجامع ومعه عرضحال

وكان وليلونغ يعلم هذا الامر وان تقديم العرض يفضى الى هلاكه فخلع الملابس الافرنجية وتزيا بزى الروم واخفى العرض فى ثيابه وذهب من صبيحة النهار الى الجامع الذى جرت عادة السلطان بالصلاة فيه وصار يتردد قريبا منه حتى قدم السلطان فعند ذلك ظهر مظهر المجانين وصار يرقص بين صفى الانكشارية الذين بينهم السلطان ويعرض دراهم ليتلاهى بها الخفراء وينكبوا عليها

فلما قرب السلطان اراد وا طرده فجثا على ركبتيه وصار يخلص نفسه من ايدى الانكشارية فوقعت قلنسوته من فوق رأسه فعرفوا انه افرنجى بطول شعره فضربوه كثيرا وآذوه اذية فاحشة فلما دنا منه السلطان وسمع هذه الغاغة سأل عن ذلك فصاح وليلونغ باعلى صوته الامان الامان واخرج العرض من خبائه وبادر الى السلطان وقبل ركابه وقدم له العرض وهو يقول بلسان الترك اسوج قرال دن يعنى من ملك اسوج فاخذه السلطان ووضعه فى سيالته واستمر سائرا الى الجامع واما وليلونغ فقبضوا عليه بعد ذهاب السلطان وسجنوه بمحل خارج السراية .

ولما خرج السلطان من الجامع وكان قد قرأ العرض اراد ان يسأل المسجون فى هذا الشان ثم ليعلم ان ما ساذكره فى هذا المحل ربما كان احتمال كذبه ارجح عند العقل غير انى لا اذكر شيأ الا واعتمد فيه على ما كتبه لى مسيو وليلونغ بنفسه ولا آتى بشئ من عندى ولكن مثل هذا الضابط الشجاع اذا اخبر بشئ فانه يتحرى فيه الصدق ما امكن خشية ان يتدنس عرضه بذكر ما لا صحة له

فهو بحسب الظن جدير بتصديق خبره والوثوق بكلامه وحاصل ما ذكره ان السلطان لما عزم على سؤال وليلونغ خلع الملابس السلطانية والعمامة وتنكر في صورة ضابط من ضباط الانكشارية وكان ذلك عادة له غالبا واتى معه برجل هرم من اهل مالطة ليترجم له فحظي وليلونغ بواسطة هذا التنكر بفخار لم يحصل قط لالجي من الجية النصارى حيث تشرف بالحديث مع السلطان شفاها مدة ربع ساعة وافصح له عن شكوى ملك اسوج وذكر انه يتهم الوزراء ويطلب ان ينتقم له منهم وكان كلامه مع السلطان بجسارة وطلاقة حتى ان من رآه في تلك الحالة ظن انه يتحدث مع قرينه وفي اثناء الكلام عرف انه السلطان ولم تمنعه ظلمة السجن من معرفته فزادت جسارته ولم يتلعثم في خطابه فقال له هذا الضابط الصوري ما معناه طب نفسا ايها النصراني وتيقن ان مولانا السلطان كريم النفس وحرقته مروة السلاطين ولله اذا علم صحة ما ادعاه سيدك انصفه واخذ بناصره ثم تركه وانصرف ثم بعد مدة قليلة اخرج وليلونغ من السجن وحصل بعد مضى عدة اسابيع على حين غفلة تغيير في الديوان يقول الاسوجيون ان منشأ هذه الحادثة ليس الا هو عزل المفتى ونفى خان التتار الى جزيرة رودس ونفى باشا بندر الى جزيرة من جزائر الارخبيل

ولكن حيث ان الدولة العلية عرضة دائما لمثل هذه الحوادث والتغيرات منع ذلك ان يعتقد ان غرض السلطان بهذا التغيير تسكين غضب ملك اسوج خصوصا وما عامله به لا يدل على ان الدولة العلية تسعى في مرضاته وانما المظنون في هذا الشأن هو ان على كومورجي نديم السلطان هو السبب في تلك التغيرات لمصلحة نفسه فقد شاع انه هو الذى تسبب في نفى خان التتار وحاكم بندر متعللا بانهما اعطيا الملك اسوج الف كيسة ومائتين على خلاف ما امر به السلطان وفي تولية اخى الخان المذكور محله وكان من اترابه وكان يبغض اخاه وكان على كومورجي واثقا به فيما عزم عليه من الحروب واما خلع الوزير يوسف فانه كان بعد مضى ذلك بعدة اسابيع واقيم محله سليمان باشا

ولكن قد اخبرنى مسيو وليلاونغ وبعض الاسوجيين ان السبب فى سائر هذه التغيرات انما هو العرضحال الذى قدم للسلطان واما مسيو فيبرو يل فقد اخبرنى بخلاف ذلك وقد عثرت على امور متناقضة فى اخبارهم فيما يتعلق بغير هذه الحادثة غير انه يجب على المؤرخ فى مثل هذه الحالة ان يكتب مجرد ما يلخمدون ان يبحث عن الاسباب وان يقتصر عليه بحيث لا يبدى له رأيا فى ذلك ولا يعمل فيه بالحدس والتخمين

وقصارى الامر انهم ساروا بكرلوس الى قلعة يقال لها دميرطاش قريبة من مدينة ادرنة فاتى الى هذا المحل جم غفير من الترك لينظروا هذا الملك وعند وصوله اليها انزلوه من العربة وادخلوه فيها وجعلوه فى ديوان ظريف ولكن اراد كرلوس ان لا يقع بصر هؤلاء الناس عليه فسدل على وجهه طيلسانا

ثم انه طلب الاقامة بمدينة دموتيقا فامتنعت الدولة العلية من ذلك اولا ثم بعد ايام قلائل رضيت بهذا الامر وهى مدينة صغيرة على البعد من مدينة ادرنة بستة فراسخ تقريبا من نهر هبروس الشهير المعروف الآن بنهر ميريزا وذلك ان على كوموربجى قال للصدر الاعظم سليمان باشا اذهب الى ملك اسوج واخبره انه ان اراد الاقامة بمدينة دموتيقا مدة حياته فله ذلك وانا اتكفل لك بانه قبل مضى سنة يسام منها ويطلب السفر من تلقاء نفسه بشرط ان لا تعطيه شيأ من الدراهم

فنقلوا كرلوس الى مدينة دموتيقا ورتبت الدولة العلية له ولجماعته مؤونة جسيمة لكن لم تجعل له كل يوم الا خمسة وعشرين ريالا ليشترى بها الخنازير والنبيذ لكون الدولة لا تعطى ذلك وقطعت عنه الخمسمائة ريال التى كانت مرتبة له كل يوم وهو بمدينة بندير

وبمجرد نزول كرلوس بهذه المدينة خلع سليمان باشا عن الوزارة وخلفه فيها ملا ابراهيم وكان رجلا مفرطا فى الكبر والشجاعة والخشونة افراطا عجيبا ولا بأس بذكر تاريخه هنا لتعلم احوال وزراء الدولة العلية الذين كان كرلوس

في قبضتهم وحفظه متوقفا عليهم وتقف على حقيقة صفاتهم اكثر من غيرهم فنقول

كان هذا الوزير في مبدء ولاية السلطان احمد الثالث ثونيا وكان من عادة هذا السلطان انه يتنكر في صورة رجل من آحاد الناس او في صورة عالم او درويش ويطوف ليلا بقهاوى اسلامبول وغيرها من الانديه ومجامع الناس ليسمع ما يقولونه في حقه ويعلم ما عليه الرعية ويطلع على آرائها فسمع ذات ليلة ملا ابراهيم يشتكي من كون السفن التركية ترجع من اسفارها بلا غنائم واقسم انه لو كان رئيسا على مركب لما رجعت الا ومعها مركب من مراكب الكفار فلما اصبح السلطان امر ان يعطوه مركبا يكون رئيسا عليها ويسافر للصيال في البحر فسافر وعاد ومعه قارب مالطي وفتحة جنويزية فجعله السلطان قبطانباشا بعد مضي سنتين ثم ولاه الوزارة بعد خلع سليمان باشا عنها فظن بمجرد تقلده بهذا المنصب انه استغنى عن علي كومورجي نديم السلطان وانه ليس محتاجا له في شيء حيث عزم على خلاف مقصود النديم المذكور من محاربة الموسقو بيين ليكون بذلك ممن يعول عليه في الدولة ولاجل هذا الغرض ضرب له خيمة بقرب المدينة التي بها كرلوس

وارسل الى كرلوس وخان انتسار الجديد والجي فرانسا يطلبهم الى الحضور عنده في الخيمة فابى كرلوس اجابته لما انطبع عليه من الكبر الذي كان يزيد على ما هو عليه من سوء الحال معتقدا ان من اعظم المعرة ان يرسل اليه احد الرعية يطلبه وارسل اليه المهردار موليرن وكيلا عنه ثم انه لازم الفراش مظهرا انه مريض قاصدا بذلك ان يبقى على احترامه عندهم وان لا يجبروه على ما يخل بمنصبه وعزم ان يلازم الوسادة مادام في هذه المدينة وما ذاك الا لتجاوزه الحد في سائر اموره فمكث ملازما للفراش عشرة اشهر متعللا بالمرض والسقم وكان لا يأكل معه في تلك المدة الا المهردار موليرن وغروطزان والميرالاي دوبان وكانت مائدتهم خالية عن الرونق والرفاهية

لما انه لم يكن عندهم شيء من اللوازم الضرورية التي يستعملها الافرنج لكونها سلبت منهم في قتال بنديربل كانوا يشترون بانفسهم ما يقتاتون به فكان المهردار قائما بوظيفة الطبخ

وبينما كان كرلوس على هذه الحالة ملازما لفراشه اذ بلغه ان اماليه الخارجة عن مملكة اسوج قد خربت وتلاشى امرها

وذلك ان الجنرال استنبوق الذي اشتهر باجلاء الدانيمرقيين عن اقليم ايسقانيا او ايسكانيا وبكونه هزم مع من جمعه من الفلاحين جنودهم المتمرنة على الحركات العسكرية استمر مدة على تعضيد القوة الاسوجية بحيث تستمر على حالتها ولا تنحط عن درجتها فبذل جهده في الممانعة والذب عن اقليمي بوميرانيا وابريمة وغيرهما مما كان تحت حكم كرلوس في المانيا الا انه لم يمكنه ان يمنع السكسونيين والدانيمرقيين من محاصرة استادة وهي مدينة عظيمة حصينة بقرب نهر البة في دوقية ابريمة بل هدموها بضرب المدافع حتى صارت رمادا واضطر محافظوها الى التسليم قبل ان يأتي لاعانتهم الجنرال استنبوق

ثم اقبل هذا الجنرال ومعه نحو اثني عشر الفا من العساكر نصفهم خيالة فتتبع الاعداء وكانوا اقوى من عساكره ومازال يتتبعهم حتى لحقهم في دوقية ميقلبورغ قريبا من محل يسمى غادبسق ومن نهر صغير مسمى بهذا الاسم وصار تجاههم في (٢٠) من شهر كانون الاول (سنة ١٧١٢) وكان بينه وبينهم غدير وكانوا معسكرين خلف هذا الغدير متحازين الى اجمة فبذلك كان لهم مزية العدد والمعسكر بخلاف الجنرال استنبوق فانه لم يجد سبيلا الى الوصول اليهم الا اجتياز هذا الغدير ومدافعهم تضرب عليه

فسار في مقدمة عساكره وهم مصطفون لقتال الاعداء حتى وصلوا اليهم وحمل عليهم حملة عظيمة لم يسبق لها نظير في الوقائع التي حصلت بين الفريقين حيث كثر فيها سفك الدماء جدا واضطرمت فيها نيران الحرب مع العناد والقسوة فلم يمض ثلاث ساعات الا والسكسونيون والدانيمرقيون تركوا الميدان وركنوا الى الفرار وولوا الادبار

وكان

وكان في هذه الواقعة ابن الملك اغسطوس المشهور بقونتة مملكة سكس ويقال لامه قونتيسة دوكويغماق فصنع بها تجربة الفنون الحربية بمعنى انه طبق في هذه الواقعة ما كان قد تعلمه من فنون الحرب وهو الذي حظى فيمابعد بانتخابه دوقا على اقليم قورلنده وكان له حق في المنصب الملوكي لا ينازعه فيه احد لرضاء الاهالي به وركونهم اليه الا انه لم يكن عنده مايساعده على ذلك وهو الذي حاز الفخار فيمابعد بكونه انقذ فرانسا في واقعة فنتنوى وفتح اقليم افلندرة واشتهر بكونه اعظم جنرالات عصرنا وكان في واقعة غادبسق هذه رئيسا على ارطة وماتت فيها فرسه وكان راكبا عليها وقد اخبرني ان الاسوجيين مازالوا محافظين على صفوفهم حتى بعد نصرتهم علينا فكانت اوائل صفوف هؤلاء الشجعان يطاؤن رمم اعدائهم ولا يبعثهم الطمع على ان يشتغلوا بسلب القتلى الذين تحت اقدامهم قبل ان يدعوا دعاء النصرة في ميدان الحرب فيالهم من فرسان حافظوا على ماعودهم عليه ملكهم من شدة الضبط والربط والثبات

ولما تمت النصرة لهم تذكر الجنرال استنبوق ان الدانيمرقيين حرقوا مدينة استادة حتى صارت رمادا فسار بعساكره الى مدينة الطنا ليحرقها انتقاما منهم وكانت هذه المدينة تحت مدينة همبورغ على نهر البه الذي ميناه واسعة جدا بحيث يمكن للسفن العظيمة ان ترسوا عليها وكان ملك دانيمرقة يخص هذه المدينة بمزايا عظيمة دون غيرها من مدن مملكته قاصدا بذلك ان يرتب بها التجارة عظيمة حتى ان اهاليها بمهارتهم واعانة الملك لهم وتشجيعه اياهم بمايدل على حزمه ووفور عقله اخذوا في تصيير مدينتهم منظومة في سلك المدائن التجارية ذات الثروة فحسدها على ذلك اهل مدينة همبورغ وصاروا لا يتمنون الا خرابها فلما وصل استنبوق امامها افاد اهلها بصوت البوق ان يخرجوا منها ويحملوا معهم ما امكنهم حمله من الامتعة لانه يريد تخريبها ويجعل عاليها سافلها

فخرج اليه حكامها ووقعوا على اقدامه وترجوه ان لا يفعل ما عزم عليه

وانهم يدفعون اليه مائة الف ريال فدآء لمدينتهم فطلب منهم مائتي الف فترجوه ان يمهلهم حتى يبعثوا الى مدينة همبورغ حيث بها شركاؤهم ويأتوا بالمبلغ الذى طلبه فى صبيحة اليوم الثانى فما كان جوابه لهم الا ان قال لابد من تعجيل المبلغ المذكور حالا والا حرقت مدينتكم من غير مهلة

وكانت عساكره فى ضاحية المدينة وبايديهم شعلات النار ولم يكن لهذه المدينة حصن الا باب من الخشب غير متين وخندق مردوم فاضطر هؤلاء المساكين الى ترك منازلهم بالسرعة فى نصف الليل وكان ذلك فى (٩) من شهر كانون الثانى (سنة ١٧١٣) ولا يخفى ان هذا الوقت شديد البرد جدا لاسيما وقد هبت ريح عاصفة من جهة الشمال فكان ذلك سببا فى سرعة اتساع الحريق فى المدينة وتهويل الخطب الذى نزل باهلها وهم فى الخلاء وكانوا جميعا رجالا ونساء مضنين من ثقل ما يحملونه من الامتعة وما زالوا سائرين وهم فى بكاء وعويل حتى التجأوا الى تلال قريبة من مدينتهم كانت مغطاة بالثلج وشوهد فيهم عدة من الشبان حاملين على اكتافهم شيوخا مصابين بداء الفالج وجملة من النفساء حاملات اولادهن ويصعدن بهم الى تلك التلال ويئنن مع اولادهن وهن ناظرات من بعد لهيب النار فى وطنهن ولم تمهل الاسوجيون فى وضع النار فى المدينة حتى يخرج جميع اهلها بل اضرموا فيها النار من نصف الليل فما كملت الساعة العاشرة من النهار الا واحترقت عن آخرها بحيث لم يبق منها شئ لان معظم بيوتها كان من الخشب واصبحت دارسة كان لم تغن بالامس

فعند ذلك زحف ضعفاء هذه المدينة وشيوخها ونساؤها رقيقات الطبع اللاتى لا يتحملن شيأ وكانوا قد خرجوا منها والتجأوا الى التلال المغطاة بالثلج حسبما تقدم حتى وصلوا الى ابواب مدينة همبورغ وتضرعوا الى اهلها ان يفتحوا لهم وينقذوهم من الهلاك فامتنعوا من قبولهم لانه كان بمدينة الطنا بعض من الادوآء المعدية لاسيما وكان الهمبورغيون لا يميلون لاهل الطنا حتى يخاطروا بانفسهم ويجلبوا لمدينتهم هذه الادوآء المنفرة فهلك اغلب هؤلاء

المساكين تحت جدران مدينة همبورغ مستصرخين الى الله تعالى من قساوة الاسوجيين والهمبورغيين الذين ليسوا ودونهم فيها

فاستعظمت ذلك بلاد المانيا وضجت من هذا الامر الشنيع وكتب وزراء مملكتي دانيمرقة وله وجنرالاتهما الى الجنرال استنبوق يوبخونه على هذه القساوة الفظيعة التي لا مقتضى لها ولا عذر له في ارتكابها فهي مثيرة لغضب اهل السماء والارض

فاجابهم الجنرال المذكور بان الحامل لي على ذلك انما هو ردع اعدآء سيدي وزجرهم عن ارتكاب الحروب التي لا تصدر الا عن الخشنيين وان لا ينتهكوا حرمة حقوق الملل وما سلكت معهم هذه المسالك الا ما صدر منهم من الخشونة والقسوة باقليم بوميرانيا وتخريبهم اياه وبيعهم من اهله نحو مائة الف للترك فشعل النار التي حرقت مدينة الطنا هي في نظير الكلل الملتهبة التي درست مدينة استادة

فهكذا كانت عادة الاسوجيين مع اعدائهم يسلكون في حروبهم مسالك الحمية والشدة ولو ان كرلوس حضر في ذلك الوقت الى اقليم بوميرانيا لعاد بحسب الظن الى حالته الاولى من النجاح والظفر فان عساكره وان كانت بعيدة عنه الا انها لم تزل متقوية بما غرسه في قلوبهم من الشجاعة والضبط ولكن غيبة الرئيس تضر بالمصالح وبندر معها النصرة والظفر وذلك ان الجنرال استنبوق فقد بما حصل له فيما بعد من الحروب العديدة الهينة ثمرة نصراته في الوقائع العظيمة التي لو حصلت في غير ذلك الوقت لبقي له فخارها على الدوام

وذلك انه ولو بلغ في النجاح الغاية القصوى لم يمكنه ان يمنع الموسقوبيين والسكسونيين والدانيمرقيين من التحزب عليه فانهم اسروا من عساكره ارطا كاملة وفقد من اصحابه طوائف كثيرة في عدة مصادمات وغرق منهم الفان في اجتيازهم نهر ايدير وكانوا ذاهبين الى اقليم هولستين ليقيموا به مدة الشتاء فجميع هذه الخسارات لم يمكنه جبر خللها وهو ببلدة يحيط به فيها من جميع الجهات اعدآء اولو شوكة قوية

وقد عزم على مدافعة الدانيمرقيين عن اقليم هولستين وبذل جهده فى الذب عنه ومع ذلك ذهبت تحيلاته ومجهوداته هباء وتخرب الاقليم المذكور وهلك جيشه وقبض عليه الاعداء واخذوه اسيرا

ثم ان الطوائف المتحزبة تغلبت على اقليم بومبرانيا لانه كان غير حصين واستولت عليه ماعدا مدينة استرالسند وجزيرة روجان وبعض اماكن مجاورة لهما وجعلته فى حكومة ملك البروسيا وشحنت اقاليم ابريمة من الدانيمرقيين وتكاثر الموسقوبيون حينئذ فى بلاد فنلندة وهزموا فيها الاسوجيين الذين زال عنهم وصف كونهم يثقون بانفسهم واضمحلت شجاعتهم التى كانت تقوم فيهم مقام الكثرة

ومن سوء حظ المملكة الاسوجية وتمام مصيبتها تصميم ملكها على المكث بمدينة دموتيقا طامعا فيما لا ينبغى له ان يطمع فيه من اعانة الترك واخذهم بناصره

وايضا ابراهيم ملا الذى كان مصمما على قتال الموسقوبيين غيرمكترث بعلى كومورجى حيث كان ذلك على خلاف مراده خنق بين بابين وجرعه الدهر كؤوس الحين

فبمثل هذه الامور صار منصب الوزارة مهولا جدا لا يمكن لاحد القدوم عليه فمكثت الدولة بلا وزير ستة اشهر ثم تولى الوزارة على كومورجى فأيس كرلوس حينئذ مما كان طامعا فيه لانه كان يعرف حالة هذا الوزير معرفة جيدة بما حصل له منه سابقا من قضاء مصالحه حين كانت ملايمة لاغراضه

فمكث كرلوس احد عشر شهرا بمدينة دموتيقا فى البطالة وصار فيها نسيا منسيا وحيث ان هذه البطالة التامة حصلت عقب جده واجتهاده فى الرياضات والتعليمات من غير تراخ اورثته ما كان يزعمه من المرض والسقم فبذلك اعتقد اهل اوربا انه قدمات وانقطعت اخباره عن مشورة الوكلاء التى كان قد اقامها مقامه بمدينة استخلم حين سافر منها وصارت لا تعلم على اى حالة هو فذهب اربابها الى اخته وهى الاميرة اولير يقة ايليونورة والتمسوا منها

ان

ان تقوم مقام اخيها مدة غيبته فاجابت سؤآلهم الا انها خلعت نفسها فيما بعد لما عرفت ان ارباب هذه المشورة يريدون جبرها على الصلح مع قيصر الموسقو وملك دانيمرقة الذين خربا المملكة الاسوجية من جميع جهاتها لانها كانت تعلم ان اخاها لا يقر هذا الصلح ولا يرضى به فكتبت له في هذا الشأن وارسلت تخبره بتفاصيل هذا الامر

فوصله كتاب اخته في مدينة دموتيقا فقرأه وعرف مضمونه لكن لما كان مجبولا على الظلم واطلاق التصرف مرتضعا افاويق القسوة والجور انساه ذلك ان مملكة اسوج كانت سابقا حرة وان لمشورتها الحق من قديم الزمان في الحكومة مع ملوكها بحيث لا يمكن للملك منهم استبداد برأيه فكان لا يعتبر اربابها الا كخدم يريدون الرياسة ونفوذ الكلمة في منزل سيدهم مدة غيبته فكتب لهم انهم ان ارادوا حكومة المملكة وادارة مصالحها يبعث لهم نعلا من نعليه يصدر لهم منها الاوامر

ولاجل الاحتراس مما ظنه من تعدي ارباب المشورة على حكمه وافتياتهم عليه والذب عن مملكته ارسل يخبر الصدر الاعظم انه يريد السفر الى بلاده من طريق المانيا حيث ايس مما كان يأمله من الدولة العلية وصار لا يعول الا على نفسه

والذي اخبر الصدر الاعظم بذلك هو دير الورس الجي فرانسا وكان وكيلا على مصالح مملكة اسوج فقال له الصدر ما اقول انه يطلب السفر قبل مضي السنة واخبره ان هذا الامر موكول لاختياره ان شاء سافر وان شاء اقام فاذا احب السفر فليكن عن عزيمة صادقة ويعين يوم السفر لئلا يوقعنا في الحيرة ثانيا كما فعل ذلك بمدينة بندير

فذهب اليه القونتة دير الورس واخبره بما قاله الصدر الاعظم لكن بعبارة مستحسنة فعين كرلوس يوم السفر لكنه اراد ان يعقد لنفسه قبل خروجه موكبا عظيما لا يكون الا لعظماء الملوك وان كانت حالته التي كان عليها اذ ذاك من الهروب والالتجاء تأبى ذلك فلقب نديمه غورطزان بلقب الجي

خصوصي وبعثه يستأذن الدولة العلية في السفر على حسب الاصول
وارسل معه ثمانين رجلا لابسين الفخر الملابس
وماسلكوه من الوسايط السرية في جمع مايقوم بلوازم هذه الرسالة كان عاره
اعظم من ابهته ورونقه
وذلك ان كرلوس اقترض لاجل هذه الرسالة من القونسة دي الورس اربعين الف
ريال وكان لغورطزان في اسلامبول وكلاء يقترضون له كل مائة ربحها
خمسون فاقترضوا من بعض اليهود بها الف ريال ومن بعض تجار الانكليز
ماتي بستول قدره عشرة فرنكات ومن بعض الترك الف فرنك
فجمعوا بهذه المثابة مايقوم بابهة تلك الرسالة ويكسبها عظما وعلو شان
في الديوان العثماني فقوبل غورطزان في اسلامبول بماجرت به عادة الدولة
العلية في تلقي الجية عظماء الملوك من مزيد الترحيب والتكريم وكان الغرض
من هذا الاحتفال جلب شيء من الاموال من الصدر الاعظم ولكنه
كان بعيدا عن مرامهم هذا القساوة قلبه
وذلك ان غورطزان عرض للصدر الاعظم انه يريد ان يقترض من الدولة العلية
مليونا من المال فاجابه مع الانفة ان سيدي اذا اراد ان يعطي شيأ انعم به
من غير مقابل لان مقامه يجل عن مثل ذلك وانه يقوم بلوازم سفر ملكك مع
الكثرة اللائقة بمقام السلطنة بل ويمكن انه يتحفه بهدايا عظيمة من الذهب
غير المسكوك لكن لا ينبغي لكم ان تعتمدوا على تلك الهدايا لانه ربما كان الامر
بخلاف ذلك
وبالجملة فقد اخذ كرلوس في المسير في غرة تشرين الاول (سنة ١٧١٤)
وكان قد ذهب اليه قابجي باشي مع ستة من الجاويشية ليصحبوه من قلعة
دميرطاش التي كان بها كرلوس قبل السفر ببعض ايام واعطوا له من طرف
السلطان صيوانا متسعا لونه قرمزي مطرزا بالذهب وسيفا قبضته مرصعة
بالجواهر وثمانية خيول عربية جميلة المنظر مسرجة بسروج فاخرة
وركاباتها من خالص الفضة ولا بأس بان نذكر في تاريخنا هذا ان الركبدار

العربي

العربى اخبر كرلوس باصول هذه الخيول ومثل هذا الاعتناء فى شأن الخيول عادة قديمة عند هؤلاء الامم فتراهم يهتمون بالمحافظة على اصول تلك الحيوانات اكثر من اهتمامهم بمراعاة انساب الناس وهذا من الامور الحكمية لان الحيوانات التى يهتم بنتاجها ومراعاة الجودة فى اصولها بحيث لا يخلطونها بغير جنسها فى الضراب تبقى على جودتها ولا يعتريها عيب اصلا

فكان فى موكب كرلوس فى هذه السفرة ستون عربة مشحونة بانواع الزاد وثلثمائة فرس وكان القابجى المذكور يعلم ان جماعة من الترك اقرضوا اصحاب كرلوس بربا وافر فقال له ان الربا محظور فى شريعتنا معاشر المسلمين فالمرجو من حضرتكم ان تحصوا ديونكم وتأمروا الوكيل الذى مرامكم ابقاؤه فى اسلامبول ان لا يرد للغرماء الا مجرد رؤس الاموال فقال الملك لا يصح ذلك بل اذا كان احد من الاسوجيين اعطى سندا بمائة ريال ولم يأخذ الا عشرة فلا بد من دفع ما فى السند بتمامه

وطلب من الغرماء ان يسيروا معه الى بلاده واتقين بقضاء ما عليه لهم من الديون وتكفل لهم بمصاريفهم ذهابا وايابا فاجابه الى ذلك جماعة منهم وسافروا معه الى بلاد اسوج فعند ذلك قام غورطزان بقضاء ديونهم

ولاجل ان يظهر الترك مزيد اعتنائهم بضيفهم ونزيلهم جعلوا سفر الملك خفيفا هينا بحيث كانوا يسيرون مراحل قصيرة ولكن هذا التوانى وان كان من باب الاحترام عندهم الا انه كان لا يلايم حالة كرلوس من فرط تشوقه الى وطنه فكان يستيقظ فى الطريق قبل الفجر بثلاث ساعات على عادته وبمجرد لبس ثيابه يوقظ بنفسه قابجى باشى والجاويشية ويأمرهم بحث السير فى ظلمة الليل فبتلك المشابة التى لم يسبق لهم نظيرها تكدر مزاجهم حيث ان من عادتهم التبختر والتأنى فى المشى فكان كرلوس يسر لحيرتهم وتعبهم فى السير ويقول فى نفسه ان فى ذلك نوع انتقام منهم فى نظير ما وقع منهم

في حرب بنديره
ولما قرب كرلوس من ثغور بلاد الترك خرج استانسلاس من طريق اخرى قاصدا بلاد المانيا ليقيم بدوقية دوبون (اى القنطرتين) وهو اقليم بلصق التزام الرين والساسة وكان تحت حكم ملوك اسوج منذ ضمه الى الالتزامات الملوكية كرلوس العاشر الذى خلف فى الحكم الملكة كرستينة فرتب كرلوس الثانى عشر ايراداته لاستانسلاس وكانت تبلغ وقتئذ نحو سبعين الف ريال وبهذا انقطعت الآمال وانتهت الحروب التى اشتغل بها كرلوس منذ زمان طويل لاجل نظم استانسلاس فى سلك العصابة الملوكية وكان يمكن لاستانسلاس ان يسعى فى الصلح مع الملك اغسطوس ويعقد معه مشارطات تعود عليه بالمنفعة لولا عناد كرلوس وشدة قسوته وامتناعه من ذلك محافظة على ابقاء لقب الملك لاستانسلاس فانه ترتب على هذا الامتناع ضياع اراضى استانسلاس واملاكه واموالة بعد ان كانت محققة وثابتة له بمملكته له
ومازال استانسلاس مقيما بهذه الدوقية حتى مات كرلوس فعند ذلك رجع هذا الاقليم الى امير من العائلة البلاتينية التى كان لها من قديم الزمان فاستوطن حينئذ بمدينة ويسانبورغ من اقليم الساسة بمملكة فرانسا فتشكى الجى الملك اغسطوس المسمى سوم لدوق اورليان وكان اذ ذاك وكيل فرانسا وابدى له ان فى نفس سيده شيأ من ايواء استانسلاس بالمملكة الفرنساوية فاجابه الدوق المذكور بهذه العبارة التى تعد من مأثرة الجميلة وهى اخبر سيدك ان فرانسا لم تزل من قديم الزمان ملجأ لمن غدر به الدهر من الملوك
ولما وصل ملك اسوج الى ثغور المانيا بلغه ان الايمبراطور صدرت اوامره فى سائر جهات الايمبراطورية ان يتلقوا كرلوس بما يليق بحضرته من التبجيل والاحترام ويقوموا بواجبات مقامه وعظم شأنه فكانت جميع المدن والقرى التى عينها المرور من وطيئته ذلك تتأهب لملاقاته وتستعد حسب امكانها لاكرامه والترحيب به وكان اهلها ينتظرون قدومه عليهم متشوفين

الى رؤية هذا الملك الذى شاع امره وانتشرت نصراته ومصائبه وسائر افعاله جليلها وحقيرها وحركته وسكونه فى جميع ممالك اوروبا واسيا وقرعت اسماع اهاليها ولكن كان كرلوس فى معزل عن ذلك كله فكان لا يريد هذا الاحتفال ولا ان يجعل اسير مدينة بندير (يعنى نفسه) فرجة للناس بل كان مصمما على انه لا يدخل مدينة استخلم التى هى دار اقامته حتى يجبر خلل نكبته بالظهور على اعدائه ويعود الى ما كان عليه اولا

ولما وصل الى مدينة ترغوويتزة على ثغور اقليم ترانسيلوانيا وهو احد اقاليم مملكة النيمسا امر عساكر الترك بالعود الى بلادهم وجمع اصحابه فى مجلس وقال لهم لا تشغلوا فكركم بى ولا تخشوا على ضررا وانما تحثون السير حتى تصلوا الى مدينة ايسترالسند وهى من مدن مملكة بوميرانيا على شاطئ بحر بلطق وكان بينهم وبينها حينئذ نحو ثلثمائة فرسخ

وتركهم وساروا لم يأخذ معه الا دورنغ فصاروا فى حيرة وخوف وحزن من مفارقته اياهم وتنكر بكونه وضع على رأسه شعرا اسود مستعارا لانه كان دائما بشعره الاصلى ولبس برنيطة على دائرها شريط من الذهب وثيابا لونها اسنجابى وعباءة زرقاء وتسمى باسم بعض الضباط النيمساوية وركب فرسه وسار ومعه دورنغ

وتباعد فى سيره على قدر الامكان عن اراضى اعدائه سواء من افشى له العداوة ومن اسرها وسلك فى سيره طريق المجار واقليم موراويا وبلاد اوستريا ومملكة باويرة واقليم ويرتمبرغ واقليم البلاتينة واقليم ويسفاليا وميكلانبورغ فبذلك طاف بلاد المانيا بتمامها وطالت مدة سيره وكان يمكنه ان يصل الى بلاده فى نصف مدة هذا السفر وحين نزوله فى آخر اول يوم من السفر بعد ان جد فى المسير مدة النهار من غير مهلة ولا ترايخ اغمى على الشاب دورنغ لانه كان غير متعود على هذا التعب مثل الملك وحيث ان كرلوس كان لا يريد المكث فى الطريق ولو لحظة سأل دورنغ عند افاقته عن مقدار ما معه من الدراهم فاجابه ان معى الف بندقى فقال له الملك اعطنى

نصفهما فانى ارى منك انك لا تستطيع السفر معى فانا اكمل السفر وحدى فتضرع اليه ان يمهله ثلاث ساعات حتى يستريح واقسم له انه بعدها يمكنه ركوب فرسه والسير معه وترجاه ان يتفكر فيما يلحقه من الخطر اذا هو فارقه على تلك الحالة فلم يسمع كلامه لقسوته واخذ منه نصف الدراهم وطلب من صاحب البريد فرسا للسفر ففزع دورنغ من ذلك وتحيل فى تعطيل الملك بحيلة لاضرر فيها فاخذ صاحب البريد بعيدا عن الملك وقال له مشيرا الى كرلوس ان هذا الرجل خالى ونحن مسافرون بصدد غرض واحد ولما راى ما حل بى من التعب والمرض لم ينتظرنى ثلاث ساعات حتى استريح فالمرام منك ان تعطيه اردأ فرس من اصطبلك وابحث لى عن عربة خفيفة كى ادركه فى الطريق

ودفع له دوقين من المعاملة فوفى له بمطلوبه وذلك انه اعطى كرلوس فرسا جموحا اعرج فركبها وسار وحده فى الساعة العاشرة من الليل وكانت الظلمة اذ ذاك شديدة مع ما كان من الرياح والثلج والمطر واما صاحبه فانه بعد ان نام بعض ساعات جيء له بعربة يجرها خيول قوية فركبها وسار بعض اميال فراى فى اول النهار ملك اسوج وقد نزل عن فرسه لتعذر سيرها وجد فى السير ماشيا كى يدرك البريد الآخر

فلما راى عربة دورنغ اضطر الى ان يصحبه عليها فركبها ونام على تبن كان فيها وما زالا سائرين الا انهما كانا يركبان الخيل نهارا وينامان فى العربة ليلا

واستمرا على ذلك ستة عشر يوما مخاطرين بانفسهما غير مرة حتى وصلا فى (٢١) من شهر تشرين الثانى الافرنجى سنة ١٧١٤ الى ابواب مدينة استرالسند بعد مضى ساعة من نصف الليل الثانى

فصاح كرلوس بالخفير انى ساع من طرف ملك اسوج اتيت من بلاد الترك فيلزم حالا ان اتكلم مع الجنرال دوقين محافظ المدينة فقال له الخفير ليس هذا وقت الكلام فان المحافظ قد نام فيلزمك الانتظار الى طلوع النهار

فقال

فقال كرلوس للخفراء انى آت بصدد مصالح مهمة وان لم تذهبوا توقظون محافظ المدينة غوفبيترجية فى صبيحة النهار فذهب منهم جاويش وايقظه فظن دوقير ان هذا الساعى من جنرالات الاسوجيين فامر ان تفتح له ابواب المدينة وادخلوه عنده

ولما كان عند دوقير اثر النوم سأل هذا الساعى عن اخبار ملك اسوج فقبض الملك على ذراعه وقال له كيف نسيتنى امناء رعيتى فعند ذلك عرفه الجنرال الا انه صار يتخوّن بصره ويخطئ نظره ولكنه قذف نفسه من فوق سريره ووقع على اقدام الملك وصار يقبلها وهو يبكى من شدة الفرح ولسان حاله ينشد

طفح السرور علىّ حتى انه * من عظم ما قد سرّنى ابكانى

ثم شاع خبر الملك فى المدينة حالا واستيقظ اهلها واحدقت العساكر ببيت محافظها وامتلأت الطرق بالاهالى وصاروا يتساءلون هل جاء الملك هنا حقيقة واضاؤا الشبابيك وشوهد النبيذ يجرى فى الحارات بواسطة ضوء ما لا يحصى من المشاعل وسمعت المدافع من سائر الجهات

ثم اعدوا للملك فراشا فذهب لينام عليه لانه منذ ستة عشر يوما لم يكن التذ برقاد بل كان الغالب عليه السهاد وكانت اقدامه قد تورّمت مما لحقه من كد السفر ومتاعبه فلم يمكنه خلع مداسه الا بالتمزيق ولم يكن عنده فى تلك المدة من الملابس الا ما على جسده فبادروا به بمل ثياب من افخر ثياب المدينة فنام بعض ساعات واستيقظ مبادرا لسرد عساكره وتفقدهم والاطلاع على التحصينات وفى نفس ذلك اليوم صدرت اوامره الى سائر الجهات ان يستعدوا لحرب شديد مع جميع الاعداء والذى اخبرنى بهذه الحكايات الملايمة لطبيعة كرلوس الغريبة هو القونتة كورواسى وهو الجى عند ملك اسوج بعد ان اخبرنى بها فبريس

وكانت اوربا فى ذلك الوقت على حالة مباينة لما كانت عليه حين مهاجرة كرلوس منها (سنة ١٧٠٩)

وذلك ان نيران الحروب التي كانت مضطرمة في الجزء الجنوبي من اوربا وهو بلاد المانيا والانكليز والفلمنك وفرانسا وايسبانيا والبرتوغال وايطاليا وتمزقت بها تلك البلاد اطفى اهيبها وخمد سعيرها وكان منشأ هذا الهدو العام بعض مشاجرات خصوصية وقعت في ديوان الانكليز وذلك ان القونتة اوكسفورد وكان وزيرا ماهرا واللوربولينغ بروق وكان من ارباب القرائح العجيبة ظهرا على الجنرال الشهير دوق مالبروغ وتحيلا على حانة ملكة الانكليز وحملاها على ان تعقد الصلح مع لويز الرابع عشر فلما رأت فرانسا مسالمة الانكليز لها الزمت بقية الممالك بالصلح مع بعضها

وفي ذلك الوقت حكم فيليبش الخامس حفيد لويز الرابع عشر على بقايا السلطنة الايسبانيولية مع الهدو والامن واما ايمبراطور المانيا فانه بتغلبه على بلاد نابلي وافلندرة صار قوي الشوكة في مملكته على اتساعها واما لويز الرابع عشر فانه صار لا يتمنى الان يمضي مابقي من حياته في السلم والهدو وفي (١٠) من شهر اب افرنجي (سنة ١٧١٤) ماتت حانة وكان نصف رعيتها قد غضبوا منها لكونها صالحت كثيرا من الممالك ومن سوء حظ اخيها ياكس استورد حرم من الاستيلاء على سرير المملكة من حين ولادته ولو ظهر في بلاد الانكليز اذ ذاك ليجتني ثمار وراثة اخته وتقوى حزبه لفاز بهذا الغرض وتمكن من اجتناء ثمرة المملكة باصول جديدة لكن انحطت آرآؤهم جميعا على اختيار جرجس الاول دوق هانورة ملكا على بريطانيا الكبرى ولم يكن استواؤه على الكرسي منظورا فيه لنسبه وان كان من نسل بنت ياكس وانما ذلك لمجرد انتخاب ديوان الملة

فدعي جرجس المذكور وكان قد طعن في السن للحكم على امة لم يكن يعرف السنتها ولا اخلاقها وعوايدها فكان يميل الى كونه حاكم هانورة اكثر من كونه ملك الانكليز فكان مطمح نظره منحصرا في توسيع اقاليمه التي ببلاد المانيا وانما كان يركب البحر كل سنة ليطلع على احوال رعيته الذين كانوا يحبونه محبة شديدة وكان يميل الى ان يعيش كاحاد الناس اكثر من ميله الى

ان يعيش معيشة الرؤساء لان تحمل أعباء الملك كان عنده امرا ثقيلا فكان لا يشتمل مجلسه الاعلى عدد قليل من الشيوخ وهو وان لم يزد على غيره من ملوك اوربا في الرونق والابهة الا انه كان من عقلائهم وامتاز عنهم بكونه سلك في المعيشة مسلك الآحاد ومالت قلوب الناس اليه وعاش عيشة راضية وان كان المنصب الملوكي يابى ذلك فهكذا كانت حالة جنوب اوربا وحالة ملوكه

واما التغير الذي حصل في شمال اوربا فكان مباينا للتغير الذي وقع في جنوبها وذلك ان ملوك هذه الجهة الشمالية كانوا جميعا في قتال وتحزب على ملك اسوج

فقد استولى اغسطوس ثانيا على كرسي مملكته له منذ مدة طويلة باعانة قيصر الموسقو ورضاء ايبراطور المانيا وملكة الانكليز ومشورة العموم وكانوا قبل ذلك متكفلين باجراء مشارطة الترنسادة حين كان كرلوس له اقتدار على وضع قوانين على الممالك ثم تخلوا عن تلك الكفالة حين صاروا لا يخشون بأسه ولا سطوته

ولكن لم يحفظ اغسطوس بالحكم على تلك المملكة من غير تعكير لان الجمهورية اللاهية لما عاد اليها اغسطوس خشيت ان يعود لما كان عليه اولا من الظلم والحكم المطلق فصارت مستعدة دائما لجبره على العمل بمقتضى الباكتاكنوتة (وهي مشارطة بين الملوك والرعايا) فكأنها لم ترجعه ثانيا الا لتظهر له الحرب وعدم الطاعة وفي مبدء هذه المشاجرات كان لا يسمع لاستانسلاس ذكر بل تشتتت اصحابه وتمزقوا كل ممزق وكان لا يخطر كرلوس ببال اللاهيين الا كسيل اتلف كل شيء صادفه حال جريانه

وكان واقعة بلطا واوغيبة كرلوس ترتب عليهما سقوط استانسلاس عن الدرجة الملوكية ترتب عليهما ايضا انحطاط درجة دوق هولستين ابن اخت كرلوس بتغلب ملك دانيمرقة على ممالكه وكان كرلوس يحب اباهذا الدوق محبة شديدة فلحقه الخجل مما حل بابنه من المصائب لاسيما وكان هذا

الملك لا يفعل شيئاً الا للفخار والشهرة فكان يشق عليه عزل الملوك الذين ولاهم او اعادهم الى محالهم كما شق عليه ضياع كثير من اماليه

وها انا اذكر لك الجماعة الذين تمولوا واكتسبوا الثروة بما سلبوه من كرلوس فاقول منهم فردريق غليوم الذى تولى على مملكة البروسيا منذ مدة قليلة وكان يتراآى من حالته ان يميل الى الحرب بقدر ميل ابنه الى السلم فقد شرع فى التغلب على مدينة استتين وجزء من اقليم بوميرانيا لانه كان يدعى ان له حقا فيهما حيث اقرض ملك دانيرقة وقيصر الموسقو اربعمائة الف ريال

ومنهم جرجس دوق هانورة الذى صار ملكا على الانكليز فانه استولى على دوقتى ابريمة ووردان وكان قد رهنهما عنده ملك دانيرقة فى نظير دين مقداره ستون الف بستولى فبهذه المثابة كان هؤلاء يتصرفون فى ممالك كرلوس وكان كل من استولى على شئ منها بما دفعه من الاموال يصير عدوا لكرلوس كالمتغلب عليها

وكان اشدهم بأسا على كرلوس هو قيصر الموسقو وذلك لان هزيماته القديمة ونصراته العديدة بل وما وقع منه من الخلل والخطاء ومواظبته على التعلم والتعليم واشغاله المستمرة كل ذلك جعله عظيما ماهرا فى كل شئ زاوله وقد تغلب من بلاد كرلوس على مدينة ريغا واقاليم ليونيا وانغرية وكارلية ونصف اقليم فنلندة وبالجملة فاستولى الموسقوبيون على كثير من الاقاليم التى فتحها اجداد كرلوس

واستولى القيصر ايضا على بحر بلطق وصار له فيه ثلاثون سفينة حربية بعد ان كان لا يملك فيه مركبا وكان ايضا قد صنع بيده احدى هذه السفن لانه كان اعظم من زاول صنعة النجارة واعظم قبطان وملاح ببلاد الشمال ولم يكن فى البحر محل صعب السلوك فيما بين خليج بوثنيا والبحر المحيط الا اختبره بنفسه واضاف الى فن الملاحة الفلسفة ومزاولة المقاصد السلطانية وما زال يحاول فن الملاحة حتى صار بكثرة نصراته ومهارته على

التدريج

التدريج قبطانا في البحر كما حاول الفنون الحربية حتى صار سرعسكر في البر

ومن جنرالاته الامير غليتزين رقاه القيصر الى رتبة جنرال وكان هذا الامير ممن يعينه على تنفيذ اغراضه وكان قد بعثه القيصر ليتمم فتح اقليم فنلندة ومدينة وازا فهزم الاسوجيين وفي اثناء تلك المدة ركب القيصر البحر عازما على فتح جزيرة الندة التي ببحر بلطيق بالبعد عن مدينة استخلم باثني عشر فرسخا

وكان شروعه في السفر لهذه الغزوة في اوائل شهر تاموز افرنجي (سنة ١٧١٤) حين كان قرينة كرلوس متمرضا في مدينة دموتيقا ونزل البحر من مينا فرونسلو وكان قد بناها قبل ذلك بسنوات بالبعد عن مدينة بترسبورغ باربعة اميال فكانت هذه المينا الجديدة وما بها من السفن والضباط والملاحين من اختراعه وابداعه وبالجملة فكان لا يقع بصره على اي جهة من ممالكه الا ويراها امامن اختراعه او احدث فيها شيأ

وفي ١٥ من الشهر المذكور وصلت السفن الموسقوبية الى جزيرة الندة وكانت مركبة من ثلاثين سفينة حربية وثمانين غرابا كبيرا ومائة غراب صغير وكان فيها من العساكر عشرون الفا وكان رئيسها القبطان ابركسين واما القيصر فكان معهم بوظيفة معاون القبطان وفي اليوم السادس عشر من الشهر المذكور وصلت السفن الاسوجية لمقابلتهم وكان رئيسها ارنشيلد وكيل القبطان وكانت على الثلث من السفن الموسقوبية قوة واستعدادا ومع ذلك ثبتت على مصادمة الموسقوبيين ثلاث ساعات ثم تعلقت امال القيصر باخذ سفينة ارنشيلد فاخذها بعد الجهد والمشقة

فلما انتصر القيصر عليهم انزل في اليوم الذي انتصر فيه ستة عشر الفا من عساكره الى جزيرة الندة واسر في سفنه جماعة من عساكر الاسوجيين

لم يمكنهم الركوب فى سفنهم وعاد الى مينا قرونشلو ومعه سفينة ايرنشيلد وثلاث سفن اخرى اصغر منها وفرقاطة وستة اغربة غنمها فى تلك الغزوة

ثم سار من هذه المينا حتى وصل الى مينا بترسبورغ ومعه سفنه المنصورة والسفن التى غنمها من الاسوجيين فضربت للتسليم عليه مائة وخمسون مدفعا ثلاث مرات ودخل المدينة بموكب عظيم سر منه اكثر من الموكب الذى صنع له عند دخوله مدينة الموسقو ولانه تلقى بهذه البشر يقات فى مدينته العظيمة التى كانت قبل ذلك بعشر سنوات محلا قفرا لا يرى فيه اثر للعمران وكانت حين دخوله بها فى هذه المرة محتوية من الدور على اربعة وثلاثين الفا وخمسمائة ومما زاده فرحا انه وجد نفسه قائدا جيشا منصورا ورأى ما لم يكن قبل ذلك للموسقو بيين من السفن الحربية ببحر بلطيق خصوصا وكان ذلك فى ملة لم تكن تعرف قبل استيلائه عليها ما كلمة سفينة

فعقد له بمدينة بترسبورغ موكب نصرة كالموكب الذى عقد له بمدينة الموسقو وكان مبنى هذا الموكب على ايرنشيلد وكيل القبطان الاسوجى وظهر القيصر فى هذا الاحتفال بمظهر معاون القبطان وكانت عادته فى مثل هذا الاحتفال أن يقيم مقامه فى منصب القيصرية رجلا من اعيان الموسقوبيين يقال له رومانودوسق فكان هذا الرجل فى ذلك الوقت جالسا على كرسى القيصر وحوله اثنا عشر رجلا من اعضاء المشورة فعرض عليه القيصر وهو بصفة معاون القبطان هذه الغزوة وما وقع له فيها فجعله وكيل القبطان مكافأة له على مهارته فى وظيفته وما جرى على يديه من المنفعة وهذا الاحتفال وان لم تجر به عادة العقلاء الا انه كان نافعا فى تلك البلدة التى احدث بها القيصر الضبط والربط العسكرى فهو من باب الترغيب لهم فى ذلك

فلما ثبتت النصرة للقيصر على الاسوجيين برا وبحرا واعان على طردهم من مملكة لهصارله فيها نفوذ كلمة وقوة شوكة حيث توسط فى الصلح بين الجمهورية اللاهية

واغسطوس

واغسطوس وهذا الفخار يضاهي فخار تنصيب الملوك وبالجملة فقد انتقل رونق كرلوس وعظم شأنه ومساعدة الدهر له الى قيصر الموسقو بل كان حظه في ذلك اوفر لان ثمرات نصراته كانت تعود بالنفع على بلاده فكان كلما فتح مدينة نقل مهرة ارباب الصنائع منها الى مدينة بترسبورغ ليعلموا اهلها صنائعهم فجلب في البلاد الموسقوية اهل الورش وارباب الفنون والمعارف من الاقاليم الاسوجية التي فتحها فمن ثم كانت ممالكه تتمول بنصراته فبذلك يعتذر عنه فيما يتوجه على غيره من الفاتحين من الذم واللوم

واما مملكة اسوج فانها كانت محرومة من جميع اقاليمها التي خلف البحر وانحطت درجتها بين الممالك فلم يكن لها نفوذ كلمة وانقطعت منها التجارة ونفدت اموالها وقدماء عساكرها الذين كان يخشى بأسهم جميع الممالك هلكوا عن آخرهم بعضهم قتل في الحروب وبعضهم مات من الفاقة والفقر واسر منهم الموسقو ما ينوف على مائة الف وفرقوهم في اقاليمهم وبيع نحو هذا القدر للترك والتتار فبذلك اخذ الرجال الاسوجيون في التناقص والقلة لكنهم انتعشوا وتجدد فيهم الامل بعد اليأس والقنوط حين علموا بحضور ملكهم في مدينة استرالسند

ولما كانت رعيته تميل اليه كل الميل وتحترمه نهاية الاحترام وكانت مجبولة على اعتقاد عظمته والانقياد اليه في جميع الاحوال هرعت اليه شبان الفلاحين للدخول في العسكرية والانتظام في سلكها وان كادت الاراضي ان تخلو بذلك عمن يقوم بحرثها وزراعتها

(المقالة الثامنة)

في تزويج كرلوس اخته للامير دوهيس ومحاصرته في مدينة استرالسند وهروبه منها الى مملكة اسوج وفيما ابداه وزيره الاعظم البارون غورطز من المشروعات وفي عزمه على الصلح مع قيصر الموسقو واغارته على بلاد الانكليز وفي محاصرته لمدينة فردريكسهال ببلاد نرويج وقتله في تلك الواقعة وفي ذكر اوصافه

ومناقبه وفى ضرب عنق غورطز بعد موت كرلوس
كان لكرلوس عدة اخوات لم يبق عنده منهن فى ذلك الوقت الا واحدة
يقال لها اولريقة ايليونورة فزوجها فى اثناء استعداده لقتال اعدائه للامير
فردريق دوهيس كاسيل والذى قام بامور هذا العرس وتشريفاته هى الملكة
جدة كرلوس واخته المذكورة وكان اشهار هذا النكاح فى (٤) من شهر نيسان
(سنة ١٧١٥) بسراية الملك فى مدينة استخلم وكانت هذه الملكة قد بلغت
من العمر ثمانين سنة وماتت بعد ذلك بقليل
وسبب قيامها باشهار هذا النكاح هو عدم حضور كرلوس لانه كان اذذاك
بمدينة استرالسند مشتغلا بتتميم تحصين هذا الثغر المهم لما ظهر له من عزم ملك
دانيمرقة وملك البروسيا على الاغارة عليه ومع ذلك ولى زوج اخته المذكور
على العساكر التى بمملكة اسوج وجعله رئيسا عليهم بتمامهم لما ان هذا
الامير كان قد سبق منه نفع لمشورة العموم بمملكة اسوج فى حربها مع فرانسا
فبذلك كان معدودا من عظماء الجنرالات ومهرتهم وكانت هذه الصفة هى
الاصلية فى تزوجه باخت ملك اسوج
وفى ذلك الوقت كانت المصائب متراكمة على مملكة اسوج كما كانت نصراتهم سابقا
متوالية متتابعة وذلك ان عساكر ملك الانكليز النيمساوية وعساكر ملك
دانيمرقة اغاروا على مدينة ويسمار الحصينة فى شهر حزيران (سنة ١٧١٥)
وتحزب كل من الدانيمراقيين والسكسونيين فوجهوا جيشا يبلغ ستة وثلاثين
الفا الى مدينة استرالسند فحاصروها واغرق ملك دانيمرقة وملك البروسيا
قريبا من مدينة استرالسند خمس سفن من السفن الاسوجية وكان القيصر
اذذاك فى بحر بلطق ومعه من السفن الحربية عشرون ومن مراكب النقل
مائة وخمسون ومن العساكر ثلاثون الفا بصدد الاغارة على مملكة اسوج
فتقدم الى ساحل هلسنبورغ ثم توجه تلقاء مدينة استخلم فحمل الاسوجيون
اسلحتهم ومكثوا فى السواحل ينتظرون اغارة الموسقوبيين وفى ذلك الوقت
كانت العساكر الموسقوبية البرية تطرد الاسوجيين من الاماكن التى

كانت باقية تحت حكمهم في اقليم فنلندة الى جهة خليج بوثنيا ولم يتجاوز القيصر ذلك بل اقتصر على طردهم من تلك المواضع

وكان في مصب اودير وهو نهر يشق مملكة بوميرانيا ويجري تحت مدينة استيتين ثم يصب في بحر بلطق جزيرة صغيرة يقال لها اوزدوم وهي ثغر عجيب الوضع لما انها مشرفة على يمين نهر اودير وشماله وكان الذي يحكمها يحكم على ملاحة النهر بتمامه فتغلب عليها ملك البروسيا واخرج الاسوجيين منها كما اخذ مدينة استيتين رهنا في نظير القرض كما سبق وكان يقول ما اخذت هذين الموضعين الا لطلب الصلح ثم اخذ منه الاسوجيون الجزيرة المذكورة في شهر ابريل افرنجي (سنة ١٧١٥) وكان بها قلعتان احداهما يقال لها قلعة سوين وهي على فرع من نهر اودير مسمى بهذا الاسم ايضا والثانية وهي احصن من الاولى يقال لها پناموندر وهي موضوعة على الفرع الثاني من النهر المذكور ولم يكن عند كرلوس من العساكر من يحافظ هاتين القلعتين والجزيرة بتمامها الا مائتان وخمسون من عساكر بوميرانيا رئيسهم ضابط من قدماء الضباط الاسوجيين يسمي قوزلايسليرپ جدير بتخليد اسمه وبقاء ذكره على مر الازمان

فاراد ملك البروسيا ان يسترجع تلك الجزيرة فارسل من عساكره في (ع) من شهر آب افرنجي الفا وخمسمائة من المشاة وثمانمائة من الخيالة لابسين دروعهم وعندهم للنزول بها ومحاصرتها فوصلوا اليها ونزلوا بجانب قلعة سوين من غير ان يعارضهم احد وذلك لان المحافظ الاسوجي تركها لهم وذهب الى قلعة پناموندر لما انها اهم من الاولى ولم يوزع عساكره عليهما لقلتهم فاخذ الجميع وذهب بهم الى القلعة الثانية مصمما على المدافعة عنها بغاية جهده

فحاصره البروسيون محاصرة شديدة وانزلوا لاجل هذا الغرض مدافعهم في مدينة استيتين وامدوا عساكرهم بالف من المشاة واربعمائة من الخيالة وفتحوا خندق الجزيرة من مكانين وصاروا يضربون عليها بالمدافع والاهوان

ضرباً شديداً وكان ذلك فى (١٨) من شهر آب

وفى اثناء تلك المحاصرة جاء الى الجزيرة رجل من العساكر الاسوجية ارسله كرلوس سراً بمكتوب الى محافظها فتحيل حتى وصل اليه فى قلعة ينامونديز وناوله الكتاب فاذا فيه لا ترم الاعداء بالنار حتى يصلوا الى حافة الخندق ودافع عن الجزيرة ولو افضى بك الى الحتف وقد وكلت امرك لما قدره عليك من يعلم سرك وجهرك

فلما قرأ ايسليرب الكتاب عزم على العمل بمقتضاه وانه يدافع حتى يموت امتثالاً لامر سيده ونصحاً فى خدمته ثم ان الاعداء هجموا فى صبيحة اليوم الثانى والعشرين من الشهر المذكور على الجزيرة فلم يطلق الاسوجيون عليهم نار الاعند وصولهم الى حافة الخندق فقتلوا من البروسيين عدداً عظيماً لكنهم ظهروا عليهم لكثرتهم وانهدام الخندق واتساع الخرق فيه فدخلوا القلعة من موضعين مرة واحدة فلم يتفكر المحافظ حينئذ الا فى بيع نفسه بثمن غال امتثالاً لامر ملكه فترك خروق الخندق التى دخلت منها الاعداء ونصب معسكره قريباً من برج هنالك لا يمكن للاعداء الاحاطة به فخاطر اصحابه بانفسهم واطاعوا امره لكونهم امناء فبادر اليه الاعداء متعجبين منه كيف لا يطلب الامان والحالة هذه واستمر على قتالهم ساعة كاملة ثم قتل هو ومعاونه ورئيس عساكره بعد ان هلك من العساكر ما يزيد على نصفهم بحيث لم يبق منهم الا مائة رجل وضابط واحد فعند ذلك طلبوا الامان فاسرهم الاعداء ووجدوا فى ثياب المحافظ كتاب كرلوس فارسلوه لملكهم

وفى تلك المدة التى فقد فيها كرلوس جزيرة اوزدوم وما جاورها من الجزائر التى اخذت بعدها بمدة قليلة وكانت مدينة وسمار مشرفة على التسليم ولم يكن عنده سفن حربية وكانت مملكة اسوج فى فزع وخوف من اعدائها كان كرلوس بمدينة استرالسند وكان على تلك المدينة ستة وثلاثون الفاً يحاصرونها

وقد اشتهرت هذه المدينة فى اوربا بهذه المحاصرة التى تجرع كرلوس غصصها
وكابد مشاقها وهى احصن مدينة باقليم بوميرانيا وهى موضوعة بين بحر
بلطق وبحيرة فرنقسان على بوغاز جلا ولا يمكن الوصول الى ارضها الا بواسطة
جسر ضيق فيه قلعة وحصون يتعذر القرب منهما وكان محافظو المدينة
نحو تسعة آلاف رجل لاسيما وكرلوس بين اظهرهم والذى تصدى لهذه
المحاصرة هو ملك دانيمرقة وملك البروسيا وكان معهما جيش يبلغ ستة وثلاثين
الفا ما بين بروسى ودانيمرقى وسكسونى
وكان افتخارهم بمحاصرة ملك اسوج هو السبب الباعث لهم على الاهتمام
والتشديد فيها حيث ازالوا جميع ما يعوقهم فى تحصيل هذا الغرض وفتحوا
الخندق فى الليلة العشرين من شهر تشرين الاول (سنة ١٧١٥) وكان
كرلوس يقول فى اوائل هذه المحاصرة كيف يطمعون فى اخذ مثل هذه
المدينة المحصنة تحصينا متينا وفيها من المحافظين من يقوم بحفظها وحمايتها
وانما قال ذلك لانه كان يعلم ان سرعة فتحه للبلاد فى مبدء امره انما كانت لعدم
انتظام المحافظة من اهلها وخوفهم من اسلحته وسطوته خصوصا وكان يرى
ان من عداه من الملوك دونه فى الشجاعة والمهارة وانهم كلا شئ بالنسبة
اليه فاستبعد ذلك من هؤلاء المحاصرين لانتظام المحافظة فى هذه المدينة
ووجوده بها ثم ان المحاصرين بذلوا الهمة فى تحصيل ما تكون به المحاصرة
واعانهم على ذلك امر عجيب حصل بالصدفة والاتفاق
وذلك ان من المعلوم انه ليس لبحر بلطق مد ولا جزر ويترأى ان حصون المدينة
لا يمكن الاقدام عليها بشئ يسهل على الاعداء اخذ المدينة لما انها كانت
موضوعة من جهة الغرب على شاطئ غدير لا يمكن اجتيازه ومن جهة
الشرق على شاطئ بحر بلطق ولم يلاحظ احد من الفريقين انه اذا هبت
الرياح من جهة الغرب اندفعت مياه البحر المذكور الى جهة الشرق فيصير
عمق الماء حينئذ من جهة الحصون مقدار ثلاثة اقدام فقط بل ظنوا ان البحر
من جهة هذه الحصون لا يمكن اجتيازه فاتفق ذات يوم ان عسكريا

من الاسوجيين التي نفسه من فوق الحصن في البحر فتعجب غاية العجب حيث لاقت قدماه القرار لقلة عمق المياه فظن ان هذا الاستكشاف يكون سببا في سعادته فهرب الى عرضي القونتة واقيربرت وهو جنرال العساكر السكسونية واخبره انه يمكنهم اجتياز البحر خوضا والوصول الى حصون الاسوجيين من غير مشقة ولا تعب فانتهز ملك البروسيا هذه الفرصة وبادر اليها

فتربصوا حتى جاء نصف الليل من الليلة القابلة وهبت رياح المغرب فنزل القائممقام المسمى كوبان في الماء ومعه من العساكر الف وثمانمائة واندفع الفان في هذا الوقت بعينه الى الحصون وساروا فوق الجسر الموصل اليها وصار طوبجية البروسيين يضربون بالمدافع على الاسوجيين من جهة وعساكر البروسيين والدانيمرقيين يرجفونهم من جهة اخرى

ولما رأى الاسوجيون الالفي عسكري الآتين على الجسر مع الجسارة وثقوا من انفسهم ان فيهم اقتدارا على اباداتهم وتدميرهم فدخل كوبان واصحابه بغتة في الحصون من جهة البحر فلما رآهم الاسوجيون قد احاطوا بهم علموا انه لا تمكن مقاومتهم واسر الاعداء خفر الاسوجيين واستولوا على مواضعهم بعد مقتلة شديدة وفر بعض الاسوجيين الى المدينة وتبعهم المحاصرون حتى وصل منهم الى قنطرة من خشب كانت هنالك ضابطان واربعة عساكر فبادر الاسوجيون برفع تلك القنطرة واسروا الضابطين ومن معهم وانقذوا المدينة بذلك

ووجد الاعداء في داخل الحصون اربعة وعشرين مدفعا فاداروها على المدينة وشددوا في محاصرتها لما وجدوه من نجاحهم في هذه الاغارة حتى ان نصف المدينة احترق من ضرب المدافع

وكان تجاه هذه المدينة في بحر بلطق جزيرة يقال لها روجيان وكانت كالسور للمدينة ولو وجد اهل استرالسند وحافظوها سفنا لانتقلوا اليها وكان لها عند كرلوس موقع عظيم لانه كان يرى انه اذا اخذها الاعداء صار منحصرا

براً او بحراً ويكون امره بحسب الظاهر دائراً بين شيئين اما ان يقبر باطلال مدينة استرالسند او يأسره اعداؤه الذين كانوا منذ مدة طويلة ساقطين عنده من درجة الاعتبار وكان لا ينظر اليهم الا بعين الاحتقار وطالما وضع عليهم قوانين صعبة وترتيبات قاسية ولكن الحالة السيئة التى كان عليها حينئذ لم تسعفه حتى يجعل فى تلك الجزيرة من المحافظين من يكفى فى الذب عنها الا انه لم يكن بها من العساكر الا الفان

واما اعداؤه فكانوا منذ ثلاثة اشهر يستعدون للتغلب على هذه الجزيرة التى يصعب الوصول اليها فتوصل الى ذلك الامير انالطة بعمل السفن ومساعدة الريح حتى وصل اليها فى (١٥) من شهر تشرين الثانى ومعه اثنا عشر الفا وكان كرلوس قد انتقل اليها قبل ذلك بيسير ليقوى الالفى عسكرى الذين كانوا بها ويثبت جنانهم وكانوا معسكرين فى مينا صغيرة على البعد من محل الاعداء بثلاثة فراسخ فلما الى نصف الليل سار بهم كرلوس نحو الاعداء مع غاية الهدء والسكوت لئلا يشعر بهم اعداؤهم وكان الامير انلطه قد حصن عساكره تحصينا هينا وكان لا يخطر ببال من معه من الضباط ان الاسوجيين يهجمون عليهم فى تلك الليلة ويعتقدون ان كرلوس مقيم بالمدينة الا ان الامير المذكور كان يعلم ان كرلوس لا يبعد عليه شئ فامر بحفر خندق عميق واحاطه بالآلات المسماة شلك فلك واخذ حذره حتى كانه بصدد قتال جيش جرار

فوصل اليهم كرلوس واصحابه قبل طلوع الشمس بساعتين من غير ان يسمع لهم غاغة ولا صوت الا انهم لما دنوا من الخندق صار يقول بعضهم لبعض سرا اقلعوا الشلك فلك فسمعهم الخفراء فارتج العرضى وفزع من هذا الامر واخذ الاعداء اسلحتهم ولما قلع كرلوس الشلك فلك نظر فرأى امامه خندقا واسعا فدهش وقال ان ذلك لم يخطر لى ببال ولكن لم تثبطه هذه الدهشة ولم تبرد همته وكان يجهل كمية هؤلاء الاعداء كما انهم كانوا يجهلون كمية من معه ولا يعلمون قلتهم فكانت ظلمة الليل مساعدة له فعزم على الحمل عليهم والقى نفسه فى

الخندق ومعه اقوى اصحابه واتبعهم جنانا ثم تبعهم الباقى ثم وضعوا ما وجدوه
فى الخندق من الشك والتن واصول الاشجار وفروعها وكتل الثلج ورام
العساكر الى قتلت برق الاعداء عليهم صدفة على بعضه وصعدوا عليه وصار
الملك ومن معه من الضباط واقوياء العساكر يحمل بعضهم بعضا على الاكتاف
ويصعدون الى اعلى الخندق ووقع الحرب بينهم وبين الاعداء وفى مبدء الامر
اوقعت القوة الاسوجية الخلل فى الاعداء وبددت شملهم لكن لما كان عددهم
على السدس من الاعداء لم يمض عليهم ربع ساعة حتى ولوا الادبار وركنوا
الى الفرار وجاوزوا الخندق فتبعهم الامير انلطة فى الفلاة وكان لا يعلم ان
الهارب امامه هو كرلوس الثانى عشر ثم حرض هذا الملك مسىء
البخت اصحابه على القتال واخذ الفريقان فى الحرب مع شدة العناد من
الحزبين وقتل بجانبه فى هذه الواقعة نديمه غورطزان والجنرال دوردوف
ووطئ كرلوس وهو فى شدة الالتحام على جسم الجنرال المذكور وكان
فيه بقية رمق وقتل امامه دورنغ الذى صحبه بمفرده فى سفره من بلاد الترك
الى مدينة استرالسند
وفى اثناء هذا الالتحام انقض ملازم من الدانيمرقيين لم يتيسر لى معرفة اسمه
على كرلوس حين عرفه وانتضى سيفه بيده وقبض على شعر الملك بيده الاخرى
وقال له ايها الملك سلم نفسك الى والا ضربت عنقك وكان فى منطقة كرلوس
طبنجة فامسكها بيده اليسرى واطلقها فيه فاصابته ومات منها فى صبيحة
اليوم الثانى فلما سمع الاعداء من هذا الملازم اسم كرلوس انقض عليه منهم
جم غفير واحتاطوا به فاصيب برصاصة تحت ثديه الايسر وغارت فى جسده
بحيث يسع محلها اصبعين وكان هو يسمى ذلك قشطا هينا وكان اذ ذاك
راجلا وقد اشرف على القتل او الاسر وكان الى جانبه القونتة بونياتوسقى
فاركبه فرسه وانقذه فى هذه الواقعة كما انقذه سابقا فى واقعة
بلطاوا
وذهب الاسوجيون المنهزمون الى محل فى الجزيرة يقال له الطفيرة وكان به

قلعة لم تزل تحت ايديهم فاضطر كرلوس الى ان يذهب من هذا المحل الى مدينة استرالسند ويترك هؤلاء الشجعان الذين خاطروا بانفسهم فى اعانته على هذا الامر الخطر فاسرهم الاعداء بعد ذهابه بيومين
وكان فى هؤلاء الاسرى بقايا الارطة الفرنساوية التى كانت فى واقعة هوكيستيت وانتقلت كما تقدم من خدمة اغسطوس الى خدمة كرلوس ثم دخل اغلبها فى ارطة جديدة كان رئيسها ابن الامبراطلة فكان هو الرئيس الرابع لها وكان قائد هذه الارطة المتنقلة التى لم تستقر تحت رئيس واحد فى هذه الواقعة المسماة واقعة زوچان هو القونتة وليسلونغ الذى خاطر بنفسه فى مدينة ادرنة لاجل مصلحة كرلوس كما سبق فاسر معها وكان جزآؤه فيما صدر منه من المنافع وفيما لحقه فى خدمته من المشاق والمصائب ان اسيء باساآت شنيعة وعقوبات فظيعة
وبعد ان صدر عن كرلوس من آثار الشجاعة والجسارة ما عاد على عساكره بالنقص والضعف مكث بمدينة استرالسند مشرفا على الاسر والقبض عليه كما كان بمدينة بندير ومع ذلك لم يكن عنده جزع ولا فزع بل كان لا يرى على وجهه اثر تغير اصلا فكان يذهب نهارا الى تحصين الاسوار ويغير ليلا على الاعداء ومع ذلك انهدم من المدينة بعض مواضع بل اضحى نصفها رمادا من كثرة الكلل التى كانت تتساقط على بيوتها كالامطار وكان اهلها عوضا عن كونهم يتضجرون من هذا الخطب الجسيم الذى حل بهم يتعجبون من مكابدة هذا الملك المشاق وشجاعته وقناعته حتى انهم دخلوا فى العسكرية تحت قيادته فكانوا يصحبونه فى الخروج على الاعداء فهم كناية عن محافظين آخرين للمدينة
وبينما كان كرلوس ذات يوم يملى على كاتب سره مكاتيب لمملكة اسوج اذ وقعت كلة على البيت الذى هو به فخرقت السقف وتفتتت قريبا من اوضة الملك وانهدم نصف السطح لكن لم يرتج المحل الذى كان به كرلوس لما انه كان فى سور متين ومن سعد كرلوس لم يدخل فى الموضع الذى هو بمشى من القطع

التى كانت تتطاير فى الهوآء مع ان الباب كان مفتوحا لكن سقط القلم من يد الكاتب لدهشته من غاغة الكلل وارتجاج البيت الذى كان يتراآى انه قد اشرف على السقوط فقال له الملك مع الهدوء ما بالك لا تكتب فلم يجبه الا بقوله يا ملك من الكلل فقال له ما المناسبة بين الكلل وما امليه عليك استمر على الكتابة

وكان مع الملك فى محاصرة مدينة استرالسند ايلجى فرنساوى يلقب بقونتة دوكورواسى وكان سر عسكر فرنسا وهو اخو الوزير الشهير المسمى ماركى دوتورسى وهو من اقارب كولبير الشهير الذى يحق له ان يبقى تذكره بفرانسا مدى الايام وكان المبعوث الى كرلوس كانه مبعوث للحرب والمخاطرة بنفسه وذلك انه كان يمكث مع هذا الايلجى يتحدثان ساعات كاملة فى المواضع الخطرة التى كانت تكثر بها القتلى عن جوانبهما وخلفهما من غير ان يلاحظ الملك ان هذا الموضع خطر عليهما ولا يمكن للايلجى ان يعرض له ان هنالك محلا آمن من تلك المواضع يليق للمحادثة وكان هذا الايلجى قد بذل مجهوده قبل المحاصرة فى ايقاع الصلح بين كرلوس وملك البروسيا ولم يفد ذلك شيأ لما ان ملك البروسيا كان يطلب اشياء كثيرة وملك اسوج لا تسمح نفسه بشئ منها فلم يحظ هذا القونتة فى سفرته هذه بشئ الا بمعاشرته لهذا الملك العجيب فكان غالبا ينام معه على فراش واحد واكتسب من مخالطته ومشاركته فى المشاق والاخطار الجرآءة عليه فى الكلام وكان من طبيعة كرلوس انه يشجع احبابه على مثل ذلك فكان يقول لهذا القونتة فى بعض الاحيان هلم لنغتاب كرلوس الثانى عشر ونذكر معايبه انتهى هكذا اخبرنى القونتة المذكور

ومكث القونتة دوكورواسى مع الملك فى المدينة الى اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثانى ثم استأذن المحاصرين فى الخروج بامتعته فاذنوا له واستأذن كرلوس ايضا وخرج من مدينة استرالسند وتركه فى اطلالها مع محافظين قد هلك ثلثاهم عازما على مصادمة الاعداء اذا هم

هجموا عليه
وقد حصل انهم فعلوا ذلك بعد سفر دو كورواسي بيومين فغلبوه ودخلوا المدينة مرتين فطردهم منها وكان يحارب داخلها بين عساكره الخيالة ولكن ظهر عليه المحاصرون بكثرتهم وتغلبوا على المدينة ولم يخرجوا منها فمكث فيها كرلوس بعد ذلك يومين منتظرا أن يهجموا عليه مرة واحدة فوقف ليلة عشرين من الشهر المذكور بجانب حصن صغير قد هدمته الكلل والقنبر واستمر الى نصف الليل قاصدا الهجوم على الاعداء حتى اذا كان الصباح تضرع اليه كبار الضباط ان لا يمكث في محل لا يجدي الذب عنه نفعا ولكن كان خطر الهروب من المدينة كخطر المكث بها لان بحر بلطق كان مشحونا بالسفن الموسقوبية والدانيمرقية ولم يكن لكرلوس في مينا استرالسند الا قنجة صغيرة ذات شراعات ومجاذيف فلما رأى كرلوس ان في هذا الهروب الخطر نخراله صمم عليه وركب البحر في الليلة الحادية والعشرين من شهر تشرين الثاني (سنة ١٧١٥) ومعه عشرة رجال فاضطروا الى تكسير ما جمد من الثلج في المينا على مياه البحر ليتيسر لهم تسيير القنجة ومكثوا على هذا التعب عدة ساعات وكانت قد برزت اوامر المحاصرين لقبطاناتهم ان لا يدعوا كرلوس يخرج من المدينة واذا خرج منها قبضوا عليه حيا كان او ميتا ولسعادة بخته كانت الريح لا تساعدهم على الجهة التي هو بها ثم وقع له خطر اشد من ذلك عند مروره امام جزيرة روجان قريبا من محل يقال له بابيتة كان قد نصب فيه الدانيمرقيون طابية فيها اثنا عشر مدفعا فلما وقع بصرهم على الملك ضربوا عليه بالمدافع فاجتهد الملاحون في تسيير القنجة بالمجاذيف واعملوا في ذلك جميع مقدورهم كي يتباعدوا عن الاعداء فاصابت رمية من مدافعهم رجلين كانا بجانب كرلوس واخرى كسرت صاري القنجة ومازال يكابد الاخطار حتى وصل الى سفينتين من سفنه كانتا سائرتين في بحر بلطق وفي اليوم الثاني سلمت المدينة للاعداء وامر محافظوها واما كرلوس فاستمر سائرا حتى رسا على استيده وهي احدى

مدن مملكة ايسكانيا ثم ذهب منها الى مدينة يقال لها كرلوكرونة على حالة مباينة بالكلية للحالة التى كان عليها حين سافر من هذه المدينة منذ خمس عشرة سنة بسفينة فيها مائة وعشرون مدفعا ليضع القوانين على ممالك الشمال

ولما كان قريبا من مملكته امل الاسوجيون ان يذهب الى تخت ملكه بعد هذه الغيبة الطويلة ولكنه كان بمعزل عن ذلك لانه كان عازما على ان لا يدخل دار اقامته الا بعد نصرته على اعدائه ولم يرض ان يذهب لرؤية رعيته التى كانت تحبه لما انه قصد ان يظلمها او يجمع منها عساكر لذب اعدائه عنه ولم يكن متشوقا الا لرؤية اخته فارسل بعدها بالاجتماع على شاطئ بحيرة ويتير باقليم استرغوثيا وذهب اليه بالبريد ولم يأخذ معه الا خادما واحدا فمكث معها فى هذا المحل يوما واحدا ثم عاد الى مدينة كرلوكرونة

ثم ارسل وهو فيها الى جميع اقاليمه اوامر بجمع عساكر جديدة لما انه كان يعتقد ان رعاياه انما خلقوا ليصحبوه فى الحرب وكان قد عودهم على موافقته فى هذا الاعتقاد فصاروا يكتبون فى العسكرية الشبان الذين بلغوا من العمر خمس عشرة سنة فلم يبق فى اغلب القرى الا الشيوخ والاطفال والنساء بل شوهد فى كثير من المواضع النساء يحرثن الارض بمفردهن

وكان من الصعب عليه اكثر من جمع العساكر تحصيل سفن حربية فلزمه ان يأمر رؤساء البحران يجمعوا له بعض مراكب ورخص لهم فى ارتكاب امور شنيعة تضر بالمملكة وكان هذا آخر ما عند مملكة اسوج من المجهودات ولزمه ايضا ان يطلب ما عند الرعية من سائر الاشياء ليقوم بمصاريف هذه العزيمة فلم يترك شيأ من انواع الظلم الا ارتكبه مقترا بتسميته غرامة فامر بتفتيش البيوت وان يؤخذ نصف ما فيها من المؤونة ويوضع فى المخازن الميرية واشترى على طرف الخزينة الملكية ما كان فى مملكته من الحديد ودفع لاربابه فى مقابلته اوراقا وكان يبيعه هو بالنقود ووضع الغرامات على جميع من كان يلبس ثياب الخز والشعور المستعارة او يحمل السيوف

المذهبة ووضع غرامة جسيمة على ارباب البيوت ذات المداخن وبالجملة فلو كانت الامة الاسوجية في حكومة ملك آخر غير كرلوس لكانت هذه الغرامات الصعبة سببا مفضيا الى عصيانهم وخروجهم عن الطاعة لكن كان ادنى فلاحيهم واشدهم تعبا وشقاء يعلم ان كرلوس في شقاء وتعب اكثر منه فمن ثم تجلدوا جميعا من غير سآمة لتحمل هذه المشاق الشديدة التي حلت بالملك قبلهم

وقد انساهم الخطر الذي عم المملكة بتمامها ما حل بهم فردا فردا من المصائب الخصوصية وذلك انهم كانوا دائما يترقبون هجوم الموسقوبيين والدانيرقيين والبروسيين والسكسونيين بل والانكليز على مملكتهم وكان هذا الخوف متمكنا منهم حتى ان من كان معه منهم دراهم اوامتعة ثمينة دفنها في الارض

وقد حصل ان سفن الانكليز ظهرت في بحر بلطق من غير ان يعلموا ماهي آتية بصدده وبلغهم ان ملك دانيرقة وقيصر الموسقو اتفقا على ان يضما عساكرهما الموسقوبيين والدانيرقيين الى بعضهما ليهجموا جميعا على مملكة اسوج في فصل الربيع من سنة (١٧١٦)

ومما ادهش جميع بلاد اوربا التي كانت دائما تلاحظ كرلوس في حركاته وسكناته انه سافر في شهر ادار (سنة ١٧١٦) ومعه عشرون الفا من العساكر للاغارة على مملكة نرويج وترك مملكته عرضة لاطماع الملوك المتحزبين عليها

ولم يشاهد من عهد انيبال الى عهد كرلوس ان جنرالا تعذر عليه ممانعة اعدائه في مملكته فذهب لقتالهم في ممالكهم غير هذا الملك فهو الذي اقتفى اثر انيبال حيث ترك مملكته وسار ليشن الغارة على مملكة نرويج وكان معه في هذه الغزوة زوج اخته امير هيسة او امير دوهيس

وكان لا يمكن الوصول الى مملكتي اسوج ونرويج الا بسلوك مسالك ضيقة خطرة يعقبهما من مسافة الى اخرى غدران ماء يتركها البحر بين الصخور

فاضطر كرلوس واصحابه الى ان يصنعوا فى كل يوم قناطر لاجتياز هذه الغدران وكان يمكن العدد القليل من الدانيمرقيين ان يصد الجيش الاسوجى ويقطع طريقه الا انهم لم يخطر ببالهم هذه الافكار التى حصلت لجماعة واستغربت اوروبا ايضا سكون القيصر وعدم تعرضه لمملكة اسوج والاغارة عليها مدة هذه الحوادث حسبما اتفق مع معاهديه

وسبب هذا السكون انه عزم على مقصد غريب من اعظم المقاصد التى تتصورها العقول الا انه كان صعب التنجيز والاجراء

وذلك ان البارون هنرى دوغورطز الذى ولد باقليم الفرنقونيا وكان من بارونات الدولة الالمانية قد نفع ملك اسوج حمدة اقامته بمدينة بندير نفعا كبيرا وصار فيما بعد نديمه واعظم وزرائه

ولم يكن لهذا البارون نظير فى المخادعة والمداهنة والجسارة وما به تكون النجاة من المصائب ولا احد يضاهيه فى النشاط والمهارة فى تنفيذ اغراضه ولو كانت صعبة الانجاز لسهولة وسائطها عنده وكان من عادته الافراط فى الهدايا والمواعيد والايمان والصدق والتكذيب

وكان لا يكل من شئ اصلا فكان يذهب من مملكة اسوج الى بلاد فرانسا والانكليز والفلمنك ليباشر بنفسه تنجيز مقاصده وكان فى وسعه ارهاب جميع بلاد اوروبا وقد عزم على ذلك وكما ان كرلوس كان لا يفوقه احد من اهل عصره فى الامور الحربية لوفور شجاعته كان هذا البارون ايضا امهر اهل زمانه فى العلوم والمعارف لذكائه وقوة قريحته فمن ثم كان له من نفوذ الكلمة على كرلوس ما لم يكن لسلفه من الوزراء

وبعد ان كان كرلوس لا يتلقى امرا من وزيره القونتة بيبير بل كانت تصدر عنه الاوامر وهو ابن عشرين سنة لم يلقى هذا الوزير صار فيما بعد لا يقدم على شئ الا بمقتضى رأى هذا البارون كما ستراه وانما كان يصغى اليه لان غوائل الدهر احوجته الى سماع النصائح وقبولها لا سيما وكان غورطز هذا لا يشير عليه الا بما يلائم شجاعته ويوافق طبيعته وقد عرف من حاله ان تعصبه على

برجس حاكم هانورة الذى تملك على الانكليز اشد من غضبه على غيره من الملوك المتعصبين عليه لما انه لم يقع منه اساءة في حقه كغيره من الملوك المذكورين ولان هذا الملك دخل في تلك الفتنة متعللا بانه يريد تسكينها واخماد نارها مع انه في الواقع انما دخل فيها ليبقى اقليم ابريمة ومدينة وردان تحت حكمه مع انه لم يكن له حق فيهما الا باشترائه اياهما بثمن بخس من ملك دانيمرقة الذى كان قد انتزعهما من المملكة الاسوجية وعرف هذا البارون ايضا ان قيصر الموسقو مغتاظ سرا من معاهديه لكونهم منعوه ان يتخذ له محلا في الامبراطورية الالمانية لانه لما اشتدت سطوته طمع في ان يكون له محل بها ومما اغاظه ايضا ان مدينة ويسمار التي لم يبق للاسوجيين غيرها في اطراف المانيا لما حاصرها البروسيون والدانيمرقيون واخذوها في (١٤) من شهر شباط افرنجي (سنة ١٧١٦) لم يرضوا ان يكون لعساكر الموسقو نصيب في تلك المحاصرة مع انهم كانوا قريبين من المدينة المذكورة حيث كانوا اذذاك باقليم ميكلانبورغ فلما وقع من المعاهدين مثل هذه الخيانة مرارا عديدة في حق القيصر تأثر منهم وتغيرت عزيمته في الباطن عما كانت عليه ولربما كان ذلك سببا في نجاة مملكة اسوج وخلوصها مما كانت قد اشرفت عليه من الدمار والخراب لانه قل ان تظفر ممالك عديدة متعاهدة بمملكة واحدة لعدم اتفاق الكلمة بينهم غالبا فهم وان نظروا بها في بعض الاحيان لكنها تنجو عاجلا مما حل بها من المصائب لما يقع بينهم من المشاجرات واختلاف الكلمة بخلاف العكس فانه كثيرا ما شوهد ان مملكة واحدة ظفرت بممالك متعددة وفتحتها

وكان يمكن للقيصر ان يغير على مملكة اسوج من سنة ١٧١٤ لكن منعه من القدوم على ذلك اما عدم اتفاقه مع ملوك الانكليز ودانيمرقة والبروسيا لكون معاهدتهم معه كانت على غير صفاء نية او لاعتقاده ان عساكره ليس فيها كفاءة للاغارة على ملة في بلادها ظهر فلا حوها على اعظم العساكر الدانيمرقية

ومما منعه ايضا احتياجه للدراهم فهو وان كان من اعظم الملوك ارباب الشوكة والصولة الا انه كان قليل الثروة لان ايراداته السنوية كانت لا تزيد على اربعة وعشرين مليونا من الفرنكات الفرنساوية نعم وان كان كشف كثيرا من معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس الا ان منفعتها لم تحصل فى ذلك الوقت بل كانت مصاريفها عليه جسيمة جدا واما ما رتبه من التجارة فانه كان قريب العهد اذ ذاك بحيث لم يترتب عليه ثمرة كافية وانما كان يؤمل نجاحه واما ما فتحه من الاقاليم فانما اكسبه الشوكة والفخر من غير ان يزيد فى ايراداته شيأ خصوصا وكان مشتغلا بجبر ما وقع فى اقليم ليونيا من التخريب الذى نشأ عن مكث الحرب فيه خمس عشرة سنة وعن التحريق والامراض المعدية حتى خلا عن السكان مع انه كان من اعظم الاقاليم خصوبة وكان يصرف اموالا جسيمة فى انشاء السفن الحربية وفى تنجيز مشروعاته التى كانت تبدو له دائما وتتجدد بتجدد الايام فافنى ذلك كله امواله وخزائنه حتى انه اضطر الى ان يزيد فى قيمة النقود ومثل هذا الدواء لا تبرأ به علة احتياج مملكة ايا ما كانت بل هو مضر ببلدة تأتى اليها البضائع من البلاد الاجنبية اكثر مما يخرج منها الى تلك البلاد

وهذا الذى ذكرناه هو بعض الاصول التى بنى عليها البارون غورطز ما عزم عليه من المشروعات والتغييرات فتجاسر على ان يعرض على ملك اسوج ان يلتمس الصلح من القيصر ويشتريه منه ولو باغلى ثمن وافهمه ان القيصر مغتاظ سرا من ملكى له والانكليز واخبره انه اذا اتفق كرلوس الثانى عشر ملك اسوج وبطرس الكسيوويت قيصر الموسقو وانضما الى بعضهما امكنهما ارهاب باقى ممالك اوربا

ولم يكن للصلح مع القيصر طريق الا ان يسلم له كرلوس فى جزء عظيم من الاقاليم التى فى شرقى بحر بلطق وشماله فافهمه وزيره غورطز انه ان سلم للقيصر فى تلك الاقاليم التى تغلب عليها ولا يمكن استرجاعها منه امكنه ان يحوز الفخر فى اعادة استانسلاس الى كرسى مملكته وتولية ابن ياكس الثانى على الانكليز

واعادة دوق هولستين الى اقاليمه
فاستحسن كرلوس ما ابداه له غورطز وان كان فى شك من وقوعه وفوض له الامر تفويضا كليا فسافر غورطز من مملكة اسوج وقد استوثق من الملك انه وكيل عنه فى جميع الامور يتصرف كيف يشاء وبذلك صار مرخصا فى ان يذهب الى اى ملك كان اذا توقفت عليه المصلحة فاختبر اولا فى هذا الغرض ديوان الموسقو بواسطة رجل ايقوسى يقال له ارسقين وكان اعظم حكماء القيصر وكان من حزب ياكس الثالث الذى هو ابن ياكس الثانى ويميل اليه كما هو الواقع عند اغلب الايقوسيين الذين ليس لهم معاش ولا منفعة فى دولة الانكليز
فمدح هذا الحكيم ذلك الغرض للامير منزيقوف وافهمه ان فيه مصلحة عظيمة وحسن له ذلك لما له فيه من المنفعة فاستحسن الامير المذكور ما عرضه عليه الحكيم واخبر القيصر بذلك فاقره ورجع عن عزيمته التى اتفق عليها مع معاهديه من الاغارة على مملكة اسوج وترك عساكره باقليم ميكلانبورغ ليضوا به مدة الشتاء بل ذهب اليه بنفسه مظهرا ان غرضه ان ينهى المشاجرة التى حدثت بين دوق هذا الاقليم واعيانه ولكنه فى الواقع كان مضمرا تنجيز مقصده الحقيقى من ان يجعل له محلا فى بلاد المانيا ويحمل الدوق المذكور على ان يبيع له حكومة هذا الاقليم فلما علم معاهدوه بهذا المقصد غضبوا غضبا شديدا لما انهم كانوا لا يريدون مجاورة مثل هذا القيصر الشديد السطوة مخافة انه اذا ساعده الدهر على بلوغ مرامه وان يصير له فى المانيا محل يطغى ويجعل نفسه ايمبراطورا عليها ويتعدى على حكامها ويظلمهم فكان كلما اشتد الغضب بينهم يتقدم مقصد غورطز جهة النجاح وملزمه كان يخالط هؤلاء الملوك ويداهنهم حتى لا يطلعوا على ما اضمره من الدسائس وكان القيصر ايضا يداهنهم ويعلق آمالهم باشياء يلهون بها عن ملاحظة افعاله وكان كرلوس اذ ذاك فى اقليم نرويج مع زوج اخته الامير دوهيس قائدا عشرين الفا من العساكر للاغارة عليه ولم يكن به من المحافظين

الا احد عشر الفا من الدانيمرقيين متفرقة فى مواضع شتى فاعمل كرلوس والاميرد وهيس واصحابهما السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم
ومازال كرلوس سائرا حتى وصل الى كرسى هذا الاقليم وهى مدينة كرستيانا واخذ الدهر بعد العبوس يتبسم له فى هذه الزاوية من الدنيا الا انه لم يكن عنده احتراس ولا اعتناء بجلب القوت للعساكر ثم وصل الى هذا الاقليم عساكر وسفن دانيمرقية بصدد المدافعة عنه لكن لما نفد الزاد من عند كرلوس توجه الى مملكة اسوج ينتظر ما يترتب على ما عزم عليه وزيره غورطز من المقاصد العظيمة
وكان هذا الامر يستدعى شيئين متناقضين احدهما اخفاؤه بالكلية والثانى الاستعداد لامور جسيمة للنجاح فيه فبحث غورطز قريبا من بحار اسيا عن اعانة ذميمة وان كان يترتب عليها لو حصلت منفعة عظيمة فى الاغارة على ايقوسيا وفى جلب اموال وعساكر ومراكب لمملكة اسوج
وبيان تلك الاعانة انه كان من قديم الزمان ارباب صيال فى البحر من جميع الملل لاسيما الانكليز قد تحزبوا مع بعضهم على السلب والنهب فى بحار اوربا وامريقة فتتبعتهم الملل من مكان الى آخر حتى اجلوهم عن هذه البلاد فهربوا الى سواحل مدغشقار وهى جزيرة عظيمة فى شرقى افريقة وكانوا اولى قوة شديدة لا يهابون الموت معروفين بافعال لو قارنها العدل والانصاف لكانت من باب الشجاعة والمروءة وكانوا يبحثون عن ملك يأوون اليه ويعتمدون عليه لكن لم تساعدهم قوانين الملل لانها منعت من قبولهم فى اى مملكة كانت
لكن لما عرفوا ان كرلوس الثانى عشر رجع الى مملكة اسوج املوا ان يأويهم ويقبلهم تحت خدمته لما يعهدونه فيه من تولعه بالحرب خصوصا وهو الآن مضطر اليه ولم يكن عنده ما يلزم له من العساكر والسفن فبعثوا اليه رسولا فى سفينة من سفن الفلانك فذهب الى غورطز وعرض عليه انه ان اذن لهم فى المجئ الى مينا غوتمبورغ للدخول فى خدمة الملك اتوا ومعهم

ستون

ستون سفينة موسوقة بالاموال
فحسن غورطز هذا الامر للملك فاقره وارسل اليهم بعد سنة رجلين من اعيان
الاسوجيين يقال لاحدهما كرومطروم وللآخر مندال ليبتاعمعهم هذا
الامر لكن وجداهم قد ركنوا منذ زمن يسير الى ظهير اشرف وانفع
من كرلوس وهو الكردينال أليبرونى وكان ذا قريحة عظيمة حكم اسبانيا
مدة مديدة لمجرد الفخر لا لمصلحتها وتوسيع دائرتها
وقد عزم هذا الكردينال على مثل ما عزم عليه كرلوس وغورطز من تولية
ابن يا كس الثاني على كرسي بلاد الانكليز الا انه لما كان قريب عهد بالوزارة
وكان ذلك يوجب عليه ان يشتغل بالاصلاح والتنظيم فى مملكة اسبانيا
قبل ان يشغل فكره بايقاع الفشل والخلل فى غيرها من الممالك الاجنبية
كان يظهر من حاله انه لا يمكنه القدوم على هذه العزيمة الكبيرة الا بعد عدة سنين
لكن شوهد منه قبل مضى سنتين تغييرات عظيمة بمملكة اسبانيا حتى اعاد لها
نفوذ كلمتها على اوربا بل ويقال انه حمل الترك على الاغارة على ايمبراطور
المانيا وعزم فى هذا الوقت ان يجمع فى آن واحد بين عزل دوق اورليان
عن نيابة المملكة الفرنساوية ونزع تاج ابرطانيا الكبرى من جرجس فما اشد
خطر الانسان اذا كان مطلق التصرف فى مملكة ذات شوكة قوية وكان
بمكان من الشجاعة والحزم
وبعد ان اوقد غورطز نيران الفتنة التى عزم عليها فى ديوان الموسقو وديوان
اسبانيا ذهب خفية الى فرانسا ومنها الى بلاد الفلمنك وتقابل فيهما مع جماعة
ابن يا كس الثانى
وتكلم معهم فى هذا الامر وعرف قوتهم وعدد من كان لا يميل الى حكومة
جرجس على الانكليز وعرف ايضا مقادير الاموال والعساكر التى يمكنهم
تجهيزها فرأى انهم لا يحتاجون فى عزل هذا الملك وتولية ابن يا كس الثانى
الا الى عشرة آلاف من العساكر تنضم الى ما عندهم واخبروه انهم بذلك
ينجعون قطعا

فارسل غورطز الى القونتة جيلمبورغ وكان الجيا عند الانكليز من طرف ملك اسوج يأمره بالالتئام مع رؤساء الجماعة المتعصبين على جرجس ويختبر حالهم فتكلم معهم هذا القونتة عدة مرات بمدينة لوندره وقوى عزمهم وواعدهم بجميع مايطلبونه فصمموا على ذلك وعينوا لملك اسوج مبالغ جسيمة من الدراهم وارسلوا الى غورطز ان يقبضها من شركاتهم ببلاد الفلمنك فاستلمها منهم واشترى بها ست سفن من ابرطانيا مع مايلزم لها من الاسلحة والآلات

وبعث ببرا الى فرانسا عدة ضباط منهم الامير فولرد شهد مع العساكر الفرنساوية ثلاثين غزوة لكن لم يعد عليه من خدمتهم كبير منفعة فتركهم ودخل فى خدمة كرلوس رغبة فى هذا الملك الشهير لا طمعا فى تحصيل الاموال وعما جله على ذلك ايضا ما كان يرومه من كونه يذيق كرلوس حلاوة ماابتدعه فى فن الحرب وكان هذا الامير قد مارس ذلك الفن مدة حياته مع التدقيق التام وقد اظهر للعامة فى شرحه على كتاب المؤرخ بوليب ما جدده من الفنون الحربية فاستحسن كرلوس ذلك حين اطلع عليه لما انه وجد هذا الامير على وفق طبيعته من كونه اخترع فى الحرب طرقا جديدة جريا على عادته من انه لا يقتفى اثر غيره واعتقد بما رأه من ذلك الامير انه من الوسائط المعينة له على الاغارة على ايقوسيا ولما بعثه غورطز الى فرانسا نجز فيها ما كان قد بعثه بصدده من المقاصد السرية فانضم الى هذه العصبة السرية كثير من الضباط الفرنساوية وعدد عظيم من الارلنديين فكانت هذه العصبة ناشئة فى آن واحد ببلاد الانكليز وفرانسا والموسقو وامتدت فروعها سرا فى اوربا بتمامها

ومع ذلك فكانت هذه الاستعدادات كلها كلا شئ بالنسبة الى همة الوزير غورطز وان كانت من الامور العظيمة بالنظر الى كونه لم يسبق بها وكان الاهم من ذلك كله هو ايقاع الصلح بين قيصر الموسقو وملك اسوج لتوقف النجاح فى تلك المقاصد عليه وكان دون هذا الامر العظيم موانع كثيرة

وذلك

وذلك ان البارون اوسترمان وزير الدولة الموسقوبية لم غل نفسه في مبدء الامر الى مقاصد الوزير غورطز لما انه كان في التبصر والاحتراس بقدر ما كان غورطز في الجرآءة والاقدام على الامور العظيمة فكان في تأنيه في السياسة وانتظاره اتيان المصلحة كمثل رجل غرس شجرة ولا يجني ثمرتها الا عند بدو صلاحها بخلاف غورطز فانه لعجلته في الامور السياسية والمبادرة الى تنجيزها كان كمن اراد الحصاد عقب البذر فلما خشي الوزير اوسترمان ان القيصر يغتر برونق هذا المقصد فيصالح الاسوجيين مصالحة تعود عليهم بالمنفعة جعل بينه وبين الجزم بذلك عوائق

لكن من حسن حظ غورطز وطالع سعده ان القيصر سافر الى بلاد الفلمنك في اوآئل سنة ١٧١٧ عازما على ان يسافر منها الى فرانسا لانه لم يبق عليه الا رؤية هذه المملكة الشهيرة التي كانت منذ مائة سنة او اكثر يغبطها من جاورها من الملل على تقدمها في المعارف ويقتدون بها في امورها فاراد ان يقنع بمشاهدة ما فيها من الامور الحسنة نفسه النهمة التي لا تكاد تنقضي رغبتها في التعليم والاطلاع على الاشياء وان يهذب سياسته فيها

فاجتمع به غورطز مرتين في مدينة لاهيا احدى المدن الشهيرة ببلاد الفلمنك وبلغ فيهما معه ما لم يكن يبلغه في ستة اشهر مع الوزراء المفوض لهم فلاحت على مقاصده تباشير النجاح لما انها كانت مخفية تحت حجاب بحيث لا يمكن الاطلاع عليها فمن ثم كان يتمدح بان اوربا لا تطلع عليها الا عند تنجيزها ووقوعها وكان لا يتكلم في مدينة لاهيا الا في شأن الصلح وكان يقول على رؤس الاشهاد اود ان يكون ملك الانكليز حكما في بلاد الشمال وواسطة في ايقاع الصلح بين اهلها وكان يظهر الرغبة الحكاية في ان يعقد مجلس في مدينة برونسويقة احدى مدن المانيا لبت الامر على حالة مرضية بين كرلوس واعدآئه

ولكن ظهرت دسائسه واتضح امره واول من عثر عليها هو دوق اورليان

نائب المملكة الفرنساوية وذلك انه كان له جواسيس فى سائر بقاع اوربا يخبرونه بما يقع فيها وكان قد كثر بفرانسا هؤلاء الرجال الذين لم يكن لهم صنعة الا بيع اسرار اصدقائهم ولم تكن معيشتهم غالبا الا من الوشى والنميمة والسعى بالفساد وتزايدوا فى حكومة هذا الدوق حتى ان نصف اهل تلك المملكة صار جاسوسا على النصف الآخر فاخبر هذا الدوق ملك الانكليز بتلك العصبة التى كان القصد منها اضراره والغدر به لما كان بينهما من الالفة والاتحاد

وكان الفلمنكيون يتهمون غورطز فيما كان يبديه فى هذا الامر ويسيؤون الظن به فى ذلك فاخبروا فى ذلك الوقت الوزير الانكليزى الذى كان عندهم باتهامهم اياه وانه بحسب الظن لا يريد بملك الانكليز خيرا فبينما كان كل من غورطز وجيلمبورغ يسعى فى تنجيز هذا الغرض مع غاية الاهتمام اذ قبض على غورطز فى مدينة دوونتير احدى مدائن اقليم غوولدرة بالبلاد الواطية وعلى جيلمبورغ بمدينة لندرة

وذلك ان جيلمبورغ لما كان الجيا من طرف ملك اسوج عند ملك الانكليز وهتك حرمة حقوق الملل بتعصبه على هذا الملك الذى هو مبعوث اليه ارتكب الانكليز فى شأنه ما ارتكبه فى شأن ملكهم من انتهاك الحرمة وقبضوا عليه ومما يتعجب منه هو ان مشورة العموم ببلاد الفلمنك امرت بالقبض على غورطز رعاية لخاطر ملك الانكليز لان مثل ذلك غير معهود وما كفاهم سجنه حتى ارسلوا الى هذا الوزير برقوتية من عندهم يقال له ويلدبران ليسأله لم ارتكب هذا الامر الذى عاد عليه بالضرر فقد اساءه ذلك اساءة شديدة ولم يفدهم شيأ بل كان سببا فى ذمهم بين الممالك وذلك انه لما سأله القوبتة المذكور قال له هل تعرفنى فقال نعم يا سيدى فقال اذن ينبغى لك ان تعلم انى لا اقول الا ما اريد فسكت ولم يسأله عن شىء بعد ذلك ثم ان جميع الالجية الذين ببلاد الانكليز لاسيما الامير مونطليون الحدو وزرآء اسبانيا شنعوا على الفلمنكين والانكليز فيما وقع منهم فى حق غورطز وجيلمبورغ ولم يصادف تشنيعهم محلا الا بالنظر للفلمنكين لانه لا عذر لهم فى ذلك حيث ترتب على سجنهم اعظم

وزراء ملك اسوج من غير ان يسيئهم في شيء شيئان ذميمان انتهاك حقوق الدول بين بعضها وكونهم اضروا بالحرية النفيسة التي رخصت للاجانب في الذهاب الى بلادهم مع ان ذلك كان منشأ عظمهم وثروتهم فبذلك اضروا بانفسهم وصدق عليهم قول القائل * اراش سهما ولكن فت في عضده
واما ملك الانكليز فقد اصاب في القبض على جيلمبورغ حيث ثبت عنده عداوته وخيانته وقد اوضح عذره في ذلك بكونه امر بطبع ما عثر عليه في امتعة جيلمبورغ من المكاتيب التي كانت بينه وبين غورطز وغيره في هذا المعنى حتى تنتشر بين الناس فيعلموا عذره وكان ملك اسوج اذ ذاك باقليم ايسكانيا فجيء اليه بهذه المكاتيب المطبوعة واخبر بالقبض على وزيريه فتبسم وقال هل طبعوا ايضا مكاتيبي التي كنت ارسلها اليهما وامر فورا بالقبض على الوزير الانكليزي الذي بمدينة استخلم وعلى عائلته وخدمه ومنع الوزير الفلمنكي ان يأتي الى ديوانه وحبسه ووضع عليه خفرا ومع ذلك لم ينكر ولم يقر ما فعله الوزير غورطز اما عدم انكاره عليه فلان كبره منعه ان ينكر شيأ استحسنه اولا واما عدم اقراره فلانه كان يعلم من مبدء الامر ان هذا الغرض يتعذر تنفيذه والتزم السكوت مستنكفا ان يراسل في هذا المعنى ملكي الانكليز والفلمنك
واما القيصر فانه سلك مسلكا آخر وذلك انه لما لم يصرح باسمه في تلك المكاتيب المطبوعة وانما الوح اليه فيها على طريق الاشارة الخفية كتب الى ملك الانكليز يهنيه بالظهور على ما اضمرته له تلك العصبة ويخبره بانه لم يزل على صدق المحبة واكيد المودة ولم يحل عن عهد الصداقة فقرأ جرجس كتابه ولم يثق بما فيه باطنا وان اظهر انه واثق به ومعتقد مضمونه ولكن قد جرت العادة ان العصبة السرية اذا كانت واقعة من الآحاد تتلاشى بمجرد ظهورها والاطلاع عليها بخلاف ما اذا كانت صادرة من الملوك فانها تتزايد وتتقوى بانكشافها وظهورها وذلك ان القيصر وصل الى باريس في شهر ابار افرنجي (سنة ١٧١٧) ولم يكتف بما شاهده فيها من محاسن الصناعة والطبيعة والاكدميات اي مجامع العلماء

والكتبخانات العمومية والتحفخانات الخصوصية والقصور الملوكية بل عرض على دوق اورليان نائب المملكة امرا لو حصل لتم عظم الدولة الموسقوبية وهو ان يكون هذا الدوق واسطة فى الصلح بينه و بين ملك اسوج الذى ملك له فى اقاليم عظيمة ليمنع الدانيمرقيين ان يكون لهم تسلطن على بحر بلطق ويوقع الفتن بين الانكليز حتى تضعف شوكتهم و يجلب الى البلاد الموسقوبية جميع تجارات البلاد الشمالية و يثير نار الفتنة بين استانسلاس و اغسطوس فتضطرم بذلك نيران الفتن فى سائر الجهات فيذهب اليها اما الزيادتها اولاخمادها على حسب ما يراه من المصلحة فى ذلك فكل هذا كان سببا حاملا له على ان يعرض للدوق المذكور ان يكون واسطة فى الصلح بينه وبين كرلوس وان يكون معاهدا لمملكتى الموسقو واسوج ومملكة اسبانيا فى الذب عن انفسها وفى الاغارة على غيرها من الممالك فلم يقبل الدوق هذه المعاهدة وان كان يظهر منها انها تعود بالمنفعة على هذه الممالك وتجعل زمام اوربا فى ايديها بل كان فى هذا الوقت شارعا فى امر يباين ذلك لانه تحزب مع ايمبراطور الماينا وجرجس ملك الانكليز وانضم اليهما فتغيرت حينئذ مصالح الملوك حتى ان القيصر كاد ان يحارب بمعاهده القديم الملك اغسطوس وينتصر لعدوه الاكبر كرلوس حين كانت فرانسا تبغى محاربة ملك اسبانيا فيليبش حفيد لويز الرابع عشر انتصارا للالمانيين والانكليز بعد ان دافعت عنه مدة طويلة وحمته من هاتين الملتين وبذلت عليه اموالا جسيمة وفقدت كثيرا من رجالها و بالجملة فلم يبلغ القيصر من دوق اورليان بوسايطه اليه الانوسطه فى تخلية مدينتى غورطز و جيلبورغ ثم عاد الى ممالكه فى اواخر شهر حيزران وقد تعجبت منه فرانسا حيث ان مثله يتغرب عن ممالكه للتعلم الان كثيرا من الفرنساوية لم يرفيه الا الخشونة التى بقيت له من سوء تربيته ولم ينظروا الى عظمه وكونه جدد ملة وشرع قوانينها

وقد وجد ما كان يطلبه من دوق اورليان عند الكردينال ألبيرونى الذى تقوت شوكته فى بلاد اسبانيا وذلك ان هذا الكردينال كان لا يبغى شيأ الا تولية

باكس الثالث على مملكة ابنه باكس الثاني لكون الانكليز آذوا مملكة اسبانيا
منذ مدة طويلة وهو وزيرها ولانه كان عدو الدوق اورليان الذي تعصب
مع الانكليز على اسبانيا ولكونه كان قسيس الكنيسة التي فقد باكس الثاني
تاجه لاجلها

وكان عند الانكليز في ايام حانة رجل يقال له دوق دورموند وكان عندهم
بمنزلة الدوق مالبروغ في المحبة فلما تولى جرجس هاجر من بلادهم الى مدينة
مدريد وهي كرسي بلاد اسبانيا ثم بعثه فيليبش ملك تلك البلاد وباكس
الثالث الى مدينة من مدائن كورلندة تسمى ميطاو ليجتمع فيها بالقيصر
وهو مار بها وجعلاه وكيلا مفوضا في ان يلتمس من القيصر تزويج ابنته
لباكس الثالث وكان مع هذا الدوق رجل انكليزي ماهر جسور يقال له
ايرنوغان فاجتمعا بالقيصر في تلك المدينة والتمسا منه ان يزوج ابنته حانة
بطرونة من ابن باكس الثاني وكان القصد من طلب هذه المصاهرة ارتباط
القيصر ارتباطا اكيدا بهذا الامير المنكين والسعي في مصالحه غير ان هذه
القضية كادت تعطل المصالح وتؤخر اجراءها عوضا عن كونها تسهل اجراءها
وتنجيزها وذلك ان الوزير غورطز كان من جملة اغراضه التي عزم عليها منذ
مدة طويلة تزويج هذه الاميرة الدوق هولستين الذي تزوجها فيما بعد فلما علم
ما عرضه دوق دورموند للقيصر في هذا الشأن تأثر منه واجتهد في تعطيله

وكان خروجه من السجن في شهر آب افرنجي وكذلك القونتة جيلمبورغ
من غير ان يعتني ملك اسوج بملك الانكليز ويخاطبه في هذا المعنى ويعتذر له
باي اعتذار كان بل ولم يظهر ان عنده ادنى غيظ مما سلكه وزيره

ولما بلغه خروجهما من السجن افرج عن الوزير الانكليزي وجميع عائلته
بعد ان اساء اساءة فاحشة لم تقع للقونتة جيلمبورغ بمدينة لندرة

ولما خرج غورطز من السجن صار كانه اسد انفلت الى فريسة فاضاف
الى ما كان عازما عليه من المقاصد السرية التصميم على الانتقام وسار على
البريد حتى وصل الى القيصر ونجح فيما قصده منه نجاحا لم يسبق بمثله وذلك انه

اثبت للقيصر انه اذا عين بمعيته وزيرا من طرفه لاجل المذاكرة فى شأن صلحه مع ملك اسوج لازال فى اقل من ثلاثة اشهر جميع مايعوق ذلك من الموانع واخذ خرطة جغرافية كان قد رسمها القيصر بيده ورسم عليها غورطز خطا من مدينة ويبورغ الى البحر المتجمد الشمالى وشق بذلك الخط بحيرة لادوغة والتزم ان يحمل ملكه كرلوس على ان يسلم للقيصر فيما كان على شرقى هذا الخط من البلاد وكذلك اقاليم قارليا وانغريا وليونيا ثم عرض على القيصر بعد ذلك ان يزوج ابنته لدوق هولستين واخبره ان هذا الدوق يمكن ان يسلم له فى اقاليمه بواسطة بذل شئ يوازيها ويصير بذلك عضوا من اعضاء الامبراطورية وانه متى انخرط فى سلك اعضائها لابد ان يؤول تاجها اليه اوالى واحد من ذريته وقوى بذلك رغبة القيصر الذى كان شديد الطمع وجرم ابن ياكس الثانى من الاميرة الموسقوبية حين كان غورطز المذكور يسعى له فى التولية على بلاد الانكليز

فعين له القيصر من طرفه وزيره المسمى اوسترمان وجعل محل مذاكرتهما فى هذا الشأن جزيرة الندة وترجى دوق دورموند ان يرجع الى اسبانيا لئلا يوقع الريبة فى قلوب الانكليز حيث ان مرام القيصر ان لايظهر ذلك الامر الاعند الاغارة عليهم وانما اخذوا معهم الى مدينة پترسبورغ ايرنوغان الذى كان مع هذا الدوق ووكلوه بالسعى فى هذا الامر فاقام بتلك المدينة مع الاحتراس التام حتى انه كان لايخرج من بيته الاليلا وكان لايرى وزراء القيصر الامتنكرا فى زى فلاح اوتتارى

ولما عاد دوق دورموند الى محله بعث القيصر يخبر ملك الانكليز بانه طرد احب الناس الى ياكس الثالث واقولهم ارتباطا به لبريه انه دائما يراعى خاطره ويسعى فى مرضاته واما البارون غورطز فانه ذهب الى مملكة اسوج وقلبه مطمئن بقضاء حاجته

ووجد سيده قد جهز جيشا منتظما يبلغ خمسة وثلاثين الفا ورأى السواحل قد امتلأت من العساكر المستجدة ولم يكن كرلوس محتاجا الا الى الدراهم لانه

لم يجد

لم يجد من يقرضه شيأ لا فى خارج المملكة ولا فى داخلها وكانت فرانسا فى اواخر حكم ملكها لويز الرابع عشر تعينه ببعض اعانات فلما صارت تحت نيابة دوق اورليان قطعت عنه تلك الاعانات لما ان هذا الدوق كان على خلاف مصلحة كرلوس واما اسبانيا فانها وان كانت دائما تعده ببذل مايحتاج اليه الا انها كانت لا يمكنها ان تفى بجميع مايطلبه منها فلما رأه غورطز على تلك الحالة نجز ما كان قد عزم عليه قبل سفره الى فرانسا والفلمنك وهو انه جعل قيمة النحاس كالفضة بحيث ان قطعة النحاس التى كانت تساوى نصف صلدى صارت قيمتها تساوى اربعين صلديا وعليها طرة الملك وهذا قريب مما يفعله حكام مدينة محاصرة حيث يدفعون للعساكر ماهياتهم من قطع جلود عليها سكة الحاكم ويأمرون الاهالى بالتعامل بها حتى تتيسر عندهم النقود الاصلية وهذه النقود الصورية المخترعة للحاجة والتى لم يجر التعامل بها بين الناس دائما الا لمجرد وثوقهم بوفاء الدولة كانما هى بوليصات اواوراق حوالات مستعملة فى دولة من الدول بقيمة صورية يمكن ان تزيد على الاموال الحقيقية الموجودة فى تلك الدولة

ومثل هذه الوسايط لها نفع عظيم فى البلاد الحرة فكثيرا ما كانت واسطة فى نجاة جمهورية ولكن الاغلب فيها تخريب الحكومات الملكية لان العادة ان الرعايا لا يطول عندهم استئمان الميرى فلا يستبدلون النقود بالاوراق فى نظير فائض فيضطر امين الدولة الى عدم الوفاء بان لا يرد الاموال لمن رد اليه البوليصات فبذلك تكثر النقود الصورية التى هى الاوراق كثرة بالغة فيطلب الرعايا اموالهم ويحشون عنها بكل الوسائط فلا تجدى نفعا ويحصل بينهم وبين الدولة منازعات يترتب عليها غالبا اضرار عظيم بالفريقين وهذا ما وقع فى مملكة اسوج وذلك ان البارون غورطز لما نشر فى مبدء الامر هذه المعاملة الجديدة بين الناس على قدر الحاجة اضطر بعد قليل من الزمان ان يتجاوز ما اقتصر عليه اولا واحوجه الى ذلك سرعة تغيير الاسعار الذى لم يمكن لهذا الوزير ان يستمر على اجرآئه بالاقتصار على مافعله اولا وذلك انه لما ارتفعت اثمان

البضائع والمأكولات ارتفاعا زائدا اضطر الى ان يزيد فى عدد نقود النحاس فكانت كلما كثر عددها قل التعامل بها فلما كثرت هذه النقود الكاذبة ببلاد اسوج ضج الناس من البارون المذكور لكن لما كان عند الاهالى احترام عظيم لكرلوس الثانى عشر كاد ان لا يكون فى نفوسهم منه حقد وانما كل حقدهم كان على وزيره وذلك لانه لما كان غريبا وكان امينا على الاموال كان مبغوضا عند جميع الناس لهذين الامرين

والذى تمم كراهة الناس له كونه وضع غرامة على القسيسين فلذلك سموه كافر الاعتقاد هم ابن اهانتهم منقصة فى حق الله تعالى وكان مرسوما على تلك النقود الجديدة صورة بعض آلهة القدماء فاغتنم القسيسون الفرصة فى تسمية هذه النقود آلهة البارون غورطز

وانضم الى تلك الكراهة العامة غيرة الوزراء منه التى كانت لا تخمد نارها من قلوبهم لكونهم لم يشفوا غليلهم منه لعجزهم حتى ان اخت الملك وزوجها امير دوقيس كانا يخشيان بأسه لانهما كانا يعلمان انه من حين منشأنه مرتبط بدوق هولستين ارتباطا اكيدا وانه يمكنه ذات يوم ان يعطى هذا الدوق تاج مملكة اسوج وبالجملة فلم يكن له محب فى المملكة الا كرلوس الثانى عشر ولم ينتج من كراهة الناس له الا ازدياد محبته وقبوله عند كرلوس الذى كان من شأنه مباينة الناس ومخالفتهم فكان يثق به وثوقا كليا حتى بلغ منه ذلك ان اظهر الانقياد اليه وجعله مطلق التصرف فى حكومة داخل المملكة وفوض له فى شأن ما يخص الصلح مع القيصر وامره بالمبادرة الى مذاكرة جزيرة الندة

ولما تمم غورطز بمدينة استخلم ما كان يستدعى حضوره من اصلاح الايرادات الملكية وتنظيمها سافر ليتمم مع وزير القيصر ما كان قد شرع فيه من وسائط الصلح

ولنذكر لك شروط الصلح الاصلية التى ترتب عليها انغير حالة اوربا حسبما وجدت فى دفاتر غورطز بعد موته فنقول

حاصلها

حاصلها ان القيصر يبقى لنفسه اقليم ليونيا وجزأ من اقليمى انقريا وقارليا ويردمابقى لملك اسوج وانه ينضم الى كرلوس فى اعادة استانسلاس الى حكومة مملكته وانه يغير على تلك المملكة مع ثمانين الفا من الموسقوبيين ليعزل اغسطوس عنها بعد ان حارب لاجله كرلوس عشر سنين وانه يعطى لملك اسوج من السفن مايلزم لحمل عشرة آلاف من الاسوجيين الى الانكليز وثلاثين الفا الى المانيا وان عساكره المجتمعة مع عساكر كرلوس يهجمون جميعا على مملكة هانورة التى هى تحت حكم ملك الانكليز لاسيما دوقتى ابرية ووردان ثم يعيدون دوق هولستين الى ممالكه ويجبرون ملك البروسيا على العمل بمقتضى ماانحط عليه الرأى من انه يرد لملك اسوج جزأ مما تغلب عليه من اقاليمه انتهى ثم ان كرلوس سلك فى ذلك الوقت مسلك ما اذا كانت عساكره منصورة وانضم اليها عساكر القيصر واجروا جميعا مافى تلك المشارطة وذلك انه طلب على رؤس الاشهاد من ايمبراطور المانيا ان يجرى العمل بمقتضى مشارطة الترنسادة فلم يجبه اهل ديوان ويانة الا بعد مدة طويلة لما انهم صاروا لايعبأون به ولايخشون بأسه فى شئ

وكان اغسطوس اذ ذاك فى قلق عظيم لان المصائب كانت متراكمة عليه من جميع الجهات وذلك ان اعيان اللاهيين من مملكته كانوا متعصبين عليه فكان منذ عاد اليها اما فى حرب معهم او فى مشارطة بينه وبينهم وكان لقيصر الموسقو الذى كان حكما بينه وبينهم ويخشى بأسه مائة غراب قريبا من مدينة دنزيق وثمانون الفا من العساكر فى ثغور ممالكه فبذلك كانت بلاد الشمال فى حيرة وانزعاج * واول من عرف مقصود كل من القيصر وكرلوس فى شان استانسلاس هو فليمينغة وزير اغسطوس وكان اسوء الناس ظنا واشدهم احتراسا ومع ذلك فينبغى لما جاوره من الممالك الاحتراس منه فاراد ان يقبض على استانسلاس فى دوقة دوبون كما وقع سابقا مثل ذلك ايا كس سوبيسقى باقليم سيليزيا وكان بمملكته فى ذلك الوقت رجل بصور من الفرنساوية الذين يميلون الى التغرب عن اوطانهم ويذهبون الى البلاد الاجنبية ليتمولوا ويصيروا اصحاب

ثروة ويسار وكان منذ مدة يسيرة قد جلب من امثاله جماعة من الفرنساوية زاد خالهم معه فى خدمة اغسطوس فعرض على الوزير فليمنغة ان يذهب هو وثلاثون من ضباط الفرنساوية الابطال الذين لا يخافون الفوت ولا يهابون الموت ليختطفوا استانسلاس من قصره ويأتوا به اسيرا فى مدينة درسدة فاستحسن الوزير ذلك وكان مثل هذا الامر واقعا بكثرة فى اغلب الممالك وذلك ان جماعة من الطائفة الملقبة فى ايطاليا بلقب براواى الجسورين قد سلكت هذا المسلك غير مرة فى مدينة ميلانيرة مدة الحرب الاخير الذى كان بين المانيا وفرانسا وتفق بعد ذلك بيسير ان عدة من الفرنساوية تجاسروا على الدخول فى مدينة ورساليا عازمين على اختطاف الدوفين اى ولى عهد ملك فرانسا فلما لم يمكنهم ذلك قبضوا على رئيس الركبدارية تحت شبابيك سراية لويز الرابع عشر

ولنرجع الى ما نحن بصدده فنقول ان هذا الرجل الفرنساوى هيأر جاله وخيوله للقبض على استانسلاس فظهر امرهم ليلة اجراء ما قصدوه فقبض على البعض وهرب البعض فكان لا يترقب لمن قبض عليه منهم ما يجرى على امراء الحرب من العقوبات بل كان يترقب لهم ان يعاقبوا معاقبة اللصوص ولكن كان استانسلاس بمعزل عن ذلك حيث اكتفى بتوبيخهم ولومهم بل وانعم عليهم ببعض دراهم ليسلكوا طريق الاستقامة وظهر لاغسطوس من هذا الحلم والكرم ان خوفه من خصمه استانسلاس كان فى محله

ثم ان كرلوس سافر مرة ثانية لفتح بلاد نرويج فى شهر تشرين الاول (سنة ١٧١٨) وكان مستعدا لذلك استعدادا تاما حتى انه كان يظن ان يفتحها فى ستة اشهر وآثر ان يذهب فى الثلج والجليد لفتح صخور زمن القر الذى يهلك الحيوانات بمملكة اسوج مع ان ضرر هوائها لا يبلغ ضرر هواء مملكة نرويج على ان يتوجه ليسترد من اعدائه اقاليمه المغصوبة التى بمملكة المانيا والباعث له على ذلك ما كان يأمله من ان معاهدته الجديدة مع القيصر تجعله على حالة

بحيث يمكنه استرداد هذه الاقاليم وايضا كان يطمع ان يفتخر بكونه يأخذ مملكة عدوه الذي انتصر عليه سابقا (وهو ملك دانيمرقة)

فذهب بعساكره الى مدينة يقال لها فريد ريكهال موضوعة في مصب نهر تيستاندال قريبا من ثغور مملكة دانيمرقة بين مدينتي باهوس وأنسلو وهي ثغر حصين يعتبر كانه اقليد المملكة المذكورة بحيث يسهل على من تغلب عليه التغلب على المملكة باسرها وحاصرها في شهر كانون الاول وهيهات للعساكر التي اعجزها البرد أن تعمل شيأ في الاراضي التي قد علاها الجليد فهم في معاناتهم فيها كمن يحاول عمل خندق في الصخور لكنهم لم يكلوا ولم تسأم نفوسهم من ذلك الامر كيف وهم ينظرون ملكهم امامهم يقاسمهم التعب والمشاق ولم يتفق لكرلوس أنه كابد مثل هذه المشاق في غير تلك الواقعة وصار في ذلك الوقت قوي البنية بما تمرن عليه من الاشغال المتعبة منذ ثمان عشرة سنة حتى انه في مملكة نرويج كان ينام تحت السماء دون حجاب والوقت شديد البرد على تبن اولوح وليس عليه غطاء الاعباءته ولم يحصل لصحته ادنى تغير واما عساكره فمنهم من اهلكه البرد وهو واقف في محل الخفر ومنهم من يئس من المنفعة ولم يمكنهم التشكي من ذلك لكونهم وجدوا رئيسهم مثلهم في التعب والمشقة ولا بأس بايراد نادرة مناسبة للمقام تتعلق بكرلوس وهي انه سمع قبل هذه الغزوة بيسير وهو في اقليم ايسقانيا اوايسكانيا ان امرأة يقال لها يوهوس دوتير مكثت عدة اشهر لا تتغذى بشئ سوى الماء فقال في نفسه كيف لا افعل مثلها وقد كابدت من المشاق ماليس وراءه شئ مما في طوق البشر فلابد وأن اجرب نفسي حتى اعلم مقدار المدة التي يمكنني مكثها من غير غذاء ولا يلحقني فيها تعب فواصل خمسة ايام من غير اكل ولا شرب وفي صبيحة اليوم السادس ركب فرسه وعدا بها فرسخين ثم نزل عند امير دوهيس زوج اخته واكل عنده كثيرا فلم يضره هذا الصوم الطويل ولا كثرة الاكل عقبه

فكان هذا الجسم الصلب الجافي الذي تحكمت فيه نفس جسورة ثابتة مهولا

فى سائر احواله على جميع مجاوريه وذهب فى اليوم الحادى عشر من شهر كانون الاول (سنة ١٧١٨) وهو يوم موسم مارى اندرة ليطلع على ماصنعوه من الاستحكامات فلما رأى بعض المنافذ غير مستطيل على وفق مراده ظهر على وجهه شدة الغضب فقال له مسيو مغريطة وهو مهندس فرنساوى كان منوطا بادارة الحصار ان المدينة تؤخذ فى ثمانية ايام فقال سننظر ذلك واستمر يطلع على الاشغال مع هذا المهندس حتى وقف فى محل يتكون فيه زاوية من سكة فار بتلاقيها مع منفذ من المنافذ فجثا على ركبتيه فى داخل انحدار تلك الزاوية واستند بمرفقيه على الدروة ولبث مليا يلاحظ العملة وهم مستمرون على عمل التحصينات فى ضياء النجوم ومن المعلوم ان ادنى الامور ينظم فى سلك الامور الجليلة المعتبرة اذا تعلق بموت مثل هذا الملك اذا علمت ذلك فاقول ان مانقله كثير من المؤرخين من انه حصل بين كرلوس والمهندس مغريطة محاورة ومحادثة باطل لا اصل له وانما اذكر لك ماثبتت عندى صحته فى هذا المقام فاقول

ان الملك كان نصفه الاعلى بارزا من الدروة التى كان مرتفقا عليها بحيث كان عرضة لطابية من مدافع الاعداء محررة على الزاوية التى كان بها ولم يكن معه اذ ذاك الا رجلان من الفرنساوية احدهما يقال له سيكيير كان معاونه وكان ذا قريحة عظيمة ونشاط فى التنفيذ والاجراء وكان قد دخل فى خدمة كرلوس وهو ببلاد الترك وكان بينه وبين اميردوهيس مودة وارتباط اكيد وثانيهما مغريطة وكانت المدافع تضرب عليهم بما يسمى عند الفرنساوية كارتوش (وهو كناية عن جملة من المسامير والرصاص وقطع من الحديد موضوعة كلها فى ورقة غليظة) الا ان الملك كان اقرب الى الخطر منهما لانه كان بارزا من الدروة اكثر منهما وكان خلفهم ببعض اقدام القونتة سورين وكان رئيس الاستحكامات وكان معه القونتة بوسه ضابط الخفر والمعاون كولبيرو وكانا يتلقيان الاوامر من سورين فبينما كان سيكيير ومغريطة مع الملك اذ رأياه سقط على الارض وشهق شهقة فبادرا اليه

فاذا هو ميت وذلك انه اصابته رصاصة وزنها نصف رطل في صدغه الايمن وغارت فيه حتى صار محلها يسع ثلاثة اصابع ونظروا رأسه مائلا على الدروة وغارت عينه اليسرى وبرزت اليمنى من محجرها بروزا بينا وكان موته وقت اصابته ولكن عند موته الفجائي حدثت فيه قوة امكنه بها امسالك قبضة سيفه واستمر قابضا عليه بعد خروج روحه فلما نظر ذلك مغريطة وكان من نوادر الزمن لا يبالي بموت احد ولا بحياته لم يقل الا هذه العبارة تم الشوط هلموا بنا الى العشاء وذهب سيكيير على الفور الى القونتة سورين ليخبره بموت الملك ثم عزموا جميعا ان لا يفشوا هذا الخبر لاحد من العساكر حتى يعلم به اميردوهيس فلذلك نزعوا ما عليه من الملابس ولفوا جثته في عباءة لونها رمادي والبسه سيكيير برنيطته وشعره المستعار وحملوه بهذه المثابة وساروا به في خلال العساكر وقالوا انه الضابط كرلبرغ فبهذا لم يعلموا ان هذا القتيل ملكهم كرلوس الثاني عشر

فلما بلغ الخبر امير دوهيس امر ان لا يخرج احد من المعسكر ووضع خفرا على سائر الطرق الموصلة الى مملكة أسوج ليجد فسحة في تحصيل جميع الوسائل التي توصله الى تولية زوجته محل اخيها وقطع طمع دوق هولستين في تاج المملكة

فهكذا كانت مينة ذي الشوكة القوية * كرلوس الثاني عشر ملك البلاد الاسوجية * شرب كاس المنون صرفا * وقد بلغ من العمر ستا وثلاثين سنة ونصفا * بعد ان حاز من السعادة منتهاها * وكابد من شدائد النكبات اقصاها * من غير ان تكسبه الاولى رفاهية ورخاوة * او تزيل عنه الثانية بالوهن والهوان القوة والقساوة * كانت مشروعاته عجيبه * وكيفية عيشه غريبه * خرقت العادة فقل من يذعن اليها * وتجاوزت الحد فلا مصدق بما لديها * وهو الذي امتاز الى الآن عن الملوك وسائر الناس * بدوام الشوكة القوية وشدة الباس * تجاوز الحد في فضائل الابطال * حتى عادت في الخطر كضدها من ذميم الخصال * فانه لما افرط في الثبات

والتصميم * كان ذلك من باب العناد الذميم * واوجب له في بلاد اوقرينة حلول النكبات * وترتب عليه ان اقام ببلاد الترك خمس سنوات * ولما بلغ كرمه حد التبذير * آلت بذلك مملكته الى التفليس و التدمير * ولما تجاوزت شجاعته الحدود * افضى به ذلك أن نوى بالجحود * وكان عدله في بعض الاحيان جورا * بل في آخر الامر عاد نفعه ضرا * فتلك الخلال العظيمه * والخصال الحميدة الكريمه * التي لو اتصف غيره منها بواحدة * لا تبدت ذكره وكانت بفضله شاهده * كانت سببا في خراب المملكه * وموجبا لالقائها في التهلكه * فهو وان لم يلبس من التعدي ادنى لباس * كان في الانتقام ممن تعدى عليه قليل الاحتراس * وهو اول من أولع بفتح البلاد * من غير ان يطمع لمملكته في الاتساع والازدياد * فكان يرغب في قصدها المنحة غيره * ايثار الذكر شهرته ونخره * وقد منعه تواعه بالفخار * وفرط رغبته في قتال عدوه لاخذ الثار * ان يكون صاحب سياسه * وتدبير وحزم وكياسه * مع ان الفاتح بدون ذلك لا يظفر * ويبعد عنه مرامه ويتعذر

والعزم لابد له من حزم * لا خير في عزم بدون حزم

كان لا يأخذه الطيش قبل القتال * ولا يطير فرحا اذا ظهر على الاعداء ونال * وكان اذا انهزم لا يجزع * ولا يخاف سطوة عدوه ولا يفزع * وكان قاسيا على الرعيه * كما كان قاسيا على نفسه الخصوصيه * فالراحة والتعب عنده سيان * والحياة والموت لديه مستويان * سوآء نفسه ورعاياه * هكذا كانت سجاياه * فهو حري ان يوصف بالانفراد * لا انه عظيم بين العباد * وجدير بان يتعجب من افعاله * لا أن ينسج على منواله * وبالجملة فمناقبه دليل واضح لملوك الدهر * على ان فخر الدولة المسالمة السعيدة فوق كل فخر

وكان هذا الملك عليه جلالة ومهابة وكان ربعة لا بالطويل ولا بالقصير عظيم الجبهة عيونه واسعة زرقاء حسنة المنظر وانفه حسن الشكل الا ان اسفل ذقنه كان قبيحا خصوصا عن ضحكه الذي كان لا يبدو الا من شفتيه

وكان

وكان قليل الشعر جدا في لحيته ورأسه وسائر جسده وكان كثير الصمت وكان غالبا لا يجيب احدا الا مع التبسم الذي تعود عليه وكان لا يقع كلام على مائدته اصلا وعلى ما فيه من قوة الطبع كان يخجل خجلا مذموما وكان لا يعرف المسامرة لانه لما كان منهمكا على الاشغال المهمة والحروب كان لا يعرف التأنس والاجتماع وفي ايام بطالته عند الترك لم يطالع الا تاريخ اسكندر وشرح قيصر رومة عليه وانما الف نبذة في فن الحرب وفي غزواته من (سنة ١٧٠٠) الى (سنة ١٧٠٩) وذكر فيها الارآء التي كان يبديها وقد اخبر بذلك الامير فولد وقال له ان النبذة قد ضاعت مني في واقعة بلطاوا المشؤمة وقد زعم جماعة ان له باعا طويلا في الرياضيات والظاهر خلافه وانما كان فطنا ذكي العقل واما ما استدلوا به على زعمهم هذا فغير قاطع بدعواهم وذلك انهم تمسكوا بانه اراد أن يغير طريقة العد بالعشرات ويجعل بدلها اربعة وستين وذلك لان هذا العدد يشتمل على مكعب ومربع واذا نصف تناقص حتى يرجع الى الآحاد وهذا انما يدل على انه كان مولعا بالاشياء الغريبة الصعبة

ولا بأس بالكلام على ديانة هذا الملك ارضاء لمن يتشوف للاطلاع على جميع احوال هذا الملك وان كانت ديانة الملوك غالبا لا تؤثر شيأ في الرعايا بحيث يجبرون على اتباعهم لاسيما ورأى هذا الملك في الديانة لم يكن عظيم شئ اقله معارفه فنقول انه استمر متمسكا بالدين اللوتريانى تمسكا تاما الى (سنة ١٧٠٧) حسبما سمعته ممن اخبرني باصول هذا التاريخ ثم اجتمع في السنة المذكورة حين كان بمدينة ليبسيق بالفيلسوف الشهير المسمى ليبنيتز وكان رجلا جسورا يظهر معتقده من غير مبالاة باحد حتى شرب من مشربه كثير من الملوك فقيل ان كرلوس رفض الدين اللوتريانى باجتماعه على هذا الفيلسوف فرفضا كليا والظاهر خلافه فان مدة اجتماعه به كانت لا تزيد على ربع ساعة وقد اخبرني قسيس الذي لازمه سبع سنوات متوالية انه لما اطلع مدة اقامته ببلاد الترك على اديان مختلفة كثيرا ما يذكر الملك اباحته وهو مذاكرة لا موترى

فاقول * طالبا من الله القبول
ان المملكة الاسوجية رتبت بعد موت كرلوس قانونا جديدا جعل للحكومة
الملوكية حدا تقف عنده بعد أن كانت مطلقة التصرف وابدت الحرية
للملة الاسوجية وعلى موجب هذا القانون اجتمعت مشورة تألفت اربابها
من اربع طوائف كانت سابقا وهم الاعيان والقسيسون واهل المدن
والفلاحون وكانوا يجتمعون على رأس كل ثلاث سنوات مرة وربما اجتمعوا
فى اقل من تلك المدة اذا طلب الملك اومشورة السنت عند غيبته حضورهم
لاقتضاء الحال ذلك وكان لهم الحق فى عقد مشورتهم على رأس المدة
المذكورة ولو لم يطلبهم الملك اومشورة السنت وكانت المدة المعينة بالقانون
لمكثهم فى المذاكرة ثلاثة اشهر غير انه لما كان انحلال مشورتهم منوطا بهم
فى الواقع دون غيرهم كانوا يزيدون على تلك المدة اذا اقتضى الحال ذلك
وكان لهم الكلمة النافذة فى اى مجلس عقدوه واما الملك ومشورة السنت
فكانت احكامهم موقوفة لايعمل بها واما دخولهم معهم فى عقد المشورة
فلم يكن الالوضع الامضاء على مايقتضيه رأى ارباب المشورة وكذلك
كان ترتيب القوانين منوطا بهم دون الملك ومشورة السنت بل كان لايمكنهما
المعارضة اذا عزم ارباب المشورة الاهلية على مايضر بحقوقهما فلم يكن
ثم مايحفظ حقوقهما الامجرد حسن معاملتهما من ارباب المشورة المذكورة
وكان التصرف فى شأن الحرب والصلح وتغيير النقود منوطا بهذه الجمعية
دون غيرها وفى المدة المعينة لعقد المشورة كان معظم ادارة المملكة من
خصايصهم فكانوا ينتخبون من انفسهم لهذا الغرض جمعية صغيرة من
الاعيان والقسيسين واهل المدن وكان لهم الحق فى فصل الدعاوى
اذا استحسنوا ذلك فكانوا متى ارادوا فصل دعوى شرعت المحاكم العادية
فى فصلها امكنهم طلب اقامتها لديهم وانتخبوا لفصلها جمعية منهم وعند
انقضاء المدة تكون ادارة المملكة للملك ومشورة السنت لكن كانت مدخلية
فيها اقل من مدخليتهم ولم يكن له مايميزه عنهم الا كون رأيه يعتبر كرأيين وايثار رأيه

عند

عند تعادل الآراء وحيث كان لا يمكنه جمع عساكر من المملكة ولا احداث سفن ولا حصون الا برضاء مشورة الاهالى ولا عمل حرب او صلح او معاهدة ولم يكن مستقلا فى ترتيب ايراداته بل كان امرها منوطا بالمشاورز ولم يكن له اقتدار على تقليد المناصب ايا كانت وانما كان له مجرد انتخاب خدمته لم يكن له من المنصب الملوكى الا مجرد الاسم فكانوا يعدونه ملكا لمجرد الزينة يظهرونه للاهالى ليقع فى اذهانهم ان لهم ملكا وان مملكتهم منظومة فى سلك الممالك الملوكية فهكذا كانت حالة المملكة الاسوجية بعد موت كرلوس الثانى عشر وهى وان كان القصد منها منع الظلم والجور من المملكة كانت سببا فى ايقاع الخلل والفشل فيها

ثم انه فى (٤) من شهر نيسان افرنجي (سنة ١٧٢٠) اشركت الملكة أولبريقة ايليونورة اخت كرلوس بعلها المسمى افرد ريق دوهيس كاسيل معها فى الملك وكان ذلك برضاء الجمعية وكان فى اوائل شهر شباط الماضى قد وقع الصلح بين الاسوجيين والبروسيين على أن يترك لهم الاسوجيون مدينة استيتين الحصينة ثم وقع الصلح بينهم وبين الدانيمرقيين فى (١٤) من شهر حيزران وكان هذا الصلح اقل خسارة على الاسوجيين من الاول وذلك لانهم استردوا اليها الى حكومتهم مدينة ويسمار وجزأ من اقليم بوميرانيا ولكن بصلحهم مع الموسقوبيين الذى حصل فى مدينة نيستاد فى (٣٠) نيسان (سنة ١٧٢١) ضاع منهم مدينة ويبورغ باقليم فنلندة واقاليم انغيريا وقاريليا وليونيا وايستونيا وانضمت الى البلاد الموسقوبية ثم ان افردريق المذكور مكث بعد هذه المصالحات عشرين سنة وهو مشتغل بمداواة المملكة الاسوجية من المصائب التى لحقتها بما وقع من الحروب الطويلة غير ان ما كان فيها من الفتن الداخلية كان يمنع من فلاحها وانتظام حالها وكان منشأ تلك الفتن دسائس الدول الاجنبية التى لما رأت ان الكلمة فى تلك المملكة للمشورة الاهلية صارت تبذل الاموال لاربابها ليكونوا على وفق اغراضها ومصالحها السياسية وذلك انه منذ حكم غطاوة وازا على

مملكة أسوج كان بينها وبين مملكة فرانسا علاقة وارتباط اكيد ولم يمكث
هذا الارتباط الامدة ما كان ملوك أسوج اقوى ملوك الشمال شوكة وكان
الموسقويون اذ ذاك فى حالتهم الخشنية بحيث لم يكن لهم اعتبار ولا منزلة
فى ممالك اوربا وكان اقليم برندبورغ بعيدا وقتئذ عن درجة العظم التى ارتقى
اليها فيما بعد وكانت المملكة الاسوجية فى ذلك الوقت يمكنها أن تجعل لنفسها
مدخلية فى مصالح المانيا وكانت مملكة فرانسا ترى انها لو طلبت من مملكة
أسوج امدادا تظفر به على العائلة النمساوية لامدتها بذلك فكانت هذه
الاسباب كلها تستدعى بقاء المعاهدة بين هاتين المملكتين ولكن لما تغيرت
احوال ممالك الشمال وانحطت المملكة الاسوجية عن درجتها الاولية وارتقى
اقليم برندبورغ الصغير الى درجة الممالك العظيمة بحيث كان اهلا لأن يكون
بمفرده حصنا منيعا يقى الايمبراطورية الالمانية من الاسوجيين وصارت دولة
الروسيا مهابة جدا حتى ان المملكة الاسوجية لم تؤمل ان تقاومها
بمفردها بل ولا مع اعانة مملكة فرانسا البعيدة عنها لم يترتب على تلك
المعاهدة بين المملكتين ما كان مقصودا منها
ولما تغيرت قوانين مملكة أسوج سلكت حكومتها الجديدة مع الدول الاجنبية
مسلكا آخر وذلك انها لما رأت ان ايام فتوحاتها قد انقضت وان القوة
الاسوجية قد تلاشت وانه يلزم لامنها وطمأنينتها أن تسلك مع مجاوريها
لاسيما الموسقو بين مسلك الاتفاق والارتباط تيقظت لمعاهدة الموسقو بين
واهملت معاهدة الفرنساوية ومع ذلك فاموال الفرنساوية جعلت معهم
حزبا كبيرا من ارباب المشورة الاهلية بمملكة أسوج وايضا فخر الاسوجيين
القديم كان سببا فى استنكاف كثير منهم عن حمل اثقال حكم الموسقوبين
الذى كان على صورة الصلح والمعاهدة فبذلك انقسم اهل تلك المشورة
الاسوجية الى فرقتين فرقة تميل الى الفرنساوية ويقال لها فرقة البرانيط
(لان الفرنساوية يلبسونها) وكان غرضها فسخ معاهدة الموسقوبين
والاهتمام باسترداد الاقاليم التى ضاعت من المملكة الاسوجية وفرقة تميل

الى

الى الموسقوبيين ويقال لها فرقة القلنسوات (لان عادة الموسقوبيين لبسها) وكانت تعارض الفرقة الاولى فى الحرب الذى عزمت عليه وكانت تؤثر الصلح والسعادة الداخلية فى مملكتهم على الفخار الذى يكتسبونه من ذلك الحرب الخطر الذى لم تستوفيه القوة العسكرية من الفريقين ثم حصل فى جمعية (سنة ١٧٣٨) الطويلة الكثيرة المصائب ان فرقة البرانيط ظهرت على فرقة القلنسوات وتغلبت على ادارة المصالح وصار بيدها زمام المملكة دون الفرقة الاخرى فترتب على هذا التغيير الجديد فى ادارة المملكة وقوع حرب مشؤم بين الاسوجيين والموسقوبيين وذلك انه لما التقى الجمعان قريبا من مدينة ويلمنسترندة (سنة ١٧٤١) انهزم الاسوجيون هناك وانحصروا فى مدينة يقال لها هيلسينغفورد فى السنة التى بعدها وقد نفدت ذخائرهم وايسوا من الاعانة فاضطروا الى المشارطة مع اعدائهم فلم يجدوا لبدا من المبادرة لعقد صلح كانت شروطه اقل ضررا مما كانوا يتوهمونه وكان منشأ ذلك توسط دولة الانكليز فيه * وبالضرورة ينسب عدم نجاحهم فى هذه الواقعة لعدم مساواة القوة العسكرية من الفريقين ولكن فرقة البرانيط زعمت ان ذلك انما هو من اهمال رئيسى العساكر فى الحركات العسكرية وهما لوانهوب وبودانبروق فحكمت مشورة السنت بضرب اعناقهما ثم فى (سنة ١٧٥١) مات افردريق الخامس ولم يعقب ذرية ولما كان أدولف افردريق دوهلستين أوتين قد انتخبته مشورة العموم (سنة ١٧٤٣) وارثا للمملكة بعد افردريق الخامس اجلسته على سريرها بعد أن اخذت عليه العهود انه لا يعمل الا بمقتضى قوانين (سنة ١٧٢٠) ثم فى جمعية (سنة ١٧٥٦) التى كانت الكلمة فيها لفرقة البرانيط عممت المشورة اذلال الشوكة الملوكية ولكن الملكة لويزة اولريقة دو برندبورغ وكانت ذات حزم وتدبير اجتهدت فى ان تجعل فى المشورة حزبا يناقض ذلك ولما لم تجد من الوسائط ما يعينها على هذا الغرض رهنت على ماقيل جملة من حليها فى مدينة من المدن الانسيابقية

اى المدائن المتعاهدة لاجل التجارة لكن تفوّت المشورة بقانون (سنة ١٧٢٣) وامرت بالبحث عن العقار والحلى الملوكيين وافرطت فى ذلك حتى امرت بالتفتيش عما اخذته هذه الملكة فى صداقها من الحلى فصارت الملكة المذكورة تعارض هذا القانون الذى اساءها ولكن لم تجد معارضتها نفعا لما ان المشورة شددت غير مرة فى اجرائه حتى تبين ان غرضها من ذلك اذلال كل من الملك والملكة بمثل هذه الافعال السيئة وقد اتضح ظلم هذه المشورة بما ادعته من ان الملك لا حق له فى قصر تربية اولاده عليه فحرمته من ذلك وجعلت لولى العهد كفيلا يقوم بشأنه وتربيته وبلغ ذلك منها حتى تجاسرت على منع الملك من وضع اسمه وامضائه حيث الزمته بطبع صورة امضائه وتسليمها للمشورة السنت فبذلك صارت هذه المشورة تتصرف فى امضائه كيف شاءت

ولما رأت فرقة القلنسوات انه لا كلمة لها فى الدولة انضمت الى الحزب الذى يميل الى الملك وتحزبا جميعا على فرقة البرانيط فتحزب القونتة دوبراهة والقونتة هورن واغلب ضباط التاج الملوكى وصاروا عصبة واحدة على الفرقة الغالبة ليذلوها ويعيدوا للملك ما امكنهم اعادته ولو الشوكة التى كانت له فى مبدء الامر بمقتضى قانون (سنة ١٧٢٠) لكن انكشف امر تلك العصبة قبل ان تظهر نفسها بيسير فامرت المشورة بالقبض على القونتتين دوبراهه وهورن ومن كان معهما واقيمت دعواهم فى محكمة من المحاكم المشددة المسماة دواوين العدل السرية التى انتخب اربابها من ارباب المشورة الاهلية وكانت تنسج على منوال المحاكم المنوطة بالعقوبات والتعازير وحكم بالموت على رئيسى العصبة المذكورين وستة من اصحابهما بعد أن قاسوا من انواع العذاب اشدها ولم ينفع تضرع الملك والملكة وترجيهما من قضاة تلك المحكمة أن يخلوا سبيلهم بل اجرى الحكم عليهم فى المحل العمومى المعد لذلك بمدينة استكهلم

ثم ان

ثم ان فرانسا رشت فرقة البرانيط على ان تدخل مملكة اسوج فى حرب سبعة الاعوام وتنظمها فى سلك العصابة المتحزبة على ملك البروسيا وتكمل للمملكة الاسوجية على فرانسا عند انقضاء هذا الحرب اثناعشر مليونا مما بذلته اهما من الامدادات وكان يترآى من فرانسا انه ليس فى وسعها قضاء هذا الدين فكان ذلك اصلا لمذاكرات طويلة عاد فى مدتها الفرقة القلنسوات شوكتهم القديمة بسبب الدسائس و الرشوة التى كان يبذلها اليها الموسقويون والانكليز وكان ذلك فى (سنة ١٧٦٥) ومازالت هذه الفرقة حائزة لشوكتها وظهورها على الفرقة الاخرى الى (سنة ١٧٦٩) ثم عادت الشوكة لفرقة البرانيط ثانيا بسبب طلبها لعقد مجلس خصوصى لهذا الغرض فعند ذلك اجتهدت فرقة القلنسوات عسى أن تعقد مجلسا خصوصيا كالفرقة الاولى مؤملة عود الشوكة اليها و بينما هى كذلك اذ مات أدولف افردريق بدآء السكتة فى (١٢) من شهر شباط افرنجى (سنة ١٧٧١)

فملك بعده ابنه غسطاوة الثالث وكان هذا الامير وقتئذ فى فرانسا فاسرع الرجوع الى المملكة عازما على أن يهتم باعادة الحكومة الملوكية الى ما كانت عليه من المزايا سابقا وحيث كان سنه ستا وعشرين سنة وكان قد اضاف الى نشاط الشبوبية حسن التدبير الكامل والوقوف على حقائق الناس كما ينبغى وثبات جنان لا يتزلزل لم يكن مقامه دون هذه العزيمة الصعبة التى هم بها فلم يأخذه الطيش و يبادر الى اظهارها على الفور بل اظهر عند عوده الى مملكة أسوج انه خلى عن الاغراض فى حقوق الشوكة الملوكية وانه انما يريد الحرية العامة فقد اظهر فى خطبته التى افتتح بها المشورة التى كانت تنتظر قدومه انه لا يعرف فى الفخر اعظم من كونه اول رجل فى ملة حرة ثم اظهر ايضا انه يبذل جهده فى التوفيق بين الاحزاب السياسية و بالجملة فلما لبس التاج اظهر انه راغب عن ابهة التخت وان جل مرامه ان يعيش فى الخلا بعيدا عن الناس و يشتغل هناك بممارسة العلوم الادبية وكانت الكلمة اذ ذاك لفرقة القلنسوات فبينما كان الاهالى قد اشمأزت

وأبقى لها المدة المعينة لعقد مجلسها وهى ثلاثة الاشهر ومنعها أن تزيد عليها
شيأ ومما خصه به هذا القانون انه هو الذى ينصب ارباب مشورة السفت
وأن آراءهم ليست قطعية بل بعد أن يسمعها الملك يبت الامر بنفسه وانه
هو الذى يعقد الصلح والهدنة والمعاهدة سوآء كانت للذب او التحزب واما عمل
الحرب فلم يكن مختصا به بل كان منوطا برضا الجمعية وامتثالها وكانت قيادة
العساكر برية كانت او بحرية منوطة به كما ان سائر الوظائف مدنية كانت
او عسكرية كذلك وخصه القانون ايضا بانه تدفع له جميع الجرائم والغرامات
دائما لكن لا حق له فى ان يجدد غرامات غيرها الا فى صورة ما اذا كان هنالك
حرب للمدافعة عن المملكة او صورة ما اذا اقتضى الحال ذلك لجلب الامن
الداخلى فان له ذلك فى الصورتين لكن تكون تلك الغرامات الجديدة مغياة
بانقضاء اسبابها فاذا انقضت عقدوا مجلسا لابطالها وابقاء القديمة على
ما كانت عليه هذا هو القانون الجديد الذى رتبه الملك غسطاوة الثالث بمملكة
أسوج بعد تقلب وتغيير صدر منه ومكث بعض ساعات فى مدينة استكلم
وبعض ايام فى باقى المملكة من غير أن يعارضه فى ذلك احد ولا أن تسفك فيه
قطرة دم وهاك حالة المملكة حين شرع فى هذا التغيير واجرائه خلل شنيع
وعدم تعادل الشوكات بالكلية وتحزب فرقتين تمكنت فيهما الغيرة من بعضهما
مع الجور والتعدى ورؤساء اوباش شره شديد وطمع فاحش ومشورة على
اغراض الدول الاجنبية تدور مع اموالهم حيث دارت ودواوين سفت كثير
الاختلاس والتعسف ودولة تسمى فى الظاهر بالملوكية وفى الواقع ليست
الا كناية عن حكومة مركبة من حكومة الاشراف وحكومة الاهالى جامعة
لجميع انواع الاسراف الذى شأنه ان ينشأ فى هاتين الحكومتين هذا وقد اتهمه
بعض المؤرخين بانه قد اعدم حرية بلاده وفى الواقع انما اعدم ما كان فيها
من الخلل نعم وان كان مما لا شك فيه انه فى ترتيبه الجديد مال كل الميل الى اعلاء
الشوكة الملوكية الا انه مال ايضا الى اعلاء الحرية حيث لم يبطل المشورة
الاهلية مع ان محبة الاهالى والعساكر فيه تسهل عليه الاقدام على كل شئ

وحيث

وحيث لم يخص المنصب الملوكى بحق تشريع القوانين ونسخها ووضع الجرائم والغرامات وعمل الحرب بل اناط تنجيز ذلك برضاء الرعية فنقل هذا التضييق على نفسه ومنعه من الآن فصاعدا ان لا يتفوه احد باسمى البرانيط والقلنسوات وعفوه عما مضى العفو التام كل ذلك برهان جلى على السلوك مسلك الرفق من مثل هذا الملك الشاب الذى كان مقتضى حمية نصرته وتأثره من الاساآت الطويلة التى حصلت فى حق المنصب الملوكى أن يسلك فى الظلم والانتقام الغاية

وقد حصل عند الموسقو بين غم شديد من ابطال قانون (سنة ١٧٢٠) لان ذلك القانون كان سببا فى امنهم من مملكة أسوج وقوة تأثيرهم ولكن لم يتعرضوا لهذا الشأن لانهم كانوا مشغولين وقتئذ بالحرب مع الترك وكانوا ايضا فى اضطراب عظيم من عصيان بوغاتشيف القوزاقى وفى خوف وحيرة من تقسيم مملكة له ومع ما حصل لهم من الغم الشديد مما وقع (سنة ١٧٧٢) من التغيير كانوا يكتمون ذلك ولا يظهرونه لاحد ولكن كان يمكن أن تلك الطوية السيئة يطلع عليها بالسهولة عاجلا او آجلا عند وجود مقتضيات ذلك

ولما احس غسطاوة بهذا الخطر اشتغل على بعد بالاحتراس منه وعدم الاكتراث به حيث جعل مملكته زاهرة مهابة ثم ان مظهر ادارته الحسنة التى تعد من فعل الخير دليل على مروءته ومكارم اخلاقه وذلك انه بعد خمود الفتنة السابقة بيسير صدر عنه الامر بابطال ما كان مرتبا فى المملكة من انواع العذاب وازالة جميع المحال والآلات التى كانت معدة لذلك وكانت المملكة وقت جلوسه على سريرها فى قحط شديد اوقع الخراب فيها وتلف الزرع بعد ذلك عدة مرات متوالية فنشأ عن ذلك ازدياد الجدب وامتداده عدة سنين فلاجل تخفيف الفاقة عن الاهالى احدث بمدينة استخلم (سنة ١٧٧٣) دار الاشغال مختلفة ليشتغل فيها من لا صناعة له ولا جهة تعيش منها وفى ذلك منفعة لهم وللدولة وبعد ذلك بقليل سلك هذا المسلك فى سائر

مدن المملكة وكلها نجحت نجاحا تاما وامر في ذلك الوقت باشتراء ما يمكن جلبه من الحبوب سوآء كان من داخل المملكة او من خارجها وامر العمال بتوزيعه في اقاليمهم اما لاطفاء حرارة الجوع او للزراعة وكان قد ترتب على هذا الجدب حدوث امراض في المملكة قمعت ما كان فيها قبل ذلك من تناقص اهلها فصار الملك يتبرع على الاهالي بالادوية من غير مقابل ويبعث في سائر الجهات اطباء ويقوي هممهم باتحافهم بالرتب والانعام وعافى من فردة الرؤس جميع الفلاحين والعملة وارباب الحرف والصنايع والعساكر البرية والبحرية الذين كان اقل ما للرجل منهم اربعة من الاولاد طلبا لازدياد عدد اهل المملكة وكان يعتني اعتناء الوالد باولاده بادارة مواضع الايتام وسائر المارستانات ولما كان مولعا بان ينسج على منوال الامرآء ارباب الالتزامات الذين حسنت سيرتهم تذكرانه كان من جملة وظائفهم وحقوقهم ادارة مصالح الشبان والشيوخ فاناط ادارة مارستانات الفقرآء والايتام برجلين من الطائفة السيرافينية وكما كان ملتفتا اتم الالتفات الى حفظ رعيته من المصائب والجوائح السماوية كان ملتفتا ايضا الى ما يوجب الامن العام من المحافظة على العدل وحسن الادارة فمن ذلك انه رفعت اليه عدة شكاوى في محكمة مدينة ينكيبنغ فذهب بنفسه الى تلك المدينة وعين لتحقيق ذلك جماعة من ارباب مشورة السنت فبعد أن ثبت عنده بموجب تقريرهم التعدي والظلم امر من لم تثبت عليه جنحة من ارباب هذه المحكمة أن يعزلوا من اصحابهم من ثبتت عليه الجنحة والتعدي ولما رأى ان حرية الطباعة واطلاقها هو اعظم الوسائط في محافظة وكلاء الدولة على الواجبات عليهم وفي اطلاعه على مرغوبات الاهالي وضروراتهم اعان على توسيع دآئرة هذه الحرية النفيسة مع ما كان واقعا من اغلب ارباب ديوان السنت من المعارضة في ذلك بمنع حريتها بالكلية او تضييق حدودها

وقد اجتهد هذا الملك ايضا اجتهادا تاما في توسيع دآئرة التجارة والصنايع

فى مدته تقدمت صناعة استخراج المعادن وتضاعفت محصولاتها التى هى اصل ثروة تلك البلاد وزادت عما كانت عليه مرة اوثلاثا واخذ اهل مملكته فى شغل المادة المينالية الخامية وكانت الى ذلك العصر لا يشتغل بها الا فى الممالك الاجنبية وجلب من بلاد اوربا الى مملكته فى مدينة ايسكيلستونه باقليم سودرمانيا من مهرة الصناع المحترفين من كل معامل الحديد والفولاذ وكان هنالك مانع من تقدم التجارة واتساعها وهو قلة الايرادات الملكية وضعفها وعدم رواج السانع فى المملكة فرتب بحسن اداوته الامانة بين الناس بحيث يأمن بعضهم بعضا فى القرض وبهذا حصل لها النجاح التام وانعم فى ذلك الوقت بالحرية والاطلاق على مينا مارستزند فصارت تأتى اليها السفن من سائر الجهات وقوى الملاحة الاهلية بالاوامر التى صدرت فى (سنة ١٧٧٧) وذلك انه امر بمعافاة جميع بحارة السفن التجار بثمن فردة الروس منعا لبحارة الاسوجيين من الخروج عن وطنهم ورتب جمعية تجارية فى بلاد اغوتلند بامريقة فصارت تقتسم مع غيرها من الملل الاخرى الارباح الجسيمة التى تحصل من صيد الحيتان وصارت ايضا كانها مدرسة لشبان البحريين

ومثل هذا الملك الذى تمكنت منه الغيرة على فلاح بلاده لا يليق به أن يهمل الزراعة فقد اهتم بشأنها حيث وسع فى آجال اجارة الخفالك الملكية العديدة توسيعا لم يكن معهودا فيها قبل ذلك ترغيبا للفلاحين فى الاعتناء باراضى الزراعة والنصح فى خدمتها بطول انتفاعهم بها بل عقد مع بعض منهم ان زراعة اراضيهم تكون لاولادهم البكريين من بعدهم وصدرت عنه الاوامر بابطال عدة مواسم لا نفع لها فترتب على ذلك توفير اثنين وعشرين يوما للشغل فى كل سنة وكان مولعا بان يجعل مملكة اسوج على حالة بحيث تكون اقواتها من محصولات اراضيها وأن تعافى عما تدفعه للممالك الاجنبية من العوايد فى هذا الشأن فرتب لتحسين الزراعة جمعية لارباب خبرة للتبحث عن طرق تحسينها وزيادتها فى كل اقليم وبالجملة فلا اعلم ان فلاح المزارعين

منحصرا صالة في سهولة الرواج أنعم بالحرية في تجارات الحبوب بحيث
لم يبق فيها ادنى تضييق ·
وكان يتريض من اشغال الدولة بممارسة العلوم والآداب وكان له
مخاطبات علمية مع جماعة كثيرين من علماء اوربا واعاد بهمته لمجمع العلماء
بمدينة أوبسالى ما كان له سابقا من الشهرة والرونق وكان قد زال منه ذلك
بفقد الحكيم لينه ورتب مشورة لتربية صبيان الاهالى وامرها بتجديد
صورة بها يكمل نظام التعليم فى المدارس الصغيرة والكبيرة ورتب ايضا
جمعية لطبع الكتب الاولية وغيرها من الكتب النافعة وظهر فى أكدمة
العلوم بمدينة استخلم مهارة ونشاط جديد وتركت ما كانت عليه من
دعوى العلم التى لاطائل تحتها وعرضت على علماء اوربا مسائل عديدة
نفعها بين عام وقد حصلت منه الاعانة ايضا للفنون المستظرفة فجعل
لاكدمة التصوير والنقش رونقا جديدا ورتب للعمارات جمعية للمحافظة
على ان جميع العمارات الجديدة لاسيما العمارات السلطانية تبنى مع المتانة
واللطف وفى هذا الزمان بعينه ظهر من زمرة المؤلفين من اشتغل بالعلوم
الادبية مع الاعتناء التام فزينوها بعدة مؤلفات نفيسة سطعت بها انوار
اللغة الاسوجية وصار لها من الابهة والبهجة مالم يكن يعهد فيها قبل ذلك
وفى اثناء هذه المزاولات الصلحية تبصر غسطاوة فى الحرب فاصلح الجيوش
والسفن وكانت اذ ذاك على اشنع حالة فبذل جهده وصرف مصاريف كان
يظهر ان خزانته لاتفى بها لان اموالها اذ ذاك كانت قليلة حتى الف جيشا
يبلغ سبعة وار بعين الفا وكان يذهب بنفسه من اقليم الى آخر لتعليمهم
وتشجيعهم وزاد فى المدافع زيادة عظيمة وصنع اسلحة وبارودا وزاد فى عدد
العساكر البحرية وانشأ عمارة واسعة فى مينا قرلوةرونليد خلوا فيها السفن
الحربية وتكون فى محل يؤمن حفظها من عواصف الرياح فهذه هى اشغال
غسطاوة فى ظرف ست سنين من اول حكمه وهى مدة عظيمة افتخر بها
على رعيته فجمع (سنة ١٧٧٨) مشورة العموم التى كان قد ترك المذاكرة معها

مدة

مدة هذه السنين الست اى من (سنة ١٧٧٢) الى (سنة ١٧٧٨) وعرض عليها
جرنالا كتبه بنفسه و بين فيه الطرق الممدوحة التى سلكها فى استعمال
شوكته فى تلك المدة فاثنت عليه المشورة وشكرت صنيعه فى نظير الخيرات التى
فعلها مع الرعية وطلبت منه أن تطبع هذا الجرنال الذى بين اهالى فيه
كيفية ادارته و يحفظ ليطلع عليه خلفه فينسج على منواله ولكن قبل
أن يجمع تلك المشورة حصل عنده غيظ من كونه لاحظ ان المغتاظين من
حكومته يحدثون عن اعادة ما كان لهم من الشوكة واضرام نيران الفتن بين
الاهالى وذلك ان كبار الاشراف الذين كانوا متغلبين على اعظم قلاع المملكة
فى الزمن السابق وجدوا لهم وقتا للمذاكرة فى شأن ماضاع منهم فى حادثة
(١٩) آب المتقدمة فلما احس غسطاوة منهم بهذه التعصبات السرية على
ما احدثه من التغيير الجديد سارع الى التبصر فى مجانبة ما ينشأ عن تلك
التعصبات حيث حل المشورة التى كان عقدها وكان ذلك فى (٢٥) كانون
الثانى (سنة ١٧٧٩) فنشر المتعصبون خبث طويتهم التى كانت تثيرهم
الحمية فى سائر الاقاليم واهاجوا غضب الفلاحين خصوصا وكان لهؤلاء
الفلاحين الحق فى تقطير العرقى الذى يستعملونه على الدوام استعمالا كثيرا
فكانوا متأثرين غاية التأثر ومتضجرين جدا من كون الدولة احتكرت ذلك
وخصته بها فحصل فى (سنة ١٧٨٣) فتنة فى هذا الشأن باقليم داليقرليا
لكن اخمدت نارها فورا بعقاب اهلها وعرف غسطاوة بذلك ما يخشاه
من اعدآئه ثم ان حمية المتعصبين فى معارضتهم له عظمت وظهرت على رؤس
الاشهاد فى جمعية (سنة ١٧٨٦) مع انه كان يجتهد فى اطفائها بالرفق ولين
الجانب وذلك انهم لم يلتفتوا فى هذه الجمعية الى القضايا التى عرضها الملك
عليهم فيها ولم يقبلوا منها شيأ الاقضية ترتيب مخازن عمومية تعد لاعانة
الاهالى فى سنين الجدب ويكون مصاريف تأسيسها من البانكة الاهلية
فانه وصل الى ما حملهم على قبولها وفى ختام المشورة لم يستطع أن لا يظهر
لهم ان مقاومتهم له وعدم انقيادهم اليه يحمله على انه لا يتفكر فى استشارتهم

لكن حصلت حادثة على حين غفلة منعته من اجراء هذه العزيمة
وبيانها انه فى (سنة ١٧٨٧) سافرت الايمبراطورة كاترينة الثانية من مدينة بترسبورغ بجيش جرار ذى هيبة عظيمة وتغلبت به على بلاد القرم فكان هذا دعاء منها للترك الى الحرب وقد حصل فى الحقيقة بعد ذلك على الفور واما غسطاوة فانه كان يتشكى من ان دولة الروسيا كانت منذ زمن طويل تجتهد فى اضرام نيران الفتن القديمة بمملكة أسوج وقد كانت اخمدت بفتنة (سنة ١٧٧٢) فرأى ان ذلك فرصة تعينه على الانتقام من خبث طوية هذه الدولة وعلى اظهار فخر مملكته بالاسلحة وعزم على اغتنام الفرصة فى ذلك الوقت الذى كانت العساكر الموسقوبية فيه بعيدة عن بحر بلطق بثلثمائة فرسخ فاستغربت اوربا حيث بلغها على حين غفلة فى شهر حزيران (سنة ١٧٨٨) ان غسطاوة فى ثغور اقليم فنلندة الموسقوبى يقود ثلاثة وثلاثين الفا من العساكر فنغلب على هذا الاقليم لانه لم يكن به من المحافظين من يكفى فى الذب عنه فلم يمكنه أن يقاوم زمنا طويلا ثم لم يخطر ببال غسطاوة الا انه يبادر بالذهاب الى مدينة بترسبورغ ويعقد معهم الصلح فيها غيران سلوك احزاب الحكومة الارستوقراطية اى حكومة الاشراف عطل نجاح هذا المقصد الجاسر وذلك انه لما وصل الى قلعة فريدريكام امر بالهجوم عليها فتقدم اليه عدة من كبار الضباط الذين لم يزالوا معلقين آمالهم باعادة قانون (سنة ١٧٢٠) متعضدين بايمبراطورة الموسقو واظهروا انهم لا يتجاوزون هذا المحل وانهم لا يريدون أن يكون لهم مدخل فى مثل هذا الحرب الظلمى الذى شرع فيه من غير استشارة المشورة الاهلية وتبعهم على ذلك اغلب العساكر باغراآتهم لهم فانقطع سير غسطاوة بعصيان العساكر وهروبهم وعاد الى استخلم ليجدد ما كان قد فعله (سنة ١٧٧٢) من الفعلة الجاسرة ويتمم انحطاط الاشراف الذين كانوا يعطلون مشروعاته العظيمة وكان الحرب مع الموسقوبيين على السنة العامة بمملكة اسوج فوافقه على رأيه اغلب طوائف القسيسين والفلاحين واهل المدينة وطلبوا فى المشورة التى انعقدت

فى شهر

فى شهر شباط افرنجى (سنة ١٧٨٩) استمرار الحرب مع الموسقو وبين واما طائفة الاشراف فاظهروا المعارضة اظهارا كليا وأبدوا على رؤس الاشهاد امورا كثيرة توقف المشورة عن أن تبت امرا فى هذا المعنى لكن لما كان غسطاوة متقويا باهالى استخلم الذين كان قد سلحهم وبعساكر المحافظين قبض على ثلاثين من كبار المتعصبين واظهر فى (٢١) شباط بالمشورة قانونا جديدا كان قدرتبه مع وكلاء الطوائف الثلاثة ماعدا الاشراف فمنه ان الملك بمفرده هو الذى له الحق فى ادارة المملكة والذب عنها بمقتضى رأيه من غير أن يراجع احدا فى ذلك وهو الذى يعمل الحرب والصلح ويعقد المعاهدات ويفصل الدعاوى ويجرى العدل ويوزع الوظائف السلطانية ومنه ان ديوان السنت لادخل له من الآن فصاعدا فى شئ من امور الدولة وانما يكون ديوان المحاكمات الاعلى وانه حيث كان الاهالى الاسوجيون كلهم مستوين فى الاهلية والحرية فى مملكة واحدة لزم ان يكونوا جميعا على حد سواء فى التمتع بالحقوق والمزايا تحت رعاية القوانين الشرعية ومنه ان الوظائف على اختلافها جليلة كانت اوحقيرة لاتناط الا بالمعارف والتجربة وحب الوطن ولا ينظر من الآن فصاعدا الى عظم المقام وشرف النسب الا فيما لابد له من ذلك بموجب القوانين وان جميع الاسوجيين يتمتعون تمتعا تاما بالحرية الشخصية الكاملة وانهم جميعا لهم الحق فى تملك الاراضى وغيرها من الاملاك اياما كانت ومنه غير ذلك فقبل القسيسون والفلاحون واهل المدينة هذا القانون من غير تردد واما الاشراف فلم يقبلوه فى مبدء الامر حيث انه يحط بمقامهم ويساويهم بغيرهم ثم سلموا بعد المشقة والتعب للشوكة الملكية المعضدة بجمهور الاهالى ورضوا بذلك القانون فى (٢٧) نيسان فانظر كيف كانت فرصة اعداء غسطاوة فى اذلاله واعدام شوكته بالكلية فرصة له فى ازدياد شوكته وعلو شأنه وتكفلت مشورة الاهالى باداء الديون الاهلية وجميع القروض التى تطلبها الدولة منهم فى المستقبل ووفت فى ذلك الوقت بسائر الاعانات اللازمة لاستمرار الحرب

والحروب التى وقعت بين الاسوجيين والموسقو بيين (سنة ١٧٨٩) براو بحرا كانت مشتملة على عدة وقائع صغيرة لم يترتب عليها فائدة وانما حصل فى السنة التى بعدها وقائع شهيرة كثر فيها سفك الدماء وانتهت الحروب بين الفريقين بواقعة سنكسوند التى كانت النصرة فيها للسفن الاسوجية و بها انعقد صلح ويرلوفى (١٤) آب افرنجي (سنة ١٧٩٠) ولم يترتب عليه تغيير بل بقى الامر على ما كان عليه سابقا

ثم ان غسطاوة الثالث الذى كان دائما متولعا بالعزائم المهمة كان قد استعد لان يجعل له مدخلية فى الفتن الفرنساوية والانتصار للويز السادس عشر وكان لشجاعة غسطاوة فى هذا الاستعداد الحظ الاوفر اكثر من شوكته الملوكية وبينما كان مشتغلا بهذه العزيمة اذ قتل فى (١٦) ادار افرنجي (سنة ١٧٩٢) بمجلس نوع من انواع الرقص يتشكل فيه الندماء بصور مستعارة ويعدون من جملة حظوظهم فيه معرفة بعضهم بعضا والذى قتله رجل من ضباط العساكر يقال له أنكرسوترويم برمية بندقة حمله على ذلك تشكيات خصوصية مع ما كان فيه من حمية الاشراف وغيظهم فبذلك فقدت مملكة اسوج من غسطاوة الثالث هذا ملكا عظيما ذا حمية فى الفخار محبا للاهالى ماهرا فى السياسة والتدبير بطلا صنديدا جبر بالرفق فى احكامه وغيره من الصفات الحميدة ما يوجب اللوم عليه من تغيير احوال المملكة الذى هو فى الواقع من باب الظلم واطلاق التصرف الا ان الذى بعثه على ذلك هو كثرة الخلل الذى كان فى المملكة وافراط حكومة الاشراف فى الكبر والتعسف

ثم تولى بعده ابنه غسطاوة أدولف المشهور بغسطاوة الرابع وكان قد حصل عند ولادته بعض منازعات فى العائلة الملوكية بين غسطاوة الثالث واخويه وامه ثم انحط الرأى على تعيين من يرث المملكة بعد موت الملك ففى يوم موته تولى ابنه غسطاوة أدولف من غير ان يحصل فى ذلك ادنى معارضة وكان اذ ذاك صغيرا فتولى كفالته والوكالة فى المملكة عوضا عنه دوق دوسودرمانيا

وهو كرلوس الثالث عشر الذى تولى المملكة بعد ولم يباشر امور المملكة بنفسه الاحين بلغ السن المعين لبلوغ الرشد والخروج من الحجر وهو ثمان عشرة سنة وبعد أن تكررت منه الخطبة مرارا سافر الى بلاد المانيا خفية ليرى من تصلح له من بنات الملوك اللاتى بلغن سن الزواج فتزوج بصوفية دوروطه فردريقه التى هى اميرة باد واشهر النكاح فى (٣) تشرين الاول (سنة ١٧٩٧) وصار بزواجها صهر الاسكندر ايمبراطور الروسيا وملك باويرة وبعد أن مكث فى مملكته مدة رجع الى بلاد المانيا ومعه اعز ندمائه وزوجته وكان قد حصل فى ايرادات المملكة خلل وانعقدت مشورة فى نوركينغ لجبر ذلك الخلل فلم تجد نفعا فباع غسطاوة الرابع لدوق ميكلانبورغ مدينة ويمار العظيمة وكان قد اكتسب من الانكليز بعض اموال فى نظير اعاناته لتجاراتهم ببلاده ومع ذلك لم تكف هذه المبالغ فى قضاء حوايجه وما كان فى ضميره من المقاصد العظيمة وكان من صغره ينحو نحو كرلوس الثانى عشر حتى انه كان يتزيا بزيه ويتقلد بسيفه وكان فى خزينة الامتعة وكان يصحب معه صورة هذا البطل الصنديد لكن يستحيل لملك من ملوك اسوج فى هذا العصر أن يصل فى الفخار العسكرى الى درجة اسكندر الشمال (اعنى كرلوس المذكور) وكان قد عزم على محاربة الروسيين لداع هين وهو انه كان باقليم فنلندة قنطرة قريبة من مدينة أبورفورس على نهر قيمينه فادعاها كل من الدولتين فجيش اسكندر ايمبراطور الروسيا بعض ارط لذلك واما غسطاوة فسلم فيها لكونه رآى نفسه غير مستعد للمقاومة الا انه انتقم منه فيما بعد حيث لقب اكبر اولاده بدوق فنلندة الاعظم مع ان نصف هذه الدوقية كانت من تعلقات دولة الروسيا ووقع بينه وبين ملك دانيمرقة بعض منازعات فكان الدانيمرقيون يشكون منه حيث كان معاهدهم وسلم لاعدائهم الانكليز فى المرور على نهر السوند ليغيروا على مدينة كوبنهاغ وحصلت منهم بعد ذلك شكاوى اخرى افضت الى نقض المعاهدة بينهما وعقد الحرب بعد مدة

وكان غسطاوة الى ذلك الوقت متبعا رأى وايه دوق دوسودرمانيا فى المحافظة على التودد والارتباط بالدولة الفرنساوية الا ان هذه الدولة كانت اشد ارتباطا بالدانيمرقيين فلم تقابله بالاكرام على تودده اليها فعند ذلك امر الجيه بالخروج من فرانسا ولم يفعل كما فى ملوك اوربا حيث لم يقر بالايمبراطورية لنابليون واظهر العداوة لملك البروسيا ولم يقر ايضا ايمبراطور المانيا حين اراد تغيير لقبه وامتنع أن يقبل فى مملكته قونتة لودرون الذى ارسله الايمبراطور نابليون فى صفة الجى ولما عاد الشقاق (سنة ١٨٠٥) بين فرانسا والنمسا دخل فى العصبة على فرانسا وامده الانكليز ببعض امدادات وسير بعض عساكر الى اقليم بوميرانيا وذهب بنفسه الى مدينة استرالسند ليضم جيوشه الى جيوش الروسيين لكن واقعة استيرلتزه قطعت علائق تلك العصبة وشتتتها فرجع غسطاوة الى مدينة استخلم معلنا انه لايكون له دخل فى صلح ابرسبورغ ولا فى مذاكرات جمعية راتسبونة وبالجملة فلم يتأكد ارتباطه الا بدولة الانكليز بمفردها ولما دخلت جيوش البروسيا فى بلاد هانورة ولم يمكنه منعهم منها قبض على جميع سفنهم التى كانت على مينائه لكنه واشهر لهم الحرب ثم ذهب بنفسه الى مدينة استرالسند ليباشر العساكر بنفسه فاراد ايمبراطور الروسيا أن يتوسط فى الصلح بينه وبين البروسيين فامتنع من ذلك وكان بعض الجنرالات الاسوجية المسمى ايسان قائد عساكر اقليم بوميرانيا قد عقد هدنة مع المارشال برونه قائد الجيوش الفرنساوية بذلك الاقليم ولما رأى غسطاوة ان ايمبراطور الروسيا تهادن مع الايمبراطور نابليون فسخ الهدنة التى عقدها الجنرال ايسان مع المارشال الفرنساوى وصار بمفرده محاربا للفرنساوية الذين هم اكثر منه عددا ولما انعقد صلح تيلسيت بين دول بروسيا والروسيا وفرانسا صار غسطاوة فى ضنك شديد فتقدمت العساكر الفرنساوية الى مدينة استرالسند وحاصروها فعجز عن الممانعة عنها وترك رجلا من اصاغر الضباط ليتولى المشارطة معهم فاخذ المارشال برونه تلك المدينة واستولى على جزيرة روجان بل وفتح اقليم بوميرانيا

الاسوجى

الاسوجي كله فعند ذلك تعصبت عليه جميع الممالك التي عاداها فوجد نفسه
مجبورا على مقاومة البروسيا والروسيا والدانيمرقة وجدد المعاهدة بينه وبين الانكليز
ولسوء حظه اغارت العساكر الموسقوبية على اقليم فنلندة وكانت تحت قيادة
الجنرال بوكسهودان فشكا غسطاوة اصهره من كون هؤلاء العساكر خربوا
ذلك الاقليم تخريبا شنيعا ولم تجد شكواه نفعا بل استمرت العساكر على ذلك
التخريب وغاية ما فعله في هذا الشأن هو انه صار يرسل الى الاقليم المذكور
امدادات اسوجية للممانعة عنه فلم تنجح فبعث خفراء الورديان فلم ينجحوا
ايضا وكانت مملكة اسوج اذ ذاك خالية عن الاموال والرجال فكانت عرضة
لجميع المصائب وضج اهلها مما حل بهم لا سيما وكانوا في اسر شديد وصار يشتكي
من الملك كل من الاهالي والعساكر وتضرعوا اليه أن يعقد الصلح مع اعدائه
حيث لم يكن لانقاذ المملكة ونجاتها الا سلوك هذه الطريق فلم يصغ الى ذلك
بل امر بجمع عساكر جديدة حين بلغه ان العساكر الموسقوبية بعد أن
فتحت الاقليم السابق ذهبت الى جزائر ألندة وليس بينها وبين مدينة استخلم
الا خمسون ميلا لكن لما رأى معارضة الاهالي له في ذلك عزم على قتالهم وبينما
كان يستعد لذلك اذ دخل عليه في صبيحة اليوم الثالث عشر من شهر شباط
افرنجي (سنة ١٨٠٩) الجنرالات الاسوجية وهم ايقلنسبور وأدلكر وتز
وسيلو يسپارة واخبروه بما عليه المصالح من الحالة السيئة ورجوه أن يغير
كيفية حكمه او يتخلى عن المملكة فاراد أن ينتضي سيفه ويهجم عليهم
فبادروا الى امساكه والتضييق عليه بحيث لم يستطع ان يسل سيفه واحتملوه
الى اوضة من القصر وحبسوه فيها الا انه حين مرورهم به في داخل القصر
صاح على الخفر الذين كانوا هنالك أن اضربوا بالنار على الجنرالات فقال
الجنرالات لا تسمعوا كلام الملك فانه مريض لا يدري ما يقول ثم عرضوا على
دوق دوسودرمانيا ان يعود الى ما كان عليه من النيابة على المملكة والتولي
على مصالحها حتى تنتخب المشورة ملكا آخر فتردد مدة ثم رضي بذلك
ونقلوا غسطاوة في اليوم الذي قبضوا عليه فيه الى سراية ايدروتينغهولم

وذهب اليه فيها زوجته واولاده ثم كتب فى اليوم الثانى اعلاما وختمه ونصه اقول وانا غسطاوة أدولف انه لما اعانى الله منذ سبع سنين الى وقتنا هذا على الجلوس على كرسى تلوث بدم ابى المحترم تأسفت على عدم قدرتى على القيام بمنفعة المملكة وحيث تيقنت الآن انه لا يمكننى الاستمرار على المنصب الملوكى ولا المحافظة على نظام المملكة وراحتها رأيت من الواجب على أن اتخلى عن الملك وامضى ما بقى من حياتى فى خدمة الله وخشيته طالبا منه تعالى أن يمتع رعيتى وذرارتهم بالسعادة الابدية انتهى ثم انتخبت مشورة العموم فى (٢) حيزران افرنجى (سنة ١٨٠٩) دوق دوسودرمانيا ملكا على المملكة (وهو كرلوس الثالث عشر كما سبق) وحكمت بحرمان غسطاوة وذريته من المنصب الملوكى الى الابد وبنفيه من المملكة غير انها رتبت له معاشا يعيش به خارج المملكة وابطلت ما كان احدثه ابوه من القوانين فخرج من مملكة اسوج وساح فى بلاد عديدة ثم اراد أن يجمع جماعة من الاتقياء الحلماء بيت المقدس فلم ينجح فى ذلك وكانت عاقبته أن ذهب الى مدينة بالة واستظم فى سلك اهلها ولم يكن معه الا زوجته وخادمه

فلما تولى بعده كرلوس الثالث عشر بانتخاب المشورة اياه سلك مسلكا يباين مسلك غسطاوة الثالث حيث عقد الصلح مع الفرنساوية وتعاهد معهم بخلاف غسطاوة المذكور فانه كما سبق اراد قتالهم حين احبوا ان يكونوا جمهورا يتوصل لترقى الفنون والصنائع والتجارة فى ايام كرلوس زاهية زاهرة وانشأ فى المملكة كتبخانة ومدرسة عسكرية وخانات عديدة وفى اثناء حكمه ارادت مشورة العموم أن تنتخب لها وارثا يرث المملكة بعده فلما ولى عهده قدملت فانعقد رأى كل من الملك والمشورة على جنرال فرنساوى يقال له برنادوت تبناه الملك ثم مات كرلوس المذكور فى (٥) شباط افرنجى (سنة ١٨١٨) وبقيت سيرته حسنة بين الرعية وتخلد ذكره بقيا حواربه عليه فتولى بعده برنادوت فى (٢) من الشهر المذكور وهو كرلوس الرابع عشر وهو الملك المتولى الآن فاظهر لاهل المملكة انه يريد الحكم فيها على مقتضى

فهو لسهولته حرى بان يتلقى بالقبول * جدير بان يرغب فيه ارباب العقول * يستحق لما فيه من النفائس * أن يتداوله اهل المدارس * حيث انها تمارس سائر الفنون والمعارف * بانفاس من حاز فى المجد التليد والطارف * صاحب السعادة الابديه * والصولة الآصفيه * ذو النعم الجزيله * والايادى الجليله * محمد الاسم على الشان * قاهر الضد مبيد الشان

(شعر)

ولا فضل لى فيما اقول وانما * اياديه عندى ألسن تتكلم

وقصارى المديح * عجز الفصيح عن الوصول الى هذا الفضاء الفسيح * فانتقل من الثناء الى الدعا * حفظه الله ورعى * ولازالت الايام بوجوده باسمة الثغر * ورياض فضائله يانعة الزهر * تستمطر من يده هواطل الاحسان وينشده لسان الزمان (شعر)

بقيت بقاء الدهر يا كهف اهله * وهذا دعاء للبرية شامل

هذا واسأل الواقف على هذا الكتاب * ان ينظر اليه بعين الرضى والصواب * فان عثر على هفوة سبق بها اليراع * فلا يبادر باللوم بعد الاطلاع * بل يلتمس لاخيه عذرا * ينل بذلك اجرا * فان الانسان * محل النسيان * نسأل الله تعالى الوفاة على الاسلام * وان يدخلنا دار السلام بسلام * بجاه خير البريه * عليه اتم صلاة وازكى تحيه

وقد تم طبعه وايتع طلعه بمطبعة صاحب السعادة الابدية والهمة الداورية الآصفية التى انشأها ببولاق مصر المحميه فى غرة شهر رجب سنة سبع وخمسين ومائتين بعد الالف من هجرة من خلقه الله على اكمل وصف صلى الله عليه وعلى آله المكملين بكماله امين

تم

